

387

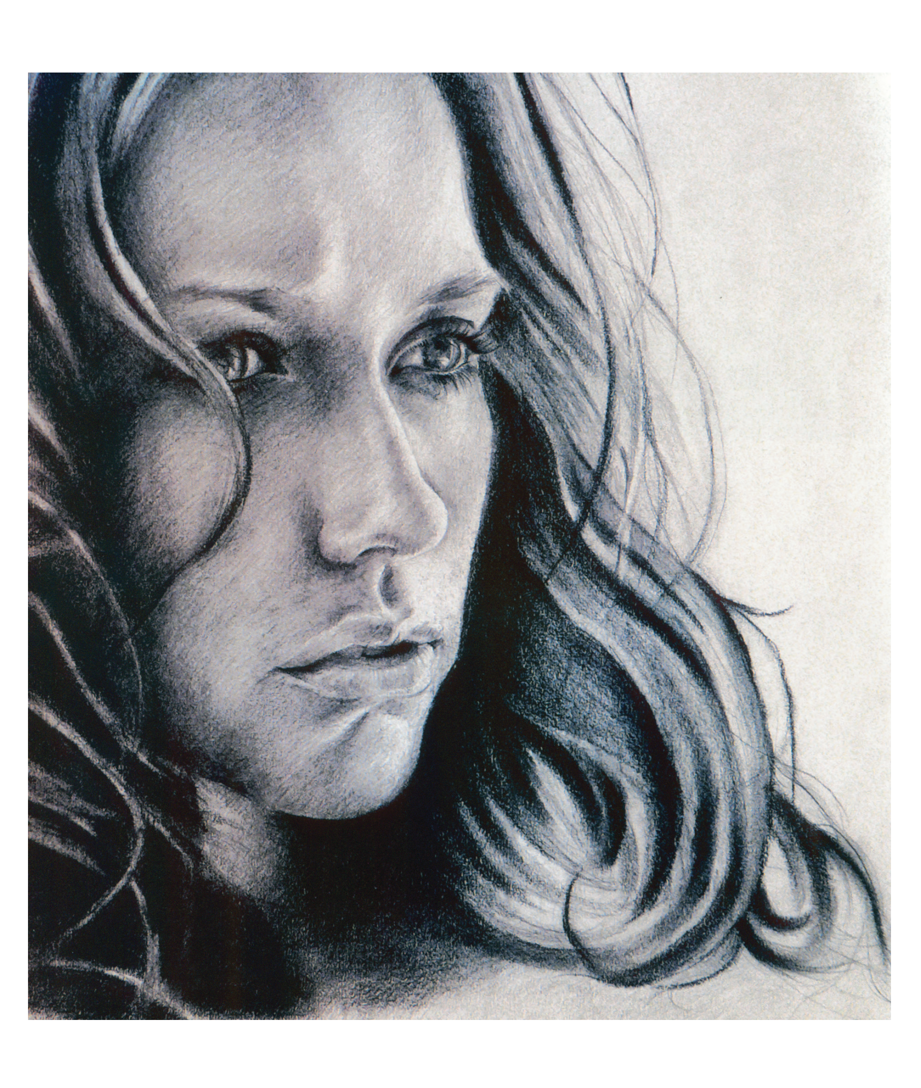
تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت

موطن الألم

(رواية)

تأليف: دوبرافكا أوجاريسك
ترجمة وتقديم: أ. د. محمد فرغل
مراجعة: د. سامية دياب

أكتوبر 2011



الفنان: أحمد مقيم

Hear my Heart

رصاص على ورق

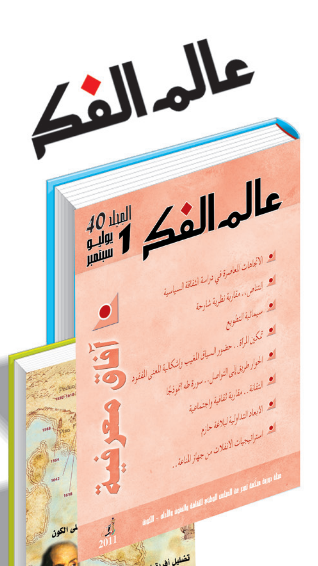
٣٦ x ٤٠ سم

إصدارات المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

الكويت

عالم الفكر



عالم المعرفة



الثقافة العالمية



الإصدارت الدورية











الإصدارت الدورية

إصدارات المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب



موطن الألم

(رواية)

تـــألـــيـــف: دوبرافكا أوجاريسك

ترجمة وتقديم: أ. د. محمد فرغل

مـــراجـــعـــة: د. سامية دياب

إبداعات عالمية

تصدر كل شهرين عن

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

www.kuwaitculture.org

:E.Mail

ebdaat_alamia@yahoo.com

سعر النسخة

الكويت ودول الخليج	500 فلس
الدول العربية الأخرى	ما يعادل دولارا أمريكيا
خارج الوطن العربي	دولاران أمريكيان

الاشتراكات

دولة الكويت

للأفراد	10د.ك
للمؤسسات	20 د.ك

دول الخليج

للأفراد	12د.ك
للمؤسسات	24 د.ك

الدول العربية الأخرى

للأفراد	25دولارا أمريكيا
للمؤسسات	50دولارا أمريكيا

خارج الوطن العربي

للأفراد	50دولارا أمريكيا
للمؤسسات	100دولار أمريكي

تسدد الاشتراكات مقدما بحوالة مصرفية باسم المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب وترسل على العنوان التالي:

السيد الأمين العام

للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

ص. ب: 28623 - الصفاة - الرمز البريدي13147

دولة الكويت

رقم الإيداع: ٢٠١١/٣٦٧

ردمك: ٤-٣٣٥-٠-٩٩٩٠٦

• موطن الألم

(رواية)

العنوان الأصلي:

THE MINISTRY OF PAIN

by: Dubravka Ugresic

TELEGRAM - *2008*

الطبعة الأولى - الكويت

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2011م

إبداعات عالمية - العدد 387

صدر العدد الأول في أكتوبر 1969م

تحت اسم سلسلة من المسرح العالمي

أسسها أحمد مشاري العدواني

(1990 - 1923)

ثناء علي دوبرافكا أوجاريسك

تتحدث أوجاريسك في سخطها وحزنها عن الكثير من الناس، والكثير من الخبرات. إنها كاتبة تحفزنا على متابعة القراءة لها. كاتبة يُعتز بها.

سوزان سونتاج

في كتب أوجاريسك تأملات عميقة عن الثقافة، والذاكرة، والجنون. أفضل ما ستقرأ أبدا.

«الإندبندنت»

دوبرافكا أوجاريسك شخص شرس، يُستشهد بمقولاتها، فهي ذات بصيرة نافذة.

«الأوبزرفر»

إنسانية لا غنى عنها، وحياة إيجابية.

جلاسجو هيرالد

تكتب فرجينيا وولف عن نذر الحرب، أما دوبرافكا أوجاريسك فتكتب عن عواقب ما بعد الحرب، وكلتاهما واضحتان في إدانتهما لقوى الدمار، واستحضارهما لما نخاطر به.

ت. ل. سي

تؤكد أوجاريســك - مثلها مثل نابوكوفــا - على قدرتنا على التذكر كمصدر للحفاظ على هويتنا الأخلاقية، الرحيمة.

«واشنطن بوست»

تســخر أوجاريســك من الفرضية المتفائلة التي تقول بأن كل شيء سيكون أفضل في عالمنا الجديد الشجاع.

«لوس أنجلوس تايمز»

تهكــم لاذع، يخدش، مع ذلك فهــو كلام قاطع، فها هنا امرأة قطعت شــوطا طويــلا لتقول رأيها فــي الابتذال، والوحشــية، والطبيعة الهزلية للنزعة القومية.

مجلة الجيل الثاني

لقد ضمنت دوبرافكا أوجاريســك مكانا لها على رف الكتب المخصصة للكلاسيكيات.

ليترالي ريفيو

أطلقت أوجاريسك ســهاما متنوعة من جعبة بلاغتها، من بينها حس تهكمي لاذع، وروح فكاهة نادبة، وحد قاطع من احتقار الابتذال.

كيركاس ريفيو

إنها في داخلنا.

«الأدب اليوم»

المقدمة

دوبرافكا أوجاريسك، كاتبة روائية كرواتية معاصرة، تعيش الآن في مدينة أمستردام (هولندا) حيث تتفرغ للكتابة، وتقوم بالتدريس من حين لآخر في بعض الجامعات الأوروبية، والأمريكية. ولدت في الثالث من مارس سنة ١٩٤٩ في مدينة «كونتينا»، في كرواتيا (التي كانت جزءا من يوغسلافيا السابقة). ألفت العديد من الروايات الأدبية (إحدى عشرة رواية)، وحازت العديد من الجوائز الأدبية المحلية والعالمية، أشهرها جائزة الدولة النمساوية في الأدب الأوروبي سنة ١٩٩٩. كانت «دوبرافكا أوجاريسك» من المناوئين البارزين لاستقلال كرواتيا عن يوغسلافيا السابقة، وبعد اندلاع الحرب سنة ١٩٩١، اتخذت موقفا صلبا ضد الحرب والنزعة القومية، مما أدى إلى اتهام الحركة القومية الكرواتية لها بالخيانة، كذا الرأي العام الكرواتي، فاضطرت إثر ذلك إلى مغادرة كرواتيا، واللجوء إلى هولندا حيث هي الآن.

الرواية التي بين أيدينا، موطن الألم، نشرت باللغة الكرواتية سنة ٢٠٠٤، وترجمها «مايكل هنري هايم» إلى اللغة الإنجليزية سنة ٢٠٠٨ (وهناك ترجمة إنجليزية أخرى نشرت سنة ٢٠٠٥). ويسرنا هنا أن نقدم للقارئ العربي،

في هذا العدد من سلسلة إبداعات عالمية، ترجمة باللغة العربية منقولة عن ترجمة «هايم» الإنجليزية. تنتمي هذه الرواية من حيث التصنيف الأدبي إلي ما يسمى أدب المنفى، ذلك الأدب الذي يعالج التداعيات النفسية، والاجتماعية، والسياسية للعيش في المنفى نتيجة ظروف غير عادية مر بها الوطن. مع ذلك فإن العيش في المنفى بعيدا عن الوطن، يُبقي الوطن الهاجس المسيطر، والشغل الشاغل لمن يشتغلون على هذا النوع الأدبي.

تتناول رواية موطن الألم النزوح الكبير من يوغسلافيا السابقة إلى الخارج بعد اندلاع الحروب العرقية بين مختلف مكونات الوطن من صرب، وكروات، وبوسنيين وغيرهم سنة ١٩٩١، والتي انتهت بتفكك يوغسلافيا إلى دول مستقلة لقوميات مختلفة. تصف الراوية، «تانيا»، هذا النزوح قائلة: «لقد هربنا من بلادنا مثل جرذان نجت من سفينة تغرق. كنا في كل مكان. العديد هرول إلى المناطق الحدودية في الدولة للتواري لفترة معينة، وهم يظنون أن الحرب ستنتهي قريبا، كأنها عاصفة رعدية، وليست حريقا سيأتي على الأخضر واليابس». لقد أتت الحرب على الأخضر واليابس، ولجأ أفواج ممن كانوا يسمون بـ «اليوغسلاف» إلى مختلف أصقاع الأرض طلبا للنجاة والعيش الكريم. والأسوأ، كما تصور هذه الرواية، أن اللاجئين لم ينته بهم الأمر في المنفى

فقط، بل إنهم فقدوا وطنا كانوا يحملون جنسيته، ولم يعد موجودا على الخارطة السياسية.

تدور جل الأحداث المادية في هذه الرواية في مدينة أمستردام الهولندية حيث لجأ الكثير من اليوغسلاف إليها بعد اندلاع الحرب لأسباب مختلفة، بعضها حقيقي سببته الحرب، وبعضها مُصطنع استخدم الحرب كذريعة للوصول إلى أرض الجنان - أوروبا الغربية، لينتهي بهم المطاف في الاتجار بالمخدرات، والأعمال الإجرامية، والبغاء والكثير من الوظائف الوضيعة. ويشكل اللاجئون اليوغسلاف في أمستردام معظم الشخوص في هذه الرواية، وهم: الراوية، الدكتورة تانيكا (تانيا)، التي حصلت على وظيفة لمدة فصلين دراسيين لتدريس الأدب الصرب/كرواتي (وهو تخصصها) في جامعة أمستردام، وطلبة الفصل الذي تدرسه، وهم عبارة عن مجموعة من الطلبة اليوغسلاف الذين التحقوا بالجامعة، ليس بدافع حقيقي لدراسة هذا التخصص (الذي لم يعد موجودا أصلا بعد تفكك الدولة اليوغسلافية)، ولكن من أجل إضفاء صفة الشرعية على وجودهم في هولندا.

وبدل أن تقوم الراوية، الدكتورة «تانيكا»، بتدريسهم الأدب الصرب/كرواتي، الذي كانت تعتقد أنه آخر ما يحتاجون إليه، حولت الأمر إلى لعبة في الذاكرة اليوغسلافية، إذ قررت إنشاء ما سمته «المتحف الافتراضي اليوغسلافي»

الذي يوثق الحياة اليومية في يوغسلافيا السابقة، وطلبت من طلبتها استرجاع ما يمكن استرجاعه من تلك الذاكرة، والمساهمة في صيرورة ذلك المتحف، مغفلة، أو ربما متناسية، أن هذا الموضوع بمنزلة قنبلة موقوتة. فطلبتها ينتمون إلى عرقيات مختلفة (صربية، وكرواتية وبوسنية، وغيرها)، مما سيؤدي إلى إيقاد أحقاد أفرزتها الحرب من الأفضل دفنها، بدلا من إحيائها. وتأتي مساهمات الطلبة المفصلة لتؤرخ اليوميات اليوغسلافية بحلوها ومرها، معرجة على الكثير من الجوانب الحياتية البسيطة والمعقدة بأسلوب جدّي أحيانا، وبنقد ساخر لا ينقصه المرح أحيانا أخرى. لقد تحول الفصل إلى جلسات في العلاج النفسي داخل غرفة الصف، وخارجها أيضا، حيث كانت المُدرسة، والطلبة يلتقون بشكل منتظم في المقاهي لإكمال تلك الجلسات، والتنفيس عن همومهم.

ولم يكد الفصل الدراسي الأول ينتهي حتى انقلب السحر على الساحر. فقد أخبرها رئيس القسم الهولندي عن تلقيه شكاوى من الطلبة تقول إنها لا تقوم بأي شيء له علاقة بتدريس الأدب، وإن الفصل الدراسي مجرد مضيعة للوقت. ينزل عليها الخبر كالصاعقة، إذ إنها لم تلاحظ أي شيء ينم عن ذلك من طرف الطلبة، وكانت تعتقد أن الطلبة يستحسنون أسلوبها، وأن الأمور كانت تجري على ما يرام.

لقد كانت كل المعطيات تشير إلى ذلك، فجميع الطلبة، على سبيل المثال لا الحصر، احتفلوا بعيد ميلادها، وقدموا لها الهدايا المتنوعة. وهنا تريد الروائية دوبرافكا أوجاريسك أن تصور حالة الانفصام التي عادة ما تصيب من يعيشون مشردين بلا هوية في المنفى.

وتظهر هذه الشخصية الانفصامية عند الراوية نفسها، «تانيا»، في الفصل الدراسي الثاني، فهي تحول المقرر الدراسي إلى كابوس للطلبة من خلال القراءات والامتحانات، والأبحاث المطلوبة، كنوع من الانتقام منهم لما قاموا به من وشاية بها لرئيس القسم. وكان هاجسها الأول والأخير، معرفة من وشى بها، وكان بحثا بلا جدوي، إذ عرجت عليهم جميعا في خضم حدسها. وبالرغم من الذهول الذي أصاب الطلبة من هذا التغير المفاجئ في سلوك مُدرّستهم، الذي أدى إلى ترك بعضهم للدراسة، فإن من تبقى في الفصل، وهم أربعة فقط (إيجور، وميليها، وآنا، وجوهانكي) أثبتوا أن لديهم دراية ومعرفة بالأدب الصرب/كرواتي تضاهيان، إن لم يكن يتفوق، على ما تملكه مدرّستهم في هذا المجال. وفي هذا السياق، تبين الكاتبة من خلال النقد الأدبي الذي تقدمه شخوصها، الراوية، والطلبة على حد سواء، هامشية ذلك الأدب (مقارنة بالآداب الأوروبية الأخرى)، وتكرارية وسذاجة المواضيع التي يتناولها. انظر ما تقوله الراوية

نفسها: «لقد أدهشتني تكرارية ظهور الصفات الشائعة لبطل الرواية. شعرت وكأنني أقرأ فى علم الوراثة وليس الأدب. بدا الأمر وكأنه اكتشاف لشيء طالما أدركناه من دون أن نعيره أي أهمية، مثل اكتشاف شامة في جسمك في نفس المكان الذي توجد فيه في جسم والديك أو أطفالك، أو أحفادك. كثيرا ما شعرت بأنني أشاهد مسلسلا تم إنتاجه في أكثر من دولة، بالرغم من أنه لم يكن من الممكن أن أعترف بذلك علنا».

وفي المجمل، تقدم هذه الرواية قصة ضياع وفقدان هوية، وتناقش مواضيع إنسانية في غاية الأهمية، تتعلق بتداعيات العيش في المنفى من خلال النموذج اليوغسلافي. وأهم هذه التداعيات هو هاجس العودة إلى الوطن. وهنا، تطرح هذه الرواية ثنائية مرعبة: فالعودة إلى الوطن تعني الموت، في حين أن البقاء في المنفى يعني الهزيمة. وبين هذين الخيارين تبرز قضية الانتحار المؤرقة، التي أصبحت شائعة في الوطن والمنفى، كأحد الإفرازات المأساوية للحرب. انظر ما تقول الراوية في هذا الصدد: «الانتحار نوع من الرفاهية أثناء الحرب؛ إنه مواساة يندر توافرها». وتقود الروائية راويتها إلى ثلاثة حلول لا رابع لها: الحل الأسوأ، وهو استمرار الضياع والنوح على الماضي المفقود، أو الحل الأحسن، وهو التكيف والانخراط في حياة جديدة، أو حل «يوروش»، أحد طلبتها، وهو الانتحار. تطرح الدكتورة «تانيكا»، في المحصلة

الأخيرة، فكرة الانتحار جانبا، وتقف مشدوهة، عاجزة عن اتخاذ قرار، بين الحلين الآخرين.

ومن تداعيات الضياع وفقدان الهوية في المنفى، ظهور الإعاقة اللغوية المرتبط باللغة الأم، اللغة القومية التي ولد الإنسان وترعرع معها. فالراوية وطلبتها على حد سواء وجدوا أنفسهم عاجزين عن التعبير عما يدور في خلدهم بلغتهم الصرب/كرواتية (اللغة القومية ليوغسلافيا السابقة) - والتي تفرعت الآن إلى لغات عدة (الصربية، والكرواتية والبوسنية) - ولم يعد لها وجود من الناحية الرسمية. وللتغلب على هذا العجز اللغوي، لجأوا إلى التواصل فيما بينهم باللغة الإنجليزية، أو باللغة الهولندية لمن استطاع تعلمها. ويصل هذا الأرق اللغوي إلى أوجه عندما تتساءل الراوية عن قدرة لغتها القومية على سرد الرواية التي بين أيدينا، فتقول: «هى لغة ذات حفيف، ترن، وترجع الصدى، وتقعقع وترعد، وتزأر، وتدوي كتلعثم أو .. أو لعنة، أو تشويه سمعة، أو ثرثرة، أو عبارة متاجرة خالية من المعنى». لكن الكاتبة، على أي حال، تمكنت من سرد الرواية التي نحن بصددها، بكل ما فيها من هواجس وتجليات.

هناك قضية مهمة أخرى تثيرها تداعيات الضياع وفقدان الهوية، وهي فقدان القدرة على التعبير عن الحب كعاطفة إنسانية. فبالرغم من وشائج الحب القوية التي جمعت

بين الراوية الدكتورة تانيكا، وإيجور أحد طلبتها، إلا أن تلك العاطفة بقيت قابعة خلف جدار فولاذي عصيّ على الاختراق. لقد حاول إيجور مُلمحا، مرارا وتكرارا، أن يحصل على إشارة، ولو بالتعريض، عن ذلك الحب الجارف الذي تكنّه له محبوبته، لكن دون جدوى، إذ إنها فقدت قدرتها على التصريح له بهذه العاطفة، وتحول هذا الحب في نهاية الرواية، بعد فوات الأوان، إلى مشهد من الهذيان يجمعها بحبيبها في حميمية يعوزها الدفء الحقيقي. تأمّل في هذا الجزء من الهذيان حين تقول: «الحياة عاملتنا بشكل جيد. يغادر إيجور البيت ويعود إليه مبكرا. يتوجه مباشرة إلى الحمام، وينظف ما علق به أثناء العمل، يرتدي ملابس نظيفة، ويكف أكمام قميصه، ثم يأخذ مكانه على طاولة السفرة. أقدم وجبة طازجة. نأكل ببطء وبغرابة متناهية، ونتكلم قليلا. كلماتنا جافة كالرمل، وأنا أحب كونها كذلك. ربما أصبحنا كالهولنديين. يقال إن الهولنديين يتكلمون فقط عندما يكون لديهم شيء ليقولوه». ويتجلى الهذيان والتشاؤم في نهاية الرواية بإطلاق الراوية سلسلة طويلة من الدعوات المنفرة، والبغيضة موجهة إلى مخاطَب مستتر، إليك منها: «ليتك تُلعن في هذا العالم والعالم الآخر.

ليتك لا تعيش لترى شروق الشمس.

ليت النسور تلتهمك».

وأخيرا وليس آخرا، تقدم الرواية صورة سياسية متعمقة عن حقبة النظام الشيوعي في يوغسلافيا، وما رافقها من فساد، وظلم، واستبداد، أدى في نهاية المطاف إلى بروز النزعات العرقية المقيتة وتفسخ الدولة اليوغسلافية. ثم جاءت الدويلات القومية لتزيد الوضع سوءا، وتتحول بدورها إلى ديكتاتوريات أشد فتكا من سابقتها (الدولة الأم). وتبقى قضايا الاستبداد، والظلم، وغياب الديموقراطية، هي الأسباب الكامنة وراء الحركات الانفصالية والثورات الشعبية، وهي قضايا ليست ببعيدة عما جرى حديثا ويجري حاليا في كثير من الدول العربية (في العراق، وتونس، ومصر، واليمن، وليبيا وسورية، والحبل على الجرار)، وما ستؤول إليه الأمور. من هنا، فإن ما تثيره هذه الرواية في هذا السياق بالذات، ينبغي أن يقع في صلب اهتمامات القارئ العربي في الوقت الحاضر. على كل حال، لا نريد أن نضع العربة أمام الحصان هنا عبر حديث ونقد مطول عن هذه الرواية، ونترك المجال أمام القارئ الفطن لسبر أغوارها واستكشاف مكنوناتها بنفسه، آملين، من خلال توافر ترجمة عربية لهذه الرواية، أن نفتح نافذة، ولو صغيرة، على الأدب البلقاني الحديث، وأن نستخلص العبر المرجوة من انهيار وتفكك الدولة اليوغسلافية.

والله وليّ التوفيق،

أ. د. محمد فرغل

white

الجزء الأول

white

١

إن الراوية، وقصتها، والشخصيات، وموقفهم في الرواية التي أنتم على وشك قراءتها، كلها من وحي الخيال. حتى مدينة أمستردام هنا ليست كلها حقيقية.

د. أو.

المنظر االطبيعي الشمالي شأنه شأن الصحراء يشير إلى المطلق، بيد أن صحراء الشمال خضراء وتعج بالمياه. فيما عدا أنها تفتقر إلى المغريات والاستدارات أو المنحنيات، فالأرض منبسطة مما يجعل الناس مكشوفين تماما، وهذا بدوره ينعكس على سلوكهم. لا يحب الهولنديون التواصل الاجتماعي كثيرا ؛ فهم جبلوا على المجابهة. هم يحملقون في عيون الآخر ويسبرون أغواره. وليس لديهم أماكن للتواري حتى في بيوتهم. هم يتركون ستائرهم مفتوحة، معتبرين ذلك إحدى فضائلهم.

سييز نوتبوم

لا أتذكر متى لاحظت ذلك للمرة الأولى. اعتدت أن أقف منتظرة الترام في المحطة وأنا أحدق في خارطة المدينة خلف اللوح الزجاجي حيث يؤشر بالألوان على خطوط الحافلات وعربات

الترام، تلك الخطوط التي لم أفهمها ولم تعن لي الكثير، أو تعن أي أهميـــة في ذلك الوقت. كنت أقف هناك، وفجأة ودون أدنى فكرة، وأنـــا ملازمة الخط الأزرق، تســـتولي عليّ رغبة في صدم رأســـي بالزجاج وإيذاء نفسي. وفي كل مرة كنت أدنو من ذلك بشكل أكبر. ها أنا هنا، ومن الممكن أن أفعلها في أي لحظة، ومن ثم ...

«توقفي يا رفيقة»، كان يقولها بنبرة فيها شيء من السخرية، واضعا يده على كتفي. «إنك حقا لن تقومي بـ ...؟».

هذا كله من خيالي، طبعا، لكن الصورة التي يرسمها خيالي كانت واقعية لدرجة اعتقدت أنني أسمع صوته وأشعر بيده على كتفي.

يقـــول الناس إن الهولنديين لا يتكلمون إلا عندما يكون لديهم شـــيء ليقولوه. وفي هـــذه المدينة، حيث يحيط بـــي الهولنديون مـــن كل جانب، وأتواصل معهم بالإنجليزية، غالبا ما أشـــعر بأن لغتي القومية غريبة عـــن هذا المكان. لم أكن أعرف أن مواطني بلدي يلحنون بهذا الشـــكل، مبتلعين نصـــف كلماتهم ومتلفظين بما يشـــبه الأصوات، إلا عندما غـــادرت الوطن. إن اختبار لغتي القومية كمحاولة من قِبل لغوية، عجزت عن توصيل حتى أبسط الأفكار من خلال الإيماءات، والتكشيرات، وتغيير حدة الصوت. إن محادثـــة بين أبنـــاء جلدتي تبـــدو طويلة، ومرهقـــة، وخالية مـــن المحتوى. وبدلا مـــن الكلام، يبدون وكأنهـــم يرمون بعضهم بالكلمات، ناشرين رضابا مهدئا، رنانا بعضهم فوق البعض.

لهذا الســـبب أشـــعر بأني أتعلم الكلام هنا من خلال الحك. وهذا ليس سهلا. إنني في حالة ترقب دائم لمسافات للتنفس كي أتعامل مع حقيقة أنني لا أســـتطيع التعبير عما يجول بخاطري.

وثمة سؤال أكبر عما إذا كانت لغة لم تعرف تصوير الواقع، وكون هذا الواقع في التجربة الداخليــة معقدا، تكون قادرة على فعل أي شيء على الإطلاق - كسرد القصص، مثلا.

وأنا كنت مدرسة للأدب.

بعد ذهابي إلى ألمانيا، استقررنا أنا وجوران في برلين. كانت ألمانيــا اختيار جــوران: فألمانيا لا تحتاج إلى تأشــيرات. كنا قد ادخرنا بعض المال، لما يكفي لســنة واحدة. وســرعان ما تدبرت أمري بحصولــي على وظيفة مربية لدى عائلة أمريكية. دفع لي الأمريكيون راتبا أكثر من مقبول، وثبت أنهم أناس مهذبون. كذلك وجــدت عملا لبعض الوقت في المكتبة الوطنية، حيث كنت أرتب الكتب في القســم الســلافي ليوم واحد في الأسبوع. وبما أنني كنت أعرف بعض الأشــياء عن المكتبات وأتحدث اللغة الروسية، بالإضافة إلى «لغتنا القومية»، وأســتطيع أن أدرك فحوى اللغات الســلافية الأخرى، لذا كان العمل سهلا. غير أنني لم يكن لدي تصريح للعمل، مما جعلهم يدفعون لي راتبي ســرا. أما بالنسبة إلــى جوران الذي كان قد درس الرياضيــات في جامعة زغرب، فســرعان ما وجد وظيفة في شركة للكمبيوتر، لكنه استقال بعد بضعة شــهور، لأن أحد زملائه الذي حصل على وظيفة محاضر فــي جامعة يابانيــة، كان يغريه بالمجيء إلــى اليابان، مؤكدا أنه ســيجد له عملا أفضل هناك. حاول جوران بــدوره أن يقنعني بالذهــاب، لكنني تمســكت برأيي وقلت: «أنــا أوروبية»، وبررت نفســي، بأنني أريد البقاء بالقرب من أمــي، ومن والديه. وكان ذلك صحيحا، ولكن كان ثمة حقيقة أخرى.

لم يستطع جوران أن يجد سلام نفسه مع ما حدث. لقد كان خبيــرا في الرياضيــات جيدا، وكان محبوبا مــن طلابه، ولكن، وعلى الرغم من أن تخصصه كان محايدا، فإنه أزيح من وظيفته بــين ليلة وضحاهــا. لقد أكد له الجميع مــرارا أن ذلك طبيعي جدا، ففي أوقات الحرب يتصرف بني البشــر هكذا دائما. لقد حدث ذلك لكثير من الناس، وليس فقط للصرب في كرواتيا، بل أيضا للكروات في صربيا، وحدث كذلك للمســلمين، والكروات والصرب في البوسنة. كما حدث ذلك لليهود، والألبان، والغجر؛ لقد حدث ذلك لكل الناس وفي جميع الأماكن في وطننا السابق المشــؤوم - كل ذلك الجدل فشــل في ترك أي أثــر في حرقته الممزوجة بالشفقة على نفسه.

لو أراد جوران حقا، لكنا جعلنا ألمانيا مستقرا لنا. فقد كان هناك آلاف مؤلفة مثلنا. يبدأ الناس عادة بقبول أي وظيفة يســتطيعون الحصول عليها، ولكنهم في المحصلة الأخيرة يرتقون إلى مستواهم الحقيقي، وهكذا تســتمر الحياة ويتكيــف الأطفال. لم يكن لدينا أطفال، مما ســهل قرارنا على الأرجــح. كانت أمي، ووالدا جوران يعيشون في زغرب. بعد رحيلنا صادر الجيش الكرواتي شقتنا في زغرب - شــقتي أنا وجوران - وذلك قبل أن تســتولي عليها عائلة أحــد الضباط الكروات. لقد حاول والد جــوران أن يخرج متاعنا من الشقة، الكتب على الأقل، لكن من دون جدوى. لقد كان جوران صربيا، مما جعلني أنــا «تلك العاهرة الصربية»، كما أتصور. كان زمنــا للثأر الدامي، هدفه إيقاع الأذى بشــكل عــام، وأخذ الناس بثأرهم حيثما وجدوه، وغالبا ما كان ضحيته الأبرياء.

مع ذلك، رتبت الحرب أمورنا أفضل بكثير مما كنا نستطيع فعله نحن. فجوران، الذي غادر زغرب - مصمما على الابتعاد عنها قدر المستطاع - وقد صار ذلك حقيقة، انتهى به المطاف في الجهة الأخرى من العالم. وبعد فترة وجيزة من رحيله، وصلتني رسالة من صديقة تدعى «إنيس كادفتش»، تعرض عليّ فيها وظيفة محاضر لفصلين دراسيين في الدراسات الصرب/ كرواتية في جامعة أمستردام. لقد كان زوجها سيز درايسما رئيسا لقسم اللغات والآداب السلافية، وكان بحاجة إلى من يشغل الوظيفة على عجل. فقبلت العرض بلا تردد.

أمن لي القسم شقة على قناة «أودزيدز كولك». كانت قناة صغيرة مع بضعة منازل فقط، تؤدي جهته الأولى إلى محطة أمستردام الرئيسية بينما تتفرع الأخرى، مثل أغصان سعفة نخيل، إلى شارع «زيدياك»، الذي يشتهر بسكانه الصينيين، وإلى «أودزيدز فوربورجوال» و«أودزيدز أتشبورجوال»، وهما قناتان تمران عبر المنطقة الحمراء. لقد كانت شقة أرضية صغيرة تشبه غرفة في فندق متواضع. كان من الصعب أن تجد شقة في أمستردام، وفق ما قالت سكرتيرة القسم، فقبلت بها على مضض. لقد أحببت الحي، واعتدت في الصباح أن أسلك شارع «زيدياك» باتجاه السوق الجديد، والتوقف عند «جولي جوكر» أو «ثيو» أو «تشاو فرايا»، وهي المقاهي التي تطل على منطقة «دو واج» القديمة. وأنا أرتشف قهوتي الصباحية، كنت أراقب الناس يتوقفون عند الأكشاك التي تعرض أسماك الرنجة، والخضراوات، والأجبان الهولندية، وأكوام من المخبوزات

الطازجة. كان ذلك الجزء من المدينة الذي يتجمع فيه أكبر عدد من الشـواذ، وبما أنها أيضا تشكل بداية المنطقة الحمراء، فقد كانت مكانا لتسـكع منتهـزي الفرص الصغار، وربـات البيوت الصينيـات، ومدمني المخدرات، والسـكارى، وبقية من الهبيين، وأصحـاب المتاجـر، والبائعـين المتجولـين وصبيـة التوصيل، والسـياح، وصغار المجرمين، والعاطلين عن العمل والمشـردين. حتى عندما كانت تهبط السماء (تلك السماء الهولندية الشهيرة) وتلقي بشـحوبها على المدينة، كنت أجـد متعة بالغة في الإيقاع المتمهـل لمختلف المارة. بدا كل شـيء حقيـرا نوعا ما، في حالة أسـوأ لكثرة الاستعمال، وكأن الصوت قد انخفض أو أن الصورة تجري بالحركة البطيئة، كأن ثمة شيئا ما مراوغا في الأمر كله، ومع ذلك بدا الكل متماسكا بفضل حكمة علوية. كان مكتبي في الجامعة في منطقة «سبيوسترات»، التي تبعد عن شقتي مسافة عشر دقائق مشيا على الأقدام. كان كل شيء متناسبا مع بعضه، على الأقل، هكذا كنت أعتقد في بادئ الأمر. أضف إلى ذلك أن صيف تلك السـنة كان صيفا هنديا، امتد حتى ديسمبر، وكانت أمستردام، لطيفة وبطيئة الحركة مثلما كانت، فذكرتني بالبلدات الممتدة على البحر الأدرياتيكي في المواسم هادئة النشاط.

كنت قد سمعت قصة عن امرأة بوسنية قبل مجيئي إلى هنا، عندمـا كنت في برلـين. كانت كل عائلتها فـي المنفى - زوجها، وأطفالهما، ووالديّ زوجها - ذات يوم سـمعت المرأة إشـاعات مفادها أن السـلطات الألمانية عازمة على ترحيل كل المهاجرين البوسنيين، وإعادتهم إلى بلادهم. ولأنها كانت خائفة من العودة

إلى البوسنة، طلبت من أحد الأطباء منحها أمر تحويل مزيفا إلى مستشفى الأمراض النفسية. كانت إقامتها لمدة أسبوعين بمنزلة استنشاق لهواء نقي، معبق بعبير الحرية لدرجة أنها قررت ألا تعود. وهكذا توارت، اختفت، وغيرت هويتها. لم يعرف أحد ماذا حدث لها، ولم تعد إلى عائلتها قط.

لقد سمعت عشرات من قصص مشابهة، فالحرب كانت تعني خسائر فادحة للعديد من الناس، ولكنها في الوقت نفسه كانت سببا للانسلاخ من حياة قديمة، والشروع بأخرى من نقطة الصفر. على أي حال، غيرت الحرب مصائر الناس بصورة تامة. بل إن المستشفيات النفسية، والسجون والمحاكم، أصبحت جزءا من الحياة اليومية.

لم يكن لدي أدنى يقين أين أقف من كل ذلك. ربما كنت أبحث عن عذر. فأنا لم أكن في وضع اللاجئة، ولكنني مثل اللاجئين ليس لدي وطن أعود إليه. على الأقل هذا ما كنت أشعر به. قد أكون مثل آخرين كثيرين، حولت بؤس الآخرين في لا شعوري إلى عذر يبرر عدم عودتي. ألم يكن تحطم الوطن، وبؤسي أيضا الذي نشأ عن الحرب، ألم يكن سببا كافيا للرحيل؟ لا أستطيع الإجابة! كل ما أعرفه هو أنني قد ولجت فيما بدا أنه ماض بعيد، ولم أصل بعد إلى وجهة معينة. عندما رحل جوران، انتابني شعور بالراحة مصحوب بشعور قوي بالخسارة والخوف: ففجأة صرت وحيدة تماما برأسمال مهني ضئيل القيمة، ومال لا يكفي سوى لبضعة أشهر. كنت قد حصلت على شهادة في اللغات السلافية وآدابها؛ حيث كتبت أطروحة حول استخدام اللهجة

«الكاجوفية» في أعمـــال الكُتاب الكروات؛ ولدي أيضا خبرة في التدريس لبضع ســـنوات في كلية تدريب المعلــمين في زغــرب. أما أمستردام فكانت فســحة لالتقاط الأنفاس مدفوعة الأجر. أما ماذا ســـأفعل، أو إلى أين ســـأذهب بعد أمستردام، فلم يكن لدي أي فكرة.

٢

كانـــوا في البدايـــة ينادونني بالدكتورة «لوســـيتش»، ولكن ما إن انتظـــم التدريس في الفصل الأول حتـــى انتقلوا إلى مناداتي بـــ «الرفيقة»، فكانوا يطيلون أحـــرف الكلمة وخصوصا الحرف الأخيـــر، ويرفعونه عند النهاية وكأنـــه ذيل لفظي. لقد أصبحت كلمة «رفيقـــة» بمنزلة كلمة الســـر الحميمة بينـــي وبين طلبتي الجدد، تربطنا جميعا، بمقاعد الدراســـة التي تركناها منذ زمن طويل، وفي عهود بعيدة في الماضي، وفي دولة لم يعد لها وجود: فتلك الكلمـــة هي التي اســـتخدمها الأطفال اليوغســـلاف في الخمسينيات وبدايـــة الســـتينـيات في مخـــاطـــبة أســـاتذتهم. أمـــا هنا في هولندا فلم تكن هذه كلمة ذات شـــأن كبير بقدر ما كانـــت تعني رنين جرس بافلوفي. فعلى الرغم من مخاطبتي لهم بشكل رســـمي، فإنني كنت أشير إليهم بتلامذتي أو أطفالي. كل ذلك على سبيل الدعابة المتخيلة: فأنا لم أكن قط «رفيقة» أحد؛ وهم لم يكونوا تلامذة. ولم يكونوا أطفالا، فقد تراوحت أعمارهم بين العشرين والثلاثين عاما مما جعلني أكبر منهم ببضع سنوات فقط. كانت ميليها في مثل عمري، وجوهانكي ولاكي أكبر مني. لذلـــك، فإن الشـــيء الوحيد الذي كان يذكـــر بقواعد اللعبة هو مخاطبتي لهم بشكل رسمي.

لقـــد جاءوا إلـــى هنا مع انـــدلاع الحرب. اســـتطاع بعضهم الحصول على صفة لاجئين، وفشـــل آخرون. كان معظم الرجال، أولئـــك الذين أتوا مـــن صربيا وكرواتيا، قـــد رحلوا عن بلادهم

لتجنب الخدمة العسكرية؛ حيث جاء البعض من جبهات القتال؛ وآخـــرون جاءوا للتنـــزه، لكنهم قرروا البقـــاء. وهناك أيضا من سمعوا عن كرم السلطات الهولندية في منح الرعاية الاجتماعية والمسكن للاجئين اليوغسلاف، فجاءوا لاستبدال شيوع حيواتهم غير المضمونة بأشـــياء واقعية. وهناك من سنحت لهم الظروف باتخاذ شريك حياة.

فقد قابل ماريو فتاة هولندية في النمســـا - حيث كان والداه قد أرســـلاه خوفا من أن يجند في الجيش الكرواتي - عادت به إلى هولندا. قال لي ذات مرة، مبتســـما: «ربما تزوجتها من أجل الحصول على جواز الســـفر، ثم وقعت في حبها بعد ذلك. أو قد أكون وقعت في حبها بداية، ثم جعلت ذلك رسميا من أجل جواز السفر. لا أستطيع أن أتذكر».

أما بوبان فكان قد ذهب إلى الهند بصفقة مجملة مع مجموعة من نساء ذوات مقامات رفيعة في «بلجراد»، من أتباع «ساي بابا». وقد قامت والدته بتنظيم وتمويل تلك الرحلة، وكان همها الوحيد أن تنتشـــل ابنها من الخدمة في الجيش مؤقتا. وفي الهند ترك الرحلة وهام على وجهه لمدة شـــهرين قبل أن يصاب بالإســـهال ويغادر البلاد جوا على عجل. هبطت الطائرة في أمستردام حيث كان يفترض أن يســـتقل طائرة أخرى إلى «بلجراد»، لكن، وبينما كان يتنقل بين المراحيض في مطار «شـــيبول»، داهمه خاطر رائع وطلب اللجوء السياســـي في هولندا. حينئذ، كان إمكان الرجوع لايزال قائما. لكن الســـلطات الهولندية كانت متساهلة: فقد كان أي أحد قادم من يوغســـلافيا الســـابقة يمكنه استخدام اندلاع

الحرب هنـــاك كذريعة مقبولة. ولكن، مع مـــرور الوقت، تغيرت الأمور وأغلق هذا الباب.

كانت «جوهانكي» هولندية. كانت تتحدث لغتنا بطلاقة وبلكنة بوسنية. كان والداها من اليساريين الهولنديين الذين شاركوا في شـــق الطرق وبناء السكك الحديد مع كتائب الشباب العالمية بعد الحرب العالمية الثانية. فيما بعد، ذهبوا في رحلة ســـياحية إلى شواطئ «دلماســـيا». في إحدى المرات زارت جوهانكي سراييفو، ووقعت في حب شـــخص بوســـني، مما جعلها تقيم هناك لبعض الوقت. والآن، هي مطلقة وأم لطفلتين صغيرتين، وقد قررت أن تحصل على شـــهادة في اللغات السلافية. كانت مترجمة شفوية معتمـــدة لدى المحاكم تترجم مـــن «لغتنا» إلى اللغـــة الهولندية، والذي اتضح أن عملها ذو فائدة كبيرة: فهي كانت تترجم، وتوثق أي وثيقة يحتاج إليها أولادنا.

هنـــاك أيضا من جاءوا مرة أو مرتين ثم اختفوا ســـريعا. كان «لاكي» من «زغـــرب»، وبقي في ذاكرتي لأنـــه الوحيد الذي كان يناديني: السيدة لوسيتش. من الواضح أنه كان يعتبر كلمة «رفيقة» كلمة يوغســـلافية، وشـــيوعية، وبناء عليه فهـــي كلمة مناهضة للكـــروات. كانت لـــه طريقـــة كلام زغربية تصيبنـــي بالعصبية «فكان ينطق كلمة ســـيدة مشددا على المقطع الأخير من الكلمة، ويستعمل بشكل متواصل الأفعال المنعكسة على الضمائر، والصيغ الفعلية لكي يشـــير إلى نفســـه، وقد جعله ذلك يبدو متصلا مع كل شـــيء على سطح الأرض بحميمية. جاء لاكي إلى أمستردام، مثـــل آخرين كثيرين أتوا من أجل الحشـــيش الرخيص. جاء قبل

الحرب ودرس اللغات السلافية وآدابها لسنوات، واعتاش على الرعاية الاجتماعية، والمساكن الشعبية المدعمة من الدولة. قال لي كل الأولاد إنه يعمل مخبرا براتب لدى الشرطة، وأنه يتباهى بترجمة المكالمات الهاتفية المتنصت عليها والمسجلة بين أفراد المافيا اليوغسلافية التي تقوم الشرطة الهولندية بمراقبتهم. كان الأولاد ينادونه بعالم اللغة «لاكي»، كونه كان يدعي أنه يعكف على تأليف قاموس هولندي - كرواتي، والذي لم يستطع قط إيجاد جهة لدعمه. ورفض الاعتراف بالقاموس المتوافر للهولندية والصربية والكرواتية.

ثم هناك زولي الذي سكن مع أحد المثليين الهولنديين من أجل التأهل للحصول على تصريح الإقامة، وداركو، من أوباتيا، الذي كان مثليا بالفعل. كانت السلطات الهولندية كريمة خصوصا في منح اللجوء السياسي للذين ادعوا أنهم قد تعرضوا للتحامل عليهم في بلادهم بسبب «الاختلاف الجنسي»، فكانت أكثر كرما معهم عن ضحايا الاغتصاب أثناء الحرب. وما إن دار النبأ، حتى عرف الناس من أين تؤكل الكتف. كانت الحرب ورقة التوت لكل شيء. كانت شيئا يشبه اليانصيب الوطني: فبينما جرب العديد من الناس حظهم نتيجة مآسيهم الحقيقية، فإن آخرون فعلوا ذلك الأمر لأن الفرصة ببساطة قد سنحت لهم. وفي ظل تلك الظروف الشاذة، فإن الرابحين والخاسرين كان لا بد أن يُحاكموا وفق معايير جديدة.

لقد درسوا اللغة الصرب/كرواتية لأنها تخصص سهل. وإذا لم يكن لديك تأشيرة لاجئ، فإنه يمكنك تمديد إقامتك قانونيا

بأن تقيد اسمك في أحد البرامج الجامعية. لقد بدأ البعض حتى أكملوا برامجهم الدراسية في الوطن، ولكنها لم تعن هنا شيئا تقريبا. كانت الدراسات الصرب/كرواتية التخصص الأسرع، والأسهل للحصول على دبلوما هولندية، حتى تلك الدبلوما الهولندية لم تكن سترفع من شأنك. إذا كنت، مثل «آنا»، لديك تخصص «رئيسي» في لغة أخرى، فيمكنك أن تكسب بعض الأرصدة بلا تعب من اللغة الصرب/كرواتية. لكن إذا ما كنت طالبا بقروض أو بمنحة دراسية، فإن الدراسات الصرب/كرواتية هي بطاقتك للإقامة.

لقد تدبروا أمورهم. فقد لعب معظمهم «كرة المضرب». ولعب كرة المضرب في لغة جماعتهم العامية كانت تعني تنظيف البيوت. كان يدفع لهم خمسة عشر جيلدرا في الساعة. والبعض عملوا كغاسلي أوان، أو نُدل في المطاعم. كان آنتي يجني بعض الفكة من عزفه على الأكورديون في سوق نوردير. وعملت «آنا» في فرز الرسائل في مكتب البريد كل صباح. كانت تقول: «ليس الأمر سيئا جدا. أشعر بأنني مثل القزم في حكاية ساعي بريد تشابيك».

لكن أفضل الوظائف أجرا التي تستطيع الحصول عليها دون تصريح عمل، هي وظيفة في «الوزارة». لقد وجد أحد «أهلنا» عملا في مكان يصنعون فيه الملابس للمتاجر الإباحية، وسرعان ما عملت كل المجموعة هناك. لم يكن العمل مضنيا: فكل ما عليك فعله هو تجميع المواد التي يلبسها الماسوشيين/الساديين من جلد ومطاط وبلاستيك كل على حِدة. كان إيجور، ونيفينا،

وسـليم يذهبون ثلاث مرات في الأسبوع إلى شارع «ريجيوليتر» شـمال أمسـتردام حيث تقع ورشة «ديماسـك»، المتعهد لتوريد العديـد من أوجه الصناعـات الإباحية الهولنديـة. وكان هناك نادي دعارة سادي/ماسوشي في منطقة «لاهاي» يدعى «موطن الألم»، وقد اعتاد طلبتي على تسـمية عملهم المرهق في الورشة «بالوزارة». فكان إيجور يقول لي مازحا: «يا رفيقة، ذلك النوع من الساديين/الماسوشيين، يُعتبرون من لابسي الملابس الأنيقة حقا. فهم لا يعتقدون أن أجمل الأجسـام هي العارية. وأنا لن أنسـى ذلك لو كنت مكان غوتشي أو أرماني».

لقد تدبـروا أمورهم بطريقة جيـدة - آخذين بعين الاعتبار البلد الذي جاءوا منه. وكانوا يجرون وطنهم السـابق خلفهم مثل قطار. قيل هنا إن المافيا اليوغسلافية مسؤولة عن ثلث الأعمال الإجرامية في أمسـتردام. وكانت الصحف ممتلئة بجرائمها في السرقة، وتجارة البغاء، وتجارة السـوق السوداء، وجرائم القتل والثأر.

لكنهـم لم يعرفوا مـا ينبغي فعله في وضـع بلدهم الحالي. وإذا ما جاءوا على ذكر كرواتيا والبوسـنة، فإنهم يتوخون الحذر الشـديد. وإذا ذكروا يوغسـلافيا، التي هي الآن اسـم لكل من صربيا، والجبل الأسـود، فإنهم يذكرونها بأسـى شديد. لم يكن في مقدورهم التكيف مع الأسماء الجديدة التي استمرت وسائل الإعلام في إطلاقها. على سبيل المثال، كفل يوغسلافيا. فكانت ميليها تصرخ: «بحق السـماء، من أين يأتون بمثل ذلك الشـيء؟ أذلك لأنهم قطّعوها إربا كشرائح اللحم؟».

يوغسلافيا، البلد التي ولدوا فيها، والتي جاءوا منها، لم تعد موجودة. لقد عملوا كل ما في وسعهم للتعامل معه بتجنب الاسم، مختصرينه ليصبح «يوغا» (مثلما فعل العمال المهاجرون اليوغسلاف في ألمانيا، من قبلهم)، وهكذا أصبحت «يوغسلافيا السابقة» تسمى «يوغا السابقة»، أو تحويلها على سبيل الدعابة إلى «بلد تيتو»، أو «التيتانك» أما بالنسبة إلى سكانها، فقد أصبحوا يسمون بـ «اليوغاف» أو بكل بساطة «أهلنا»، وهي الأكثر شيوعا. وشاع ضمير الملكية أيضا عند الإشارة إلى اللغة التي يستخدمونها فيما بينهم بـ «لغتنا» (فلم يكن أحد منهم سلافيا، أو مقدونيا، أو ألبانيا): فلكي يتجنبوا الاسم السابق، وبما أن اللغة الصرب/كرواتية أصبحت خطأ من الناحية السياسية، فإنهم أطلقوا عليها ببساطة «لغتنا».

٣

لم تعد جديرة بأن تصور

فقد استغرقت سنين

لذا رحلت كل الكاميرات

لساحات معارك أخرى.

فيسلاوا شيمبروسكا

في أول مرة دخلت فيها حجرة الدراسة، كان بوسعي أن أقول ما الذي جعلهم «أهلنا». إن كلمة «أهلنا» لها صفعة غير مرئية على وجوههم. فقد كان لديهم تلك النظرات الجانبية، التي تشبه نظرة أرنب، مع ذلك التوتر الخاص في الجسم، وتلك الغريزة الحيوانية في شم الهواء لمعرفة الاتجاه الذي سيأتي منه الخطر. جاء استخدام ضمير الملكية «نا» من خلال كآبة مؤكدة متوترة في ملامحهم، وفي غيمة خفيفة على جباههم، وانحناء داخلي بالكاد يُرى. قد يقول سليم: أهلنا يجوسون في المدينة كأن هناك غابة، مضروبة بقذيفة. ونحن جميعا هذه الـ «نا».

لقد هربنا من بلادنا مثل جرذان نجت من سفينة تغرق. صرنا في كل مكان. السواد الأعظم هرول إلى حدود الدولة السابقة، للاختباء فترة، وهم يظنون أن الحرب ستنتهي قريبا، كما لو أنها عاصفة ممطرة وليست حريقا مدمرا. كانوا يختبئون عند أقاربهم، أو أصدقائهم، أو أصدقاء أصدقائهم، الذين عملوا ما بوسعهم للمساعدة. وقد يذهبون إلى مخيمات اللاجئين

المرتجلة، وإلى منتجعات السياح المهجورة، وإلى الفنادق آملين أن تأويهم مؤقتا - في الأغلب فنادق الساحل الأدرياتيكي، وكان ذلك فقط خلال فصل الشتاء، عندما لم يكن هناك أي سائحين ومن ثم يعتنون بأنفسهم، وبعد ذلك يعودون إلى الوطن. فالحرب لن تبقى إلى الأبد، ولم تبق حرب إلى الأبد من قبل، فالحرب تنهك الناس، وعندما يتعبون بما يكفي، تتوقف. بعضهم مكث سنة، أو سنتين، أو ثلاث سنوات - حيث لم يعد السائحون - وآخرون انتقلوا. وكل منهم لديه قصة يرويها.

امرأة من بلجراد عرفت إلى أين تتجه الأمور وارتعبت من الكراهية التي أحستها من الزميل الصربي، فباعت منزلها، قبيل اندلاع الحرب بالضبط، وانتقلت إلى كرواتيا «الآمنة». اشترت شقة في روفيني. ولكن عندما بدأ الكروات يكشرون عن أنيابهم، باعت تلك الشقة وانتقلت إلى سراييفو. وكانت أول القنابل الصربية على الإطلاق - كأن تلك القنابل تقتفي الخطوط في راحة يدها منبئة بالمصير الذي ينتظرها وعائلتها - قد فلقت شقتها من وسطها. قالت صديقة لها وهي تروي قصة تلك المرأة ببساطة: «الحمد لله أنها لم تكن في المنزل عندما قاموا بالقصف. لقد كتبت لي في رسالتها الأخيرة، أنها الآن على ما يرام. من كان يتصور أنه سينتهي بها المطاف في «كاراكاس» من بين كل مدن العالم!».

اللاجئون من سلوفينيا - وهم كروات - توجهوا إلى زغرب، وإستريا، ثم إلى البحر. بينما توجه اللاجئون من البوسنة إلى الجنوب، إلى كرواتيا، أو إلى الشرق، لصربيا. أما صرب كرواتيا

فقد ضربهم الكروات بهدوء ليتراجعوا، إلى أن جرت مطاردتهم بالجملة. وانسل المجريون من فويوفودينا بلا ضوضاء إلى المجر، وتبعهم بعد حين أعداد من الصرب أيضا. وسرعان ما بدأ ألبان كوسوفو في الانتقال.

لقد هربنا من كل مكان وإلى أي مكان نستطيع الوصول إليه. والثمن المدفوع اعتمد على الظروف. البعض فكر فيما يخصه فقط، والبعض فيما يخصه ويخص الآخرين، وآخرون لم يكترثوا بالسؤال حول ذلك على الإطلاق. بعض المسلمين البوسنيين ذهبوا إلى تركيا، وإيران، والعراق، وبقدر ما إلى باكستان؛ والكثير منهم ندم على ذلك اليوم. بعض اليهود البوسنيين ذهبوا إلى إسرائيل؛ والعديد منهم ندموا على ذلك اليوم. غيّر الناس أسماءهم، واشترى من استطاع جواز سفر رخيصا. ما كان يعني كل شيء لهم حتى وقت قريب - كإيمانهم، وجنسيتهم - صار فجأة عملة عديمة القيمة عديمة الجدوى. سيطر عليهم حب البقاء على الحياة. وما إن تم تأمين ذلك، وما إن استقروا على شاطئ الأمان، حتى تنهدوا، وتحسسوا أنفسهم ليتأكدوا من أنهم مازالوا أحياء، وعلق كثيرون أعلامهم مرة أخرى، وأقاموا أيقوناتهم وشعارات نبالتهم، وأضاءوا شموعهم.

كنا في كل مكان. أولئك الذين اندفعوا مذعورين حصلوا على أفضل الأماكن: كأمريكا وكندا، والآخرون الذين ترددوا، تاهوا، وتحولوا إلى ما تبقى مفتوحا أمامهم من تأشيرات سياحية لمدة شهر أو شهرين، ثم يعودون إلى منازلهم استعدادا للبدء مرة أخرى. في ظل الفوضى العامة، استخدم الكثيرون الشائعات

كبوصلتهم الوحيدة - شـائعات حـول أين يمكنك أن تذهب دون وثائق وأيهـا لا يمكنك فعل ذلك فيهـا، وأي الأماكن أفضل في العيـش وأيها الأسـوأ، وأينُ يرحب بهم وتلـك التي على نقيض ذلك. وجد البعض أنفسهم في بلدان لم يكن ليروها في غير تلك الظروف. وبسـرعة ارتفعت قيمة جوازات السـفر الصادرة عن أول دولتين انفصلتا، سلوفينيا، وكرواتيا. فكان يمكن لجواز سفر كرواتـي أن يوصلك إلى بريطانيا العظمى لفترة معينة - إلى أن فهم البريطانيون الأمر وأغلقوا الباب. والقلة من السـذج وقعوا ضحايا لشائعات قديمة - مثل الترحاب بالبيض بقلوب مفتوحة في جنوب أفريقيا - فذهبوا إلى هناك. أما الصرب، فقد كانت اليونان مهمة يسيرة، فذهبوا كسائحين وبائعات هوى، وانتهازيي حرب، وغاسـلي الأموال القذرة واللصوص. البعض امتلك ثلاثة جوازات سـفر - كرواتي، وبوسني و«يوغسلافي» على أمل الفوز بالجائـزة الكبرى على الأقل ولو لمرة: فقد قرر البعض الانتظار، متابعـين الحرب وكأنها عاصفة على وشـك أن تتلاشـى. كان الناس الذين لديهم أطفال قلقـين على أطفالهم أكثر من قلقهم على أنفسهم: إذ كانت سلامة الأطفال هي المهمة.

كانت أوروبا تعج بمواطني يوغسلافيا السابقة، إذ تم إحصاء موجة مهجري الحرب بمئات الآلاف. كان قد سُجل مئات الآلاف من الأسـماء، أسماء أناس في وضع اللجوء الرسمي. فاستقبلت السويد ٧٠ ألفا، وألمانيا ٣٠٠ ألف، وهولندا ٥٠ ألفا. وكان هناك جيش من غير المسـجلين رسـميا. لقد كنا فـي كل مكان. لقد فقدت كل القصص صفتها الشـخصية تماما، أو كونها مُحطِمة

تماما. لأن الموت نفسه فقد قدرته على التحطيم. فقد كان هناك الكثير من الموتى.

سرعان ما تعلمت التقاط مواطني بلدي من بين الجموع، الرجال، وخصوصا الرجال كبار السن، الذين تحملوا الكثير. كانت محطات القطار الرئيسية وأسواق السلع المستعملة أماكن التجمع المفضلة لديهم. كانوا يتجولون في تشكيلات من ثلاثة أو أربعة أشخاص، مثل الدلافين، مرتدين سترات خفيفة لصد الريح، والأفضلية للجلد، وأيديهم مدفونة في جيوبهم. قد يقفون معا لفترة - يبدلون أقدامهم من قدم إلى أخرى، وينفثون دخان سجائرهم متخلصين من خوفهم - ثم يتفرقون.

في حيِّنا في برلين حيث كنت أسكن أنا وجوران، اعتدت أن أتوقف أمام واجهة عرض أحد «نوادي» اللاجئين. من خلال الزجاج كنت أستطيع أن أرى «أهلنا» يلعبون الورق بصمت، ويحملقون في جهاز التلفاز، ويتكلمون من حين إلى آخر وهم يرتشفون البيرة من الزجاجة مباشرة. الخارطة المرسومة يدويا على الحائط كانت مرصعة بالبطاقات البريدية. كانت ذات جغرافيا خاصة بها. فالأماكن التي جاءوا منها - مثل برتشكو، أوبيلينا - كانت تقع في مركز العالم: فتلك هي الأوطان الوحيدة التي تركها الرجال. لقد بدوا، من خلال حلقات الدخان المتصاعد التي تحيط بهم، كأنهم «سابقون» مثل جنسيتهم السابقة؛ لقد بدوا كجثث خرجت من القبور من أجل زجاجة من البيرة، أو دورة من لعبة الورق، لكن انتهى بهم المطاف في المكان الخطأ.

في الشارع غالبا ما كنت أستمع خلسة لأسلوب كلامهم.

كان كلامهم يعج بالأرقام. لا يستطيعون التوقف عن ذكر الأرقام. المـــارك، ٥٠٠ مـــارك، ٣٠٠ مارك، ١٠٠٠ مـــارك... أما هنا في أمســـتردام، فـــكان حديثهم يدور حول الكثير مـــن الجيي، وهي كلمتهم الدارجـــة للجيلدرات (العملة الهولنديـــة): كذا وكذا من الجيي... ويطيلون حروف العلة وكأنهم يغمغمون، وفي الحقيقة كان كلامهم تمتمة أكثر منه حديثا، حديث لا ينتهي عن حسابات أرصدة واقعية أو متخيلة.

كان لـــدى الجميـــع مصطلحـــات ازدراء ينعتـــون بها ســـكان الدول التي حلـــوا بها: فنعتوا الألمان بـ «الشـــفابو»، والهولنديين بـ «الداتشـــير»، والسويديين بـ «الشـــفيد». وهذا جعلهم يشعرون بأهميتهـــم. كانوا يُتبلون حديثهم «بكما أقول» و«صدقني»، وذلك لتأكيـــد دورهم فـــي القضايا المتداولة، بغـــض النظر عن أهمية الموضـــوع أو تفاهة دورهم فيـــه. فالإصـــرار على الرأي كـــان كل ما ينشـــدونه. فيقول أحدهم: «أستطيع الذهاب من أوستدروب إلى ليدزبلين في إحدى عشرة دقيقة». فيرد آخر: «كيف تستطيع ذلك في إحدى عشرة دقيقة. هذا يحتاج إلى خمس عشرة دقيقة على الأقل. هل قمت بحســـاب الوقت؟» فيرد: «نعم يا صديقي. خمس عشـــرة دقيقة بالضبط، من لحظـــة ركوبك الترام». كانت تلك الأحاديث، حيلة الرجال. كل كلمة مقصودة لتأجيل اللقاء مع الهوان وللتخلص من الخوف.

إن الطريقـــة التي يتحركون بها، والأماكـــن التي جاءوا منها، كشـــفت عن فقدانهم لفضائهم الشـــخصي: المقعد الطويل أمام المنزل، حيث كـــان يمكنـــهم مشـــاهدة العـــالم يمر من أمـــامهم،

أو واجهة المدينة المطلة على البحر، حيث كان يمكنهم رؤية السفن التي ترسو، والاخرى التي تتحدر عن المعبر، وساحة المدينة، حيث كان يمكنهم التمشـــية مع أصدقائهم؛ والمقهى، حيث كان يمكنهم أن يجلسوا إلى طاولتهم ويتناولوا شرابهم . لقد كانوا يبحثون في المدن الأوروبية عبثا عن الفضاء النظير الذي تركوه.

كانـــوا يبحثون أيضا عن النظير الإنســـاني. كان جوران كثيرا ما يقع فريســـة الحنين إلى يوغسلافيا، وعندما كان يتغلب عليه الحنـــين، كان معتادا أن يجر أول رفيق من البلد نفســـه يصادفه إلى البيت لتناول الشـــراب. وســـرعان ما سمعت ما يكفيني من القصص حول مراكـــز اللاجئين في ألمانيا وتجربتهم هناك. كان «أهلنا» يلتصقون مثل الغراء بأي شـــخص روســـي، أو أوكراني، أو بولنـــدي، أو بلغاري يقابلونه، شـــاعرين برابط معهم . أخبرنا شخص بوســـني حكاية امرأة بولندية كانت تأتي إلى برلين على حافلة رحلات اليـــوم الواحد لتزويد «أهلنـــا» بالجبن، والنقانق البولندية بأســـعار رخيصة، ومطارحة علـــى التبن من حين إلى آخر. كانت النقود التي كســـبوها، يذهبون بها لشراء الحاجيات التي تكفيهم لمدة أســـبوع من برلين، مثلا، ثم يســـتقلون الحافلة عائدين إلى منازلهم. كان بمقدورهم أن يقتفوا أثر بعضهم بعضا في الشـــارع: إذ علمتهم بليتهم المشتركة تلك الحيلة. لقد أخبرنا الشـــخص البوسني نفســـه عن بيت للـ... في برلين (مستخدما الكلمة الألمانية «باف») حيـــث كان يصرف كل المخصصات التي يتلقاهـــا كلاجئ. كانت الفتـــاة التي يذهب من أجلها، واســـمها «ماشـــا»، «تأخذ منـــه كل ثروتـــه ولا تعـطيه شـــيئا بالمقـابل»،

ولكنــه كان راضيا بذلك. كان يقول: «لأنها روســية، واحدة منا. فأنــا لا أصرف دراهمي على فتاة ألمانية. تلك الفتيات الألمانيات يفتقرن إلى الروح. هن لسن مثل فتياتنا». وكان يقصد «بفتياتنا» الفتاة الروسية، «ماشا».

كان الرجــال أكثر شــكوى من غيرهم؛ فشــكواهم لا تنقطع قــط. يشــكون من الطقس يشــكون من الحرب، ومــن قدرهم، والجور الذي وقع عليهم. يشــكون مــن ظروف في المخيمات إذا كانوا يعيشــون في أحدها؛ وتذمروا من الظــروف أن لم يكونوا مقيمين فيها. يشكون من الرعاية الاجتماعية؛ فتذمروا من الذل لاضطرارهــم إلى قبولهــا؛ وتذمروا من عــدم الحصول عليها. يشــكون طوال الوقت من كل شيء وبنفس القوة. كان الأمر وكأن الحياة نفســها أصبحت عقابا لهم: فكل شــيء كان يغيظهم، كل شــيء كان يغضبهم، كل شيء كان يجرحهم؛ فلم يكن هناك شيء كافٍ لهم، وكل شيء تقريبا أكثر مما ينبغي.

كانت النســاء أقل ظهــورا بكثير من الرجــال. لقد بقين في الخلفية، لكنهن حافظن على اســتمرارية الحياة: فرتقن الثقوب لمنــع الحياة مــن التدفق خارجا؛ واضطلعن بهــا على أنها مهمة يوميــة. أما الرجال فبدوا كأن ليس لهم مهمة؛ فبالنســبة إليهم كونك لاجئا كانت مماثلة لكونك عاجزا.

هنا في أمستردام كنت أذهب أحيانا إلى مقهى بوسني اسمه «بيــلا»، وهــو مكان يرتاده مجموعة بائســة مــن لاعبي الورق، ومشــاهدي التلفاز. في كل مرة كنت أدخــل المقهى، كنت أقابل بنظــرات طويلــة لا تعبر عن أي شــيء - ولا حتى الدهشــة أو

السـخط – من منظر فتاة تغزو مكانا للرجال. كنت أتخذ مقعدا عند البار، وأطلب «قهوتنا» (التركية)، وأجلس هناك بعض الوقت وكأني أعاقب نفسـي، فأخفـض كتفيّ قليـلا بطريقة غريزية لانسجم في جلستي. كنت أشعر بالصفعة الخفية على وجوههم تجتاح وجهي. لم يكن لدي أدنى فكرة عن سـبب وجودي هناك. قد يكون ذلك نابعا من رغبة غامضة باقتفاء أثر «قطيعي»، الذي لم أكن متأكدة قط أنه يعود لي – أو أنه كان لي أبدا.

لقد وافق تلامذتـي أيضا أن يكونوا «أهلنا» أحيانا، رغم أننا لـم نعرف ماذا كانت تعني الكلمـة، ورفضوا ذلك أحيانا أخرى، وكأن تلك الكلمة يستتبعها خطر حقيقي، محسوس. وعندما كنا نرفضها، كنا نرفض الانتمـاء إلى «أهلنا هنا» أو «أهلنا هناك». كنا في بعض الأوقات نقبل هويتنا الجمعية الغامضة، وفي أوقات أخرى نرفضها بازدراء. لقد سمعت الناس مرارا وتكرارا يقولون: «إنها ليسـت حربي!»، وهي لم تكن حربنـا. لكنها أيضا حربنا. ولأنها حربنا، لم يكن يجب أن نكون هنا كذلك.

٤

لغتنا، هي كنز أرواحنا الوحيد،
أقحمناها في حقيبة السفر
بجانب ألبوم صور العائلة،
ثم ذهبنا للتمايل مع طواحين الهواء
نضرب الهواء الهولندي البارد.

فريدا دراكوفتش

كان أول شيء طلبته من تلامذتي هو كتابة الإجابات عن بعض الأسئلة. سألتهم عما كانوا يتوقعون تعلمه من المقرر الدراسي، موضحة أن يوغسلافيا لم يعد لها وجود، وما إذا كان ينبغي معاملة الآداب اليوغسلافية كوحدة واحدة، أم وحدات منفصلة، وأي الكتب والأعمال تعجبهم، وهلم جرا. ثم طلبت منهم أن يكتبوا سيرا ذاتية مختصرة عن أنفسهم. باللغة الإنجليزية.

«لماذا بالإنجليزية؟».

قلت: «لتسهيل الأمر عليكم».

وقد كنت أعني ذلك، إذ كنت متخوفة (ولو أني كنت مخطئة) من أن استخدام «لغتنا» سيؤدي بهم إلى تبني الأسلوب الاعترافي، وهذا ما لم أكن أريده. ليس بعد.

تمتم أحدهم: «أيا كان».

«حسنا، افعلوا ما يحلو لكم».

«هل تريديننا أن نعطي أسماءنا الكاملة؟».

«الاسم الأول كاف».

«ماذا تريديننا أن نضع فيها؟».

«أي شيء يخطر على بالكم».

تذمر طالب آخر: «لقد فعلنا ذلك في المدرسة الابتدائية».

قمت بقراءتها في المنزل. تأثرت بسذاجة إجاباتهم. («الأدب لوحة زيتية للعقل، أغنيــة للروح»). كانت قائمة الكُتاب والأعمال التي سـجلوها والتي تثيـر إعجابهم يمكن التنبـؤ بها على نحو مخيب للآمال. ذكروا هيرمان هيسه، وبالطبع، قدموا العديد من رواياته: سيدهارتا، ماجيستر لودي، ستيفن وولف. ثم ذكروا ميشا سلموفتش(الطلبة، الذين قرأوا الأدب من أجل رسالته الفعالة في الحياة، كانوا يعتقدون، بحق أو بغير حق، أن سلموفتش هو النظير اليوغسـلافي لهيسه) بروايته الكلاسـيكية الموت والدرويش. أنا واثقة من قدرتهم جميعا على سرد مقطعين من الكتاب، أحدهما يشجعهم على الفرار من هويتهم الإقليمية («الإنسان ليس مجبولا من الخشـب؛ فمأسـاته الكبـرى كونه مقيـدا»)، والآخر يغرس فيهـم العدمية المحببة للإقليميـة («فالموت غير معقول مثله مثل الحيـاة»). وكان الموضوع الشـائع الآخر هو كتـاب فتيان محطة حديقة الحيوانات، موضـع إعجاب المراهقين ويمثل جيلهم. كان وجود بوكوفسكي أيضا ضروريا لعديد من الأجيال بوضعه الثائر، واللامنتمي. لقد نعتوه بـ «الممتاز» و«الرهيب»، و«الحاكم» فهو قد مثل «كل ما يعنيه الأدب»؛ «الأدب بحفلاته الراقصة».

اسـتدعت إجاباتهم صورة منسـية منذ عهد بعيد للبلدات المحليـة اليوغسـلافية: مكتبـة البلـدة الوحيـدة، التي تبيع

القرطاسية أكثر مما تبيع الكتب؛ ودار السينما الوحيدة «حيث كانوا يشاهدون» مرة، إن لم يكن مرتين «كل فيلم جديد؛ والمقاهي الممتلئة بالدخان، حيث يتجمعون بانتظام؛ واللكورزو، معهد البحر المتوسط بالساحة العامة حيث يتجولون كالجراء باحثين بعضهم عن بعض. لقد تشكلت ذائقتهم وفقا لهذه البلدات الباهتة مثل بيلوفار، وفيريس، وبيلا بلانكا، إضافة إلى حفنة من الكتاب مثل كارلوس كاستنيدا، الذي ظهر في طريقهم عندما تناولوا الحشيش لأول مرة، وبعض البوذية من الدرجة الثالثة، وقليل من عصر الموضة، وشيء من النظرية النباتية، وبعض من بوكوفسكي، والكثير من موسيقى الروك، وقليل من القراءة (ما يكفي لذر الرماد في العيون)، وأطنان من النصوص الهزلية (كانت تقرأ سرا من تحت مقعد الدراسة)، وكثير من الأفلام السينمائية، وقليل من الإنجليزية التي وصلتهم أكثر ما وصلتهم عن طريق الأفلام وليس عن طريق معلمي اللغة الإنجليزية. لقد كانت تلك الذائقة خليطا من اللذة والألم، ذائقة مضطرمة برغبة في الهروب، واقتناص أول فرصة للتوجه إلى زغرب أو بلجراد، أو سراييفو» أو إلى أبعد من ذلك.

في النهاية، ما أثبته تمريني البسيط أنه لا يمكنهم الاهتمام بالأدب. إنه يضجرهم. حتى من تلقوا تعليما أدبيا - فميليها كانت تحمل شهادة في الأدب اليوغسلافي من جامعة سراييفو - وقد غيرت الحرب ما هو أكثر بكثير من أولوياتهم، لقد غيرت ذائقتهم. كتبت ميليها تقول:

بدأت ذائقتي تتغير حالما اندلعت الحرب. والآن نادرا ما أستطيع التعرف على نفسي. الأشياء التي كنت أحتقرها قبل الحرب، وأسخر منها على نحو ممرض عذب، أصبحت الآن أذرف الدموع عليها. لا أستطيع أن أبعد نفسي عن الأفلام القديمة التي تنتهي بانتصار العدالة. قد تكون تلك الأفلام عن رعاة البقر، أو روبين هود، أو سندريلا، أو وولتر يدافع عن سراييفو. قد أكون أيضا نسيت كل شيء تعلمته في الجامعة. أترك أي كتاب لا يشد أوتار قلبي. ولم يعد لدي صبر للاستعراض الفني وخيلاء التقنيات الأدبية أوالتهكمية «وهي أكثر الأشياء التي كنت جهزت لها مخزنا ضخما. أما الآن فأنا مولعة بالبساطة، والحبكة التي تتكشف عن رمزية أخلاقية. وأكثر ما يعجبني، والنوع المفضل لدي هو الحكاية الخرافية. أحب العدالة الرومانسية والبسالة، والشفقة، والصدق. أحب أبطال الأدب الذين يتمتعون بالشجاعة حين يجبن الناس العاديون، والذين يتمتعون بالقوة عندما يكون الناس العاديون ضعفاء، والذين يتمتعون بالنبل والطيبة عندما يكون الناس العاديون وضعاء وحقراء. أعترف بأن الحرب قد جعلت ذائقتي طفولية: فأنا أذرف الدمع عندما أقرأ كتب الأطفال القديمة خاصتي» المغامرات الغريبة للصبي المبتدئ هلووبتش، وصبية شارع بال، وقطار في الثلج. وإذا قال أحد إنني تحولت إلى نصير متطرف لحكايات المأثر البوسنية، كقصة «برانكو تشوبك»، مثلا، فإنني كنت أرى أنه فقد عقله.

رد معظمهم بالإيجاب عما إذا كانوا يرون أن تُعامل الآداب الكرواتية والصربية والبوسنية كوحدة واحدة.

(«طبعا ينبغي ذلك. فنحن نتكلم اللغة نفسـها، أليس كذلك؟ وكتب ماريو: لم لا نمضي أبعد من هذا، وندرج الآداب السلوفينية، والمقدونية، والألبانية. فكلما كانت أكثر زاد المرح»).

أما موضوع السـير الذاتيـة المختصرة فقد كتـب جميعهم جملتـين أو ثلاثة بإنجليزيـة متكلفة. («ولدت سـنة ١٩٦٩ في سـراييفو، البوسنة، حيث عشـت طوال حياتي ...» ولدت سنة ١٩٧٤ في زغرب لأم كاثوليكية وأب يهودي ... «ولدت سنة ١٩٧٢ في زفورنك لأب صربي وأم مسـلمة ...» ولدت في لسـكوفلك سنة ١٩٧٢ ... - وكنت كلما أمعنت بالقراءة اتضح لي أن الكتابة بلغة أجنبية تمدنا بعذر للتحفظ الموضوعي والإيجاز. فأنا نفسي لم أكن أسـتطيع أن آتي بأكثر من قولي إنني ولدت سـنة ١٩٦٢ في زغرب، في يوغسـلافيا السـابقة، لذا حازت كلمات إيجور: «اللعنة! ليس لدي أي سيرة ذاتية»، رضاي التام، وجعلتني أنفجر ضاحكة.

بدت سـيرتي الذاتـية خـاوية مـثل شقـتي تماما، ولم أعرف ما إذا كان شخص ما قد أخرج الأثاث في غفلة مني، أم أن الشقة كانت دائما هكذا. لقد كانت مواجهة الماضي القريب عذابا تاما، ومحاولة التحقق من المستقبل المجهول مقلقة. (أي مستقبل على أي حال؟ المستقبل هناك؟ أم المستقبل هنا؟ أم مستقبل ينتظرك في مكان آخر؟) لهذا السبب وجدنا أن السيرة الذاتية المختصرة نوع من الكتابة عسـير جدا. حتى أن بعض الأسـئلة الأساسية كانت تجعلني أتردد. أين ولدت؟ في يوغسلافيا؟ في يوغسلافيا السابقة؟ في كرواتيا؟ اللعنة! هل لدي أي سيرة ذاتية؟

كما أربكتني قليلا أعيـــاد ميلادهم: فتطورهم العقلي تخلف كثيرا عن عمرهم الزمني. ربما كان المنفى نوعا من النكوص. ففي هــذه المرحلة من العمر يُفترض أنهم قد اســتقروا في وظائفهم وأنجبــوا أطفالا، لكنهم ها هنا يتوارون خلف مقاعد الدراســة. إن حالــة المنفى قد أخرجت كل المخــاوف الطفولية الدفينة إلى السطح. ففجأة لم تعد نظرة ولمسة يد الأم الحنون موجودة. كان الأمر أشــبه بكابوس. ربما كنا في الشـــارع، في السوق، أو على الشـــاطئ، وســواء كانت غلطتنا أم غلطتها، فقد افترقت أيادينا وذهبــت الأم أدراج الرياح. فواجهنا عالما بدا شاســعا وعدوانيا بشكل مرعب. تتقدم تجاهنا أحذية عملاقة ونحن نشق طريقنا في غابة من الأرجل البشرية، فيزداد رعبنا...

كثيرا مــا راودني انطبــاع أنني أرى أثــرا لذلك الخوف في الظلال التي لفــت وجوه طلبتي. قالت آنا ذات مرة: «في المهجر تكبر قبل الأوان، وتبقى صغيرا إلى الأبد» في نفس الوقت، وفي تلك المسألة، في رأيي، تكمن حقيقة عميقة.

فــي الرد على الســؤال عن توقعاتهم حول ما ســيخرجون به من المقرر الدراســي، كتب يوروش: كلمة «يستعيد»، وتلك الكلمة، بالطريقــة التــي اســتعملها بها، بــدت وكأنها تعنــي ليس فقط «الاستفاقة من صدمة»، و«استعادة الوعي»، و«العودة إلى الحياة»، لكن أيضا «العــودة إلى الذات»، وكأنها افترضت مســبقا مكانا، وشــخصا يتخبط في هذا المــكان، يبحث عن طريــق يقوده إلى الوطن. في البداية شــعرت بتوتر ما لبث أن أعقبه رعب من تلك الإجابة. فهل كنت جاهزة للتعامل مع ذلك النوع من الاحتياج؟

٥

تضاريس الأرض الهولندية منبسطة؛
تتوارى بعيدا بعد قول وفعل كل شيء
إلى داخل البحر، الذي يجسد بعد قول
وفعل كل شيء، هولندا أيضا ... ففي هولندا
لا يمكن للمرء أن يتسلق الجبال أو يموت من الظمأ،
فضلا عن أن يترك أثرا واحدا
عندما يترك المنزل فوق دراجة هوائية
أو ماخرا عباب البحر. ذكرياتنا
ليست سوى هولندا أخرى، لا يمكن لسد
أن يقف في وجهها. وهذا يعني أنني
أعيش هنا في هولندا منذ زمن أطول
من تلك الأمواج المحلية المتلاحقة
لغير مستقر لها. مثلها مثل هذه السطور.

جوزيف برودسكي

في بعض الأحيان، عندما كنت أواجه صورتي في مرآة الحمام، كنت أشعر برغبة عابرة لمعرفة أين أنا بالضبط. لم أطرح أسئلة مثل هذه قط عندما كنت أعيش أنا و«جوران» معا؛ بل لم أطرح أسئلة على الإطلاق: إذ يبدو أنه لم يكن هناك وقت لطرحها. وفجأة أصبح لدي متسع من الوقت، وذلك جعلني في غاية القلق. بدا الأمر وكأن هناك الكثير جدا من الوقت،

والقليل مني. غالبا وبإطراد تغلب عليَّ شعور بغيض، فقدان للحس لم أعهده من قبل. لم أتوقف عن تفحص نفسي كمن يتفحص فمه بلسانه بعد علاج الأسنان، على أمل استعادة إحساسي، ولكن الإغراء الذاتي بالخدر وفقدان الحس كان أقوى ورفض الإذعان. لم يكن لدي أي فكرة من أين جاءت تلك القوة أو متى بدأت.

بُعيد انتقالي إلى هنا، بدأت الشقة تثير أعصابي. فقد ترك الحمام الضيق، الذي كان بلا نوافذ، بدشه، وبلاطه الأبيض، وأرضيته الأسمنتية، شعورا كابوسيا لدي؛ فهو يشبه مقطعا من فيلم قديم بالأبيض والأسود. استمررت في محاولة تحسينه: فاشتريت بعض حليات رخيصة، وصبانة للصابون، ومنشفة غالية الثمن بشرائط زينية عند الحواف مشغولة يدويا؛ وجددت الإضاءة. كشفت إضاءة الأنوار الجديدة عن تراكم الأوساخ في الفراغات بين البلاط، وفي إحدى الليالي أمضيت عدة ساعات في إزالة الأوساخ بفرشاة أسنان قديمة في محاولة عنيدة لتغيير شكل المرحاض الخارجي بقوة بهيمية. كان جدار الصالة الصغيرة مصبوغا باللون الأخضر الرمادي عند نصفه الأول من ناحية الأرضية، ومفصولا عن نصفه الآخر بخط أخضر بشع. وكانت الأرضية مغطاة بمشمع أسود، مما أعطى الشقة رائحة مستشفى أو سجن. لقد فعلت كل ما أستطيع فعله «اشتريت مزهرية، ومصباحا، ولوحة بالأبيض والأسود لأفق مدينة نيويورك» لكن وجود كل هذه الأشياء كشف عن قلق الغياب. غياب ماذا؟ لم يكن لدي إجابة. تساءلت إن كان مكان آخر سيجعلني أشعر بشكل أفضل. لم أكن متأكدة أيضا. في الليل ألتف بالظلمة وبدثار صوفي، أجلس في مقعدي

ذي الذراعين مقابل النافذة وأحملق إلى الخارج من خلال القضبان، أحملق فيمن هم أحياء من أجل سماع ضجيج أو أصوات، أو قطة أووقـع أقدام أناس يندفعون عابريـن. بالتأكيد لم أكن أنا المكان. لكن آنذاك لم أكن أنا نفسي أيضا.

ذعري من شـقة البدروم تلك راح ينمو بعفوية استوائية، مثل وردة العشق، وزهرة الباسيبلوم...، والنباتات المتسلقة التي تزين جـدران المنازل وبوابـات الحدائق في أماكن متعـددة في هذه المدينة. استمررت أضبط نفسـي وأنا أخطف حقيبتي اليدوية، وألقـي بمعطفي على كتفيّ، وأهـرول خارجة من المكان، دون أن أعرف وجهتي.

المدينة، التي كانت تشـبه حلزونا، أو محارة، أو شبكة عنكبوت، أو قطعة من شريط زيني، أو رواية بحبكة دائرية فريدة لا نهاية لها، لم تتوقف عن إرباكي قط. كنت دائما أضل طريقي وأواجه مشاكل كبيرة في تذكر أسـماء الشوارع، ناهيك عن أين تبدأ تلك الشوارع نفسها وأين تنتهي. كان الأمر كمن يغرق في كوب ماء. ينتابني ذلك الشـعور بأنني «لو كنت آليس في بـلاد العجائب، كنت بالتأكيد لن أجد موطن قدمي وسأسـقط في حفرة» سـينتهي بي المطاف في عالم مواز ثالث أو رابع، فأمسـتردام ذاتها كانت هي عالمي الموازي. لقد خبرت أمستردام كحلم خلّف صدى في واقعي. لقد حاولت حل لغز هذه المدينة بالضبط مثلما حاولت أن أفسر أحلامي.

كان الشـيء الأكثر سـحرا فيها هو الرمل. كنت أقف بجانب أحد المنازل التي يجري هدمها، وأراقب العوارض المتعفنة تسقط أرضا، والمـاء ينبجث خارجا لأعلى من أعمـاق غير مرئية عبر

حفـــرة قبيحة «في الرمـــال. كنت أراقب العمـــال وهم يصلحون حصـــي الأرصفة في أمســـتردام بتحـريكها بقـــوة ليخرجـــوها، ثم يعيدون وضعها» في الرمال. لقد زود الرمل المدينة بأســـاس مجـــازي، وواقعي أيضـــا، وكان تقريبا يثير في نفســـي ردة فعل جسدية: فكنت أشعر به باستمرار في فمي، وشعري، وأنفي.

لم أســـتطع التغلب على مجموعة العلامات والإشارات «التي كانـــت بمنزلـــة بصمات» التي بهـــا أوضح ســـكان المدينة بجلاء أنها تخصهم. كنت أعتقد أن تلك الإشـــارات طفولية، لذا كانت مؤثرة. مثلما فعل هانزل وجريتل حين كانا يلقيان بكســـر الخبز وراءهما حتى ترشـــدهما إلى البيت عنـــد العودة. كل واحدة من تلك الإشـــارات «كتماثيـــل القطط التي تتســـلق واجهات المنازل القديمة، والأعلام التي تتدلى من النوافذ، والملصقات الإعلانية، بـــل والصـــور العائلية، خاصة صـــور الأطفال حديثـــي الولادة، والنقـــوش والشـــعارات، والتماثيل الصغيـــرة، والدمى، بما فيها دمى الدببـــة الصغيرة، والأقنعـــة الأفريقية، ودمـــى الماريونيت الإندونيسية، ونماذج الســـفن، والمجسمات المصغرة طبق الأصل للبيوت الهولندية»، كلها كانت لها رسالة واحدة فقط : «أنا أعيش هنا! انظري! أنا أعيش هنا». انتابني شـــعور بأن كل تلك «الصور الساكنة» و«دمى الماريونيت» و«المنمنمات» بل والزخارف البسيطة لأنية الزهور الرخيصة المسماة «أيكا» والتي تسكن حطام سفينة «زينو» الملهمة بـ ٢ جيلدر - كلها شـــاهد لا شـــعوري على خوف الســـكان من الزوال. كانت بيوت الدمى مطمورة في بيوت دمى، المباهاة الطفولية المدينية، والبصمات المتعمدة في الرمال - عند

مستوى معين كانت كلها ترجع الصدى مع قلقي، الذي لم أستطع أن أضع يدي على اسمه أو مصدره.

كنت أسكن قريبة جدا من محطة القطار، ووجدت نفسي أذهب إلى الصالة الرئيسية، حيث كنت أقف أحملق في جدول المواعيد، وكأن وصول القطارات ومغادرتها سيوفر حلا للغز الكامن خلف قلقي. وفي إحدى المرات، وبشكل اندفاعة عفوية، استقللت القطار إلى مدينة «لاهاي»، حيث مضى عبر المدينة وعاد بعد بضع ساعات أخيرا إلى أمستردام. منذ ذلك الحين كونت عادة ركوب القطارات إلى أماكن لا تعني ليّ شيئا على نحو خاص. لقد ذهبت إلى الشمال، إلى مدن جرونجين وليوردين، وفي الجنوب إلى روتردام ونيجين وإيندهوفن، وفي الشرق، إلى إنتشيد وإلى المدن القريبة مثل هارليم ولايدن وأوترتشت؛ وإلى مدن أخرى قريبة من هارليم وليدن، وأوتريتش؛ وقد أذهب إلى مدن لأنني استحسنت أسماءها ببساطة: مثل أبلدورن وأمرستفورت، وبريدا، وتلبيرغ، وهورن، هنجيلو وآميلو، وإلى ليليستاد التي ذكرني اسمها بتهويدة أطفال. بدت هولندا بلدا صغيرا بشكل لافت للنظر . غالبا ما كنت أنزل من القطار وأسير جيئة وذهابا على رصيف المحطة ثم أستقل القطار التالي عائدة إلى أمستردام. كانت الرحلة وحدي تريح أعصابي. فقد كنت أحملق من خلال النافذة للخارج، وذهني فارغ، وكانت الأراضي الهولندية المنخفضة تخفف من قلقي. كنت أستمتع بهذا الاستواء المطلق، الهادئ متواصلا في أثناء الحركة. ورحت أعجب باللافتات التي تمر كالبرق في إيقاع قوافي العد عند

الأطفال: سوني، وبراكسس، وفودافون، ونيكون وإنكو، وجي في سي، وراندستاد وفيليبس وشيل ودوبي، ونيندرز وبن... وكما يبدو أننا نحب الناس لعيوبهم أكثر من فضائلهم، لذا فإنني اكتسبت تدريجيا تعاطفا مع المشهد الطبيعي للغياب، خط الأفق المستقيم، بلونه الأخضر الفاتح، والمشاهد الليلية الباردة بأقمارها المكتملة، وأسراب الإوز البيضاء الضخمة تلألأ في العتمة، أوالأطياف المتجمدة لقطعان الأبقار اللاهية في الطريق وكأنها أشباح ودودة.

لقد أتقنت لغة الوحدة في القطارات والمحطات. أنا، الجوالة التائهة، وسرعان ما اكتشفت أنني لم أكن وحدي. أثناء وقوفي على رصيف المحطة قد ألتفت إلى أحد المسافرين ممن يستطيعون رؤية اللوحة الإلكترونية ورؤيتي أيضا، وأسأله: «من فضلك، القطار التالي ذاهب إلى روتردام، أليس كذلك؟».

«آسف، لا أستطيع الجزم بذلك».

«إلى أين أنت ذاهب؟»

«أنا؟ روتردام».

وقد أراقب الناس في القطارات، وأصغي إلى أحاديثهم بالرغم من أنني لم أفهم لغتهم، وأن أشتم روائحهم. كنت أتخيل وجوههم على شاشة حاسوب وأستعرضها، مسجلة تفصيلة تلو أخرى، وكانت الصور تظهر لفترات طويلة أو قصيرة من الزمن، وغالبا ما كان يتملكني شعور بأن شخصا آخر غيري قد فتح لهم الباب.

هناك صورة لفتاة يافعة تجلس مقابلي في القطار. وهي تضع سماعة صغيرة في أذنها مربوطة بسلك ينتهي في حقيبة

يد نصف مفتوحة وعليها اسم ماركة «إسبرت» التجارية. كان القطار مكتظا، لكن الفتاة كانت غافلة عمن يحيطون بها: فقد كانت تتحدث بصوت مرتفع، محملقة في نقطة أمامها مباشرة بلا أي تعبير. ظلت مستمرة في الكلام، وصوتها حاد، كصوت آلة، واعتدلت في جلستها والحقيبة في حضنها، ربما لخوفها من أن تسقط تلك الحقيبة وتتعرض للتلف. وكانت يدا الحقيبة معتدلتين أيضا، وقاربتا الوصول إلى فمها، وكأن الكلمات تخرج من فمها وتنسل إلى داخل الحقيبة. وعندما انتهت المكالمة، نزعت السلك من أذنها، وأخرجت الهاتف المحمول من الحقيبة، وأغلقته، ودسته في رمال كلماتها التي تدفقت للتو من ثغرها قبل أن تزمم الحقيبة.

وثمة صورة لشاب أسمر نحيل البنية يتأمل كتابا لتعليم اللغة الهولندية للأجانب، ويقوم بمضغ ممحاة قلم رصاص وكأنها علكة مسكرة. يضع الكتاب في حضنه لبرهة، ثم يلتفت نحو النافذة، ويتمتم بعض الكلمات لنفسه محاولا تثبيتها في ذهنه، ومن ثم يعود إلى الكتاب.

وهناك صورة لزوجين صينيين يمضغان العلكة بحركة متزامنة، وقد بدا وجهاهما شاحبين بشكلهما الفئراني. الزوجة ترتدي بلوزة مفتوحة، تعوزها بعض النظافة، تكشف عن صدرها. أما الزوج الذي يستمر في مضغ العلكة، فيضع ذراعه حولها.

تستمر الزوجة في مضغ العلكة، وتغمز بعينين ليستا لقاصر.

وثمة صورة لسيدة مغربية متعبة تحمل صبيا في حضنها. حجم الصبي لا يزيد على كيلوين، له شعر أسود كثيف مفروق إلى الجانب شأنه شأن شعر الراشدين. وجهه عليه مسحة الغياب المرعبة الموجودة على وجوه كل الأطفال، تلك المسحة التي نراها على الوجوه في الأيقونات واللوحات الزيتية القديمة.

في أحد أسفاري توقف القطار بشكل مفاجئ. وهذا ما حدث أيضا مع القطار القادم من الجهة المقابلة كان يجلس في المقعد الذي يقابل مقعدي في القطار الآخر رجل يمسك نوتة موسيقية في يد، ويؤدي اللحن الموسيقي باليد الأخرى. كان مستغرقا في الموسيقى التي تتفاعل بداخله تماما، ويوقع إيقاعات قصيرة، رقيقة، مكبوتة. كنت مسحورة بذلك. كان وجهه مضيئا بسمو داخلي. لم يكن العالم الخارجي موجودا بالنسبة إليه: فقد كان محاطا بالموسيقى الصامتة كأنها كبسولة لا يمكن اختراقها؛ فلا شيء يمكن أن يمسه. ولكن سرعان ما تحرك القطاران، قطاره وقطاري، وتوارى وجه الرجل. شعرت بوخز وكأنني كنت أرى نفسي في الزجاج، وكأنني كنت أرى نفسي لكن دون أن أسمعها. شعرت وكأن طيفي قد رحل في الاتجاه المعاكس.

في غمرة تجوالي في المدينة كانت تنتابني أحيانا رغبة جامحة، مفاجئة، خارجة عن السيطرة، تعود إلى شيء يتصف بالبراءة. فكلما انحشرت في عربة ترام بجانب رجل ذي عضلات مكشوفة مفتولة، أشعر برغبة ملحة في تقبيل تلك البشرة الذهبية لشخص غريب عني. كما كنت أشعر كلما انحشر بجانبي في المقصورة رجل يضع قرطا في أذنه، أشعر برغبة في

نزع ذلك القرط بأسناني. لقد أرعبتني قوة تلك النوبات غير المتوقعة، لكنها مع ذلك منحتني شعورا بالانعتاق. الانعتاق من ماذا؟ لا أستطيع الجزم.

تشكلت خارطة مدينتي الداخلية وفقا لانسجام خاص بها. كانت الصور تأتي وتذهب، لتلبث بعض الوقت أو تتلاشى كالرمال. كان ذلك يشبه البحث عن درب في العتمة أو المنام. لقد رسمت خارطتي الداخلية على أكثر ورق استشفاف رقة، ولكن حالما فصلتها عن الخارطة الحقيقية، رأيت ولدهشتي أنه فارغ. لم يظهر على الورق شيء البتة. ولا أي شيء. ربما كنت سأتأثر عاطفيا مع أي بادرة خط بمعنويات عالية، لكن سرعان ما كان يتوقف ويتلاشى. أحيانا كانت خارطتي الداخلية تبدو كرسم أخرق للأطفال. إن مدينة تشبه حلزونا، وقوقعة، وشبكة عنكبوت، ومتاهة، وقطعة من شريط زينة، ورواية تعج بروافد غامضة، قد تتحول، في خارطتي الداخلية، إلى سلسلة من الفراغات، والفجوات، والنتف، والنهايات المسدودة. كانت خارطتي الداخلية حصيلة محاولة شخص فقد ذاكرته لتعيين موقع إحداثياته، محاولة متسكع لترك آثار قدميه على الرمال. لقد كانت خارطتي دليل الحالم. لم يكن عليها فعليا أي شيء متطابق مع الواقع.

لكنني عرفت شيئا واحدا على وجه اليقين. فأينما ذهبت كان طلابي هم من يمدونني بالاتجاه. لقد كانوا مركزي الداخلي، وساحة مدينتي، وشارعي الرئيسي، ووريدي الوداجي. وأنا أعني ما أقول حرفيا.

٦

وهكـذا نـرى أنه قد تمت المحافظة علـى الحياة هنا
ولكن
بثمن أغلى من قيمة الحياة نفسها، لأن
قوة الدفاع عنها والإبقاء عليها استُعِيرت
مـن الأجيـال اللاحقة، مما أوقـع تلك الأجيال في
الدين والعبودية. والشيء
الوحيـد الذي بقي يصارع كان مجرد غريزة الدفاع
عن الحياة،
في حين أن الحياة ذاتها فقدت الكثير ولم يبق
مـن مكنونهـا النفيـس أكثـر من اسـمها. مـا بقي
واستمر في الحياة أصبح
معاقا ومشوها وما
يجيء إلى العالم ويبقى حيا أصبح مُسمما في
أصله، سقيما. وبقيت أفكار الناس وكلماتهم
غير مكتملة، مقُطعة مثلما قُطعوا هم
من الجذور.

أيفو آندريتش

قلت لطلابي بألا يقلقوا على أي شـــيء: فسيحصل جميعهم علـــى درجات عاليـــة. قلت لهم إنني مدركـــة أن معظمهم التحق بالدراسات الصربية - الكرواتية لأسباب عملية، لذا لم تكن لدي

نية بتصعيب الأمر عليهم.

«أنا هنا أســتاذة زائرة لمدة فصلين دراســيين فقط. ليس من المنطق من طرفي أن ألعب دور الأســتاذ، وهذا يعفيكم أيضا من تمثيل الأدوار».

سأل أحدهم: «إذن، ماذا علينا أن نفعل؟».

أجبته: «لا شيء».

سألوا وهم يخفون ضحكاتهم: «لا شيء؟».

أجبتهم: «أوه! سننشغل أنفسنا بطريقة ما».

شعرت بعيونهم تحملق فيِّ. بدوا وقد أثير اهتمامهم بوضوح.

قالــت إحدى الفتيات: «علي أي حال، أنا لا أســتطيع حضور المحاضرات. لدي

طفل رضيع».

أجبتها: «لا مشكلة في ذلك».

ردت الفتاة: «شكرا»، وأخذت أغراضها وغادرت الغرفة.

ضحــك الآخرون ونظــروا باتجاهــي، وهم فــي حيرة عما سيحدث. لكن ميليها تولت الأمر.

«أول شــيء فعلوه عندما جئنــا إلى هنا هو وضعنا في مخيمات للاجئــين - تعرفين ما يفعله الهولنديون فــي مثل هذه الظروف - وخصصوا لنا أطباء نفسيين. شاءت الأقدار أن يكون طبيبنا النفسي مــن «أهلنا»، لاجئة مثلنــا. أتعلمين ماذا قالت لنــا؟ - هلا قدمتم لي جميعكم خدمة، أتفعلون؟ جدوا مســحة صغيرة من الجنون في أنفسكم. اخترعوا خبرة مؤلمة أو اثنتين إذا اقتضت الحاجة. لا أريد أن أفقد عملي هنا - فضحكنا جميعا. وتواصل العمل.

من الطبيعي أنني كنت مدركة لسخافة الموقف الذي وضعت فيه: إذ كان عليّ أن أدرّس موضوعا لم يعد له وجود من الناحية الرسمية. فما كان يسمى بتخصص الأدب اليوغسلافي في الجامعة في الماضي - والذي ضم الآداب السلوفينية، والكرواتية والبوسنية، والمقدونية، وأدب الجبل الأسود - اختفى مع اختفاء بلده الأم. هذا علاوة على، أن الطلبة الذين عُينت لأدرس لهم لم يكن لديهم أي اهتمام بالأدب: فقد انصب اهتمامهم على الحصول على وثائق الإقامة الهولندية. لقد وُظفت لتدريس أدب بلد (أو آداب عدة بلدان) هرب منها طلابي أو طردوا. لقد كان المنزل مدمرا، وكانت مهمتي أن أجد طريقا واضحا عبر الحطام.

قررت، أن تكون أداتي الرئيسية هي اللغة: «لغتنا» الصربو/كرواتية. لكن اللغة التي كان يجري الحديث بها في كرواتيا، وصربيا، والبوسنة، والجبل الأسود صارت الآن، مثلها مثل البلد التي كانت تُنطق فيها، أصبحت منقسمة إلى ثلاث لغات رسمية: الكرواتية، والصربية، والبوسنية. صحيح أن اللغتين الكرواتية والصربية كانتا تتمتعان ببعض الاستقلال الرسمي حتى في عهد الدولة اليوغسلافية، لكن هناك أمرا جديدا: وهو نشأة حواجز تفتيش لتأكيد الفروق بين هاتين اللغتين. لم أعر اهتماما كثيرا لهذه اللغات «الجديدة» ولم يعنني البتة تقسيمها بناء على بضع عشرات من الكلمات التي تميزها عن بعضها. ما كان يعنيني بشكل أكبر هو وجود جمود معين في تلك اللغة، جمود جعل طلابي لا يرغبون، ولا يستطيعون استخدامها: فلغتهم القومية

التي أحاط بها الشـك، قد سيطرت عليها إنجليزية ركيكة، وقد شرعوا أخيرا باستخدام ركيك للغة الهولندية.

أخبرتهم أنني أؤمن بشدة بأن الكرواتية، والصربية، والبوسنية هـي تنويعات على لغة واحـدة. و«أن اللغة هي لهجة يقف جيش خلفهـا. وهذه اللهجات الثلاث مدعمة بقوات شـبه عسـكرية. وأنتم لن تسـمحوا لمجرمين أنصاف متعلمين بإعطائكم مشـورة في المسائل اللغوية، أليس كذلك؟» لكنني أيضا كنت مدركة أنني أنتمـي إلى جيل كانت كتبه الدراسـية فـي الأدب في المرحلتين الابتدائية والثانوية مرقشـة ببعض نماذج من الأدب السلوفيني، والمقدوني، والصربي، والكرواتـي، مكتوبة وفق أصول الأبجدية الرومانية أو السـلافية القديمة، وأن حقيقـة وجود تلك الكتب الدراسية ستنسى عما قريب.

لكـن الأمور لم تكن إلـى هذا الحد من البسـاطة. فطلبتي يعرفون جيدا أنني لم أكن أتحدث مجازيا عندما ذكرت الجيش: فهـم كانوا يعرفون أن قوات عسـكرية وقفت خلف «لغاتنا»، وأن «لغاتنا» اسـتخدمت في السـب، والإذلال، والقتل، والاغتصاب والتهجيـر. كانت لغات قد دخلت الحرب طبقـا للاعتقاد بأنها متضاربـة، بل ربما لأنها على وجه الدقة، كان من المتعذر فصلها بعضها عن بعض.

لقد زخرت الصحف بالأعمدة اللغوية. صار القصاب، والخباز، وكل شـخص عالمـا لغويا في لحظة، وأتت الحـرب بـ «قواميس الاختلافـات» فالصرب، الذين كان قد تحول الجزء الأكبر منهم إلـى الأبجدية الرومانية، بدأوا يعودون إلى الأحرف السـلافية

القديمة، أما الكروات، المتلهفون لجعــل اللغة الكرواتية كرواتية بقدر الإمكان، فاســتخدموا بضعة تراكيب عسيرة مستعارة من اللغة الروسية، بل وبعض المفردات المعجمية الأكثر صعوبة، كانت متداولــة أثناء الحرب العالمية الثانية. لقد كان طلاقا بائنا مليئا بالضجيج والضراوة. في النهاية، كانت اللغة ســلاحا: فهي التي وصّمت، وخانت، وفرقت، وهـــي التي وحـدت. يأكـل الكـروات الـ «كروه»، ويأكل الصرب «هلب»، ويأكل البوسنيون «هليب»: فهي كلمة مختلفة في اللغات الثلاث وتعني الخبز، أما كلمة «سمرت» أي «الموت» فكانت واحدة عند الجميع.

وهذا لا يعني أن اللغة قبل ذلك الطلاق «والتي كانت تســمى باللغــة الصربــو كرواتيــة»، أو الكــرو - صربيــة، أو الكرواتية والصربيــة مثلت تركيبة لغوية أفضــل، أو أكثر قبولا، ثم دمرتها الحــرب. لا، فاللغة كانت تؤدي وظيفة سياســية؛ وكان الجيش يقف خلفها أيضا؛ وتم التلاعب بهــا، وتلويثها بكثافة بالخطاب الأيديولوجي اليوغســلافي. لكن التاريــخ الذي يقف وراء صهر التنويعات الثلاث في تركيبة واحدة استغرق عملية أطول، وذات معنــى أكثر من الطلاق الذي حدث بين عشــية وضحاها، تماما مثل تاريخ بناء الجسور والطرق الذي يستلزم عملية أطول وأكثر معنى من عملية هدمها فجأة.

أخبرنا بوبان بأحد أحلامه المتكررة. كان يبحث عن شارع في زغرب، لكنه تخوف من الســؤال عنه، لأن الناس ســيعرفون أنه من بلجراد.

سألته: «ماذا لو عرفوا ذلك؟».

«سـيعرفون أنني صربي. وربما قد يبصقون في وجهي أو يطردونني».

«وماذا أيضا؟».

«لم أتمكن من إيجاد الشارع الذي أبحث عنه».

«عمن كنت تبحث؟»

«عن صديقة لي. كان اسمها مايا».

ضحك أحدهم ضحكة مكتومة.

«أين كانت تسكن، حبيبة القلب؟».

«انعطف إلى اليمين من شارع «موشا بياد». إنه أحد تلك الشوارع هناك».

قلت: «إن لشارع موشا بياد اسما جديدا الآن».

«ما اسمه الآن؟»

«مدفشتشاك».

قال بجدية، وكأنه سيستخدم المعلومة هذه الليلة: «أوه! شكرا».

سألته: «هل من الممكن أن يكون شارع مايا هو شارع نوفاكوفا؟».

صاح قائلا وقد شع وجهه بالراحة: «نعم، إنه هو! نوفاكوفا!».

علق سليم: «يا رجل، شئ جيد أنك لم تحلم بالبوسنة. لو قبض عليك رجالنا، لكان جسمك نضح بالرصاص».

ساد الصمت في الغرفة. لقد زرع سليم لغما في القاعة.

«سليم، من الآن فصاعدا احتفظ بتعليقاتك لنفسك. لن أسمح بأن تتحول قاعة الدرس إلى ساحة قتال».

لم يستطع سليم أن يُوقف صربية بوبان، التي كانت صريحة: فكلما تحدث بوبان في قاعة الدرس، كان سليم يشيح بنظره، ويسحب أنفاسا بصوت عال ويسعل في يده. وعندما كان سليم يتكلم في قاعة الدرس، كان يكثف لغته البوسنية، وهو أمر كنت متأكدة منه، أكثر مما كان يفعل في الخارج.

كانت نيفينا مختلفة تماما. كان كلامها يتسم بنوع من الفصام اللغوي: فكانت تتلعثم وتستخدم كافة الأنواع الإقليمية واللهجات المحلية بطريقة غير مقيدة، وغير متجانسة؛ فقد تبدأ جملة مستخدمة اللهجة الصربية الجنوبية، ثم تنتقل إلى محاكاة الخطاب الزغربي، ثم تشرع في التشدق البوسني، وأخيرا بنزوة فجائية تستعمل النظام النغمي، وبذا كانت تبدو مثل طفل متوحد. أخبرتني فيما بعد أن والدها الصربي ووالدتها الكرواتية كانا على خلاف دائم، وأخيرا انفصلا قبيل اندلاع الحرب. كنا جميعا لدينا أعباؤنا العرقية. لقد انتقلت نيفينا للعيش مع جدتها في البوسنة، ومن هناك جاءت إلى أمستردام كلاجئة.

قالت لي، وكأن اللغة الهولندية حقيبة نوم: «أشعر بارتياح أكثر عندما أتحدث الهولندية».

كان يوروش يغمغم وكنا في كثير من الأحيان بالكاد نستطيع فهمه. تميز كلامه أيضا باستخدام عدد مفرط من صيغ التصغير. مثل الخدم في الروايات الروسية في القرن التاسع عشر، بدا أنه يستخدمها لاسترضاء الناس من حوله. كان الأمر وكأنه متخوف من أن يقوم محدثه بلكمه على أنفه، وأن تلك الصيغ اللطيفة ستحميه من ذلك. كان بقية الطلبة يهزأون من

استخدام يوروش لهذه الصيغ كسخريتهم من ميل الهولنديين إلى استخدامها. أصبح التحدث في الفصل الدراسي محنة بالنسبة إلى يوروش، ما دفعني إلى تركه وشأنه في معظم الأحيان.

كان إيجور طليق اللسان بالهولندية. كانت الهولندية تعني له الحرية؛ فلغته الأم قد أصبحت عبئا.

«عندما أتكلم «لغتنا»، أشعر وكأني ممثل في مسرحية قروية، إن كنت تعرفين ما أعنيه». وقد قال جملة - إن كنت تعرفين ما أعنيه بالإنجليزية الأمريكية، لقد كان دائما يُتبل «لغتنا» بالأمركة اللغوية: فذلك جعلها أكثر قبولا عنده.

جميع «لغاتنا» تحاول تأسيس نموذجها الأدبي الخاص بها، لكن اللغة أو اللهجة الوحيدة التي تبدو طبيعية هي تلك المهجنة أو غير الشرعية. عندما أستمع إلى «الدلماسيين» يتكلمون الكرواتية أقول لنفسي «آه، هذا رائع». لكن عندما أصغي إلى الموظفين يتكلمون الكرواتية، أرى التصنع، والامتيازات، والسلب. ثمة أمر غير طبيعي فيها جميعا «اللغات الكرواتية والصربية والبوسنية ... انظري، أنا موسيقي روك، ولدي أذن تميز ما تسمع جيدا. إنني أعي ما أقوله».

كانت نسخة «لغتنا» التي يتحدث عنها إيجور، هي الكرواتية الفصحى، التي صارت أضيق أفقا بعد رحيله من هناك. لم يمر يوم دون ذكر ما للغة في وسائل الإعلام. كان الضغط من أجل التغيير هائلا. تأقلم البعض مع اللغة الجديدة بمرونة مدهشة؛ بينما أجفل آخرون في رعب. والبعض رأى أن تلك هي الطريقة الوحيدة لتأكيد ولائهم؛ وآخرون رأوا في ذلك أسوأ كابوس

يمرون به. الجمود، والتفاهات المملة، واختزال الأحداث. صارت التفاهات لغة مشفرة: سلبت المتحدث شخصيته، ووضعت حوله درعا. على أي حال، كانت التفاهات لغة حول شيء لا يمكن التعبير عنه باللغة. لقد بدا أن هناك خيارين فقط: إما الصمت صدقا أو التحدث كذبا.

وجد الشباب ملاذا تلقائيا في اللهجات التي كانوا يحتقرونها في الماضي ويصفونها بـ «الفلاحية»، أو وجدوا ملجأ لهم في أسلوب حديثهم الخاص، على سبيل المثال، كحديث أقرانهم في اللعب أو المدرسة. تلك كانت ملاجئ مؤقتة للحماية من اللغة الرسمية التي أفرزتها الحرب، وانتشرت في كل مكان، ولوّثت كل شيء. كانت تلك الملاجئ أشبه باللغة السرية التي كنا نستخدمها عندما كنا أطفالا ليستعصي على الكبار فهم ما نقوله.

كانت اللغة جرحنا المشترك، وكان يمكن أن تأخذ أكثر الأشكال انحرافا. مازلت مسكونة بحادثة لامرأة بوسنية قيل إنها حفظت عن ظهر قلب قصة اغتصابها، وكانت تروي القصة كلما جاء ذكرها. وأصبح الاغتصاب كأحد تجليات الأعمال الحربية خبرا عالميا، وأضحت تلك المرأة الضحية الوحيدة التي استطاعت أن تقدم رواية مفصلة عن اغتصابها. وسرعان ما تهافت عليها الصحافيون الأجانب والمنظمات النسوية، التي دعتها إحداها للمجيء إلى أمريكا. وهناك سافرت من مدينة إلى أخرى مرددة قصة إذلالها، لدرجة أنها استطاعت أخيرا أن تحفظ عن ظهر قلب نسخة بالإنجليزية لتلك القصة. استمرت في سرد قصتها دون انقطاع «تلك القصة تختلف الآن عن مضمونها الأصلي بشكل

كبير» في مشــهد يشــبه ما يقوم به النائحون الذين يستأجرهم الفلاحون للنواح على موتاهم في الجنائز. ســرد الحكاية المؤلمة كان طريقة تلك المرأة لتخفيف ألمها.

كثيرا ما سألت نفسي إن كانت لغتي الكرواتية قد بدأت تبدو جامدة ومملة. كنت أشــعر في بعض الأحيــان بأنني مثل طالبة تتعلم الكرواتية كلغة أجنبية. قد أجد نفســي أقول شيئا بطريقة جامدة جدا، وباردة جدا، كأن فمي كان ممتلئا بالثلج.

قــال بوبان ذات يوم: «هل تتذكرون محاربي الســاموراي في الأفلام اليابانية التي اعتدنا أن نشــاهدها؟ محاربو الساموراي لا يتكلمون؛ بل فقط يقطبون وجوههم ويديرون أعينهم. دائما ما كنت أخشى أن ينفجروا بسبب الكلمات التي لم يستطيعوا النطق بهــا. في الحقيقة نحن مثلهم، نحن ســاموراي. نحن نتحول إلى اللون الأحمر، وتجحظ عيوننا، وتنتفخ العروق في أجسادنا دانية من الانفجار، ولا ننطق بكلمة. لذا يُشهر السيف».

صفق الطلبة له بحرارة.

قــال إيجور: «مدهــش حقا، مدهش حقا! لــم أعرف أن كل هــذا موجود في داخلك! أســلم بأنك تتفوق على ميلوســوفتش فصاحة!».

صاحت ميليها: «أنت محق! وأنا ساموراي من سراييفو».

كنت دائما أعول على ميليها. نحن لا نكتفي أبدا من قصصها عن ســراييفو «قصص الخــوف، والظلمــة، والإذلال، والجنون، والكراهيــة، والأحياء والأموات... كانت ميليها ســيدة الســرد التفصيلي، حتى عند وصفها للظــلام الدامس في الملاجئ بعد

صفارة الإنذار، وفي كل القصص التي روتها. منها قصة المرأة التي جُنت عندما قتلت قنبلة يدوية طفلها، وراحت تضرب خديها لساعات في الواجهة الجص لمنزلها حتى تحول وجهها إلى جُرح دام؛ وعن قصة حياتها قبل الحرب، وعن مخيم اللاجئين الذي دخَلته لأول مرة، والرجل الهولندي الطيب المسن الذي كان يدفع لها مقابل التمتع برفقتها، وقصة أمها التي كانت تتعلم الهولندية برعايتها لطفل إحدى الجارات البالغ من العمر ثلاث سنوات، على أمل أن يساعد كلامها كالطفل في تسهيل طريقها للولوج إلى عالم يخلو من الألم، ويمحو الماضي القريب الذي كانت تتوق إلى نسيانه.

كنا نتحرق شوقا لكل كلمة تقولها. لا أحد غيرها كان على استعداد للبوح بطريقتها. البعض لم يزل خائفا جدا، وآخرون خجلون جدا؛ والبعض وضعه حرج لشعوره بالذنب لأنه لم يمر بتجربة الحرب، بينما آخرون أعاقهم مجرد التفكير في الرعب الناتج عن تلك الحرب.

في النهاية، كانت صيحة استعادة الوطن من خلال «الجوهر الوطني» للغة، صار كذبة كبيرة، وحقيقة مؤكدة في الوقت نفسه؛ أخيرا، كان طلابي لديهم تناغم أيسر في الحديث بلغة ليست لغتهم «بالإنجليزية والهولندية» رغم أن سيطرتهم على اللغتين تركت الكثير دون تفسير. إن اللغة الأم «لغة العشيرة»، لغة الشاعر الكرواتي التي في شعر الوجد، «لغة» ذات حفيف، ترن، وترجع الصدى، وتقعقع، وترعد، وتزأر، وتدوي فجأة ظهرت لهم في ضوء جديد تماما. من هنا، كان الجوهر - أشبه ما يكون

بأنيميا لغوية، تقلص لا إرادي في الوجه، تلعثم، عذاب، تجديف، أو مجرد ترويج لعبارات لغوية.

صاحت ميليها ذات يوم: «أيهــا الأصحاب! لتذهب اللغة إلى الجحيم! لنتحدث مع بعضنا، ليس إلا!».

وفجأة بدأت الحياة تدب فيهم من جديد.

٧

كنت أشعر بالغربة في القسم. حاولت مرات عدة أن أرتب موعدا مع سيز درايسما، رئيس القسم، و«مضيفي»، الذي كان يرد دائما: «نعم، بالتأكيد. المشكلة فقط أنني مشغول جدا في الوقت الحالي. إن كانت هناك مسائل عملية تحتاج إلى حل، فستقوم دنيا بمساعدتك. أنا متأكد من ذلك».

كانت دنيا سكرتيرة القسم هولندية. كانت متزوجة من روسي. اسمها الحقيقي آنيكي. كانت تبدو كفقمة ضخمة كسول، محاطة بالنباتات المثقلة بالغبار، منعمة في حوضها المائي الذي يدعى مكتب، ومن حين لآخر، كانت تمن علي الزوار بنظرة جوفاء. لا يمكن لشيء أن يغيظها: فكانت ترد بتبرم علي أي سؤال أطرحه «بنعم» أو «لا»، أو بالتظاهر بعدم سماع السؤال.

قلت لدرايسما عدة مرات، عن طريق إرسال إشعار تذكرة: «نحتاج إلى أن نتحدث بشأن المقرر الدراسي الذي سأدرسه».

وكان يرد دائما، بنبرة مدرب كرة قدم: «السلافيون مدرسون بالفطرة».

لم أستطع أن أحدد ما إذا كان هذا التعليق على سبيل الهزل، أم أنه إطراء حقيقي.

«إنيس تبلغك تحياتها. حالما تنتهي من ترتيبات العودة إلى المدرسة، سندعوك إلى العشاء، موافقة؟».

كان درايسما يصدق على ما كنت أسمعه من إنيس في كل مرة كنت اتصل بها. («لا بد أن تأتي لزيارتنا. لكن ليس قبل أن يصفو

الجو. أنت لا تعرفين إلى أي حد الأطفال مزعجون. لا أستطيع حتى الذهاب إلى مصفف الشعر. والآن، فهمتِ الأمر. سأقول لك شيئا، يمكنك في تلك الأثناء القيام بزيارة جميع المتاحف، وبعد ذلك سنتقابل»).

كان الطابق الخامس، حيث يوجد القسم، يتكون من ممر طويل معتم فيه خمسة عشر بابا موصدا. من وقت لآخر، كنت أرى زميلا يندس إلى داخل غرفته من دون أن يكترث بوجودي. كانت أنيكي أيضا تغلق باب مكتب القسم، وغالبا ما كانت تضع لافتة: سأعود قريبا. وأخيرا توقفت عن محاولة رؤية درايسما. وكان الكائن الحي الوحيد الذي أراه بانتظام هو المحاضِرة الروسية المكتنزة. اعتادت أن تجلس إلى مكتبها خلف الباب الموارب وهي تحرك شفتيها، كأنها تأكل شطيرة غير مرئية، أو تقرأ شيئا لنفسها.

كانت تحييني بخجل إذا ما التقت عينانا: «مرحبا».

مرة واحدة فقط طرق زميل بابي.

سأل:«هل يمكنني الدخول؟».

قلت: «بالتأكيد».

«إذن، أنت زميلتنا الجديدة».

«يمكنك قول ذلك».

مدّ الرجل يده مصافحا.

«يسعدني التعرف بك. اسمي «ويم»، «ويم هويكس». أُدرِّس التشيكية، اللغة التشيكية وآدابها. أنا في آخر مكتب على اليسار».

استلطفته مباشرة.

«أتساءل: لماذا لم يعرفك - سيز- على أي منا».

«أوه! ربما لأنني هنا فقط لفصلين دراسيين».

«وما الضير في ذلك؟! هذا ما كان ينبغي أن يحدث».

«أفترض أن هذا هو العرف الأكاديمي هنا».

«نحن الهولنديين هكذا، نتأنى. تمر عدة سنوات قبل أن ندعو شخصا إلى منازلنا. الخصوصية عذر رائع لكثير من الأمور، بما في ذلك هذه الحالة من عدم الحصافة المتعذر اغتفارها. الأمر ليس أننا غير راغبين: بل هو مجرد رغبة في عدم التطفل».

«حقا؟».

رد قائلا: «أهلا بك في أكثر دول العالم نفاقا على هذه الأرض! الآن أخبريني كيف تسير أمورك هنا».

«على ما يرام».

«و ماذا تُدرِّسين؟».

«حاليا أتعرف على طلبتي فقط».

قال: «إن روسلاف كرليتزا كاتب عظيم».

«والكتَّاب التشيك لم يكونوا أقل مرتبة».

«ماذا عن الطقس؟ دائما ما يشكو الأجانب من الطقس هنا».

«ليس بمناخ البحر الكاريبي، ولكن...».

«ألا تشعرين بالملل؟».

«لماذا... تسأل؟».

«لأنها تأتي في مقدمة الدول المملة على هذه الأرض!».

«أليس في ذلك بعض التناقض؟».

«ماذا تعنين؟».

«كيف لبلد أن يكون منافقا، ومملا في آنٍ؟».

«هولندا فقط تتميز بهذه الصفة».

«وأنا التي كنت أظن أن الأوروبيين الشرقيين أسياد الانتقاص من الذات».

«كلا، هذه واحدة من صفاتنا الأخرى. فقط لا تدعينا نخدعك. نحن لا نقصد ذلك. نحن في الحقيقة نقدر أنفسنا تقديرا عاليا جدا. إنها الغطرسة الاستعمارية. لقد تركنا المستعمرات، لكننا احتفظنا بالغطرسة. سوف ترين ذلك ...».

نظر إلى ساعته واعتدل واقفا، ثم قال: «حسنا. تعالي لرؤيتي في أي وقت تشائين. يمكننا الذهاب لتناول القهوة في مكان ما. مكتبي الأخير على اليسار، وهو الأصغر في هذا الطابق. مكتبك يفوقه حجما بكثير، فأنت من يوغسلافيا السابقة، وهذا يجعلك في مرتبة أعلى منا نحن الهولنديين».

«من أي جانب؟».

«أنتم لديكم مسألة القومية، والحرب، وحقبة ما بعد الشيوعية. ونحن غارقون في كل ذلك في لاهاي».

«لسوء الحظ!».

«لقد كانت بلدا في غاية الجمال! دوبروفنك هي أجمل مدينة رأيتها في حياتي. لا أفهم أبدا كيف حدث ذلك؟».

«أنت لا تعتقد أنني أعرف السبب».

«بالطبع لا ... لكن عندما تغرز سكينا في بطن أحدهما، فإنك تثير ضجة يعرف بها العالم أجمع. نحن نفعل ذلك في الخفاء. لا نريد للناس أن يعرفوا، بل إن ضحايانا ممتنون لذلك... على

كل حال سنتكلم في مناسبة أخرى. لقد سعدت بلقائك».

همَّ بالخروج، ثم استدار عند الباب.

«لا يمكن أبدا للأجانب أن يلفظوا اسم تلك الجزيرة المحاذية للشاطئ - الدلماسي -...».

«كرك».

«حسنا. هل الاسم يعني - عنق -؟».

«عنق؟ لا. تلك كلمة مختلفة. لماذا تسأل؟».

«لأن ذلك ما تعنيه في اللغة التشيكية. يحب التشيك أن يعذبوا الأجانب باستخدام تلك الكلمة في عباراتهم».

«كيف ذلك؟».

ضحك قائلا، وهو يمثل تلك الحركة على نفسه: «أدخل إصبعك في...». ثم استدار من جديد، ومضى يخطو عبر الممر.

كان الطابق الخامس خاويا تماما باستمرار حتى أنني تخليت عن شعور الشخص المُهرّب.، وتخليت أيضا عن طرح الأسئلة على السكرتيرة، والطرق على باب «درايسما». لكنني، مع ذلك، زرت «ويم» في مكتبه ثلاث مرات زيارة خاطفة. كان مكتبه أصغر بكثير من مكتبي. وكان في كل مرة أزوره يخبرني بأنه مشغول جدا، وفي كل مرة كان يدس في يدي مقالا كتبه خارج من الطابعة ساخنا - على سبيل الترضية، على ما أظن. تعلق المقال الأول بكتاب كارل تشابيك «رسائل من هولندا»، والثاني «كراهية النساء» في روايات كونديرا، والثالث «المتعة اللغوية» في الأعمال النثرية لبهومل هاربل.

لم نذهب قط لتناول القهوة معا. بقي تواصلي -الحي -الوحيد في القسم محصورا بتلك المحاضِرة الروسية الممتلئة، التي تحمل في يدها شطيرة غير مرئية. فكلما مررت من أمام مكتبها، كانت تبتلع تلك اللقمة الخفية، وتتلفظ بتحيتها الخجولة.

إذا أخذنا كل الأمور بعين الاعتبار، فقد ترك القسم انطباعا كئيبا عليِّ، ذلك الانطباع كان يتصاعد، فقط، بسبب الشكوك النمطية التي تساور السلاف المحليين عن السلاف في أوروبا الغربية. كان السلاف الأوروبيون الغربيون قد تعودوا على الدخول في هذا التخصص لأسباب عاطفية: إما لأنهم وقعوا في حب أحد النماذج غير المألوفة في دول أوروبا الشرقية. وإما لأنهم يدعمون اختيارهم لهذا التخصص بمقتضى واقعة سياسية ثقافية، مهنية، عاطفية. هناك سبب آخر: أن هذا التخصص جعلهم سادة على قُصَّر، خارجين عن المسار، إقطاعية الأدب واللغة التي لم يغامر فيها أحد من قبل، مما جعل احتمالية تقييم كفاءتهم بشكل ملائم إحصائيا ضئيلة. مع ذلك، يفترض أن أكون آخر من يحق له أن يحكم عليهم، إذ كنت مدينة بوظيفتي لمعرفتي بإنيس، التي كانت متزوجة من درايسما، الذي شاءت الأقدار أن يكون رئيسا للقسم.

٨

آنا: الحقيبة البلاستيكية ذات الخطوط الحمر والبِيض والزرق

كانت مجرد حقيبة بلاستيكية لأغراض متنوعة. أما ما جعلها استثنائية فهو أنها احتوت على خطوط حمر، وبيض، وزرق. كانت أرخص قطعة متاع يدوي في الدنيا، وتشكل صفعة عمالية لمنتجات فويتون الشهيرة. كان لها سحّاب يفتحها ويغلقها، لكنه دائما ما كان ينكسر بعد بضعة أيام. عندما كنت طفلة، اعتدت أن أفكر مليا في كيفية وضع الكرز وأشياء أخرى داخل حبات الشوكولاتة من دون أن يكون فيها ثقب أو شق. والآن أفكر مليا في سؤال طفولي آخر: مَنْ صمَّم الحقيبة البلاستيكية ذات الخطوط الحمر، والبيض، والزرق، وقدمها إلى العالم في ملايين النسخ؟

بدت الحقيبة بخطوطها الحمر، والبيض، والزرق محاكاة ساخرة للعلم اليوغسلافي (لنكن صادقين! أحمر - أبيض - أزرق!)، من دون النجمة الحمراء. كانت أول مرة رأيت فيها واحدة من تلك الحقائب، أظن، كانت في إحدى الأسواق الشعبية. كان البولنديون يأتون بكريماتهم الرخيصة ماركة نيفيا، ومناشف الكتان لتجفيف الأواني وخيم الرحلات، والمراتب التي تُعبأ بالهواء، وما شابه ذلك. أنا متأكدة من أنني لو سألت البولنديين، لقالوا إنهم حصلوا عليها من التشيك، ولرد التشيك بلا، نحن لا نصنعها، لقد حصلنا عليها من المجريين؛ ونفى المجريون

ذلك قائلين: إنهم حصلوا عليها مــن الرومانيين، الذين بدورهم سينسبونها إلى الغجر.

على أي حال، لقد وجدت الحقائب البلاســتيكية بخطوطها الحمر، والبيض والزرق، طريقها عبر وسط أوروبا الشرقية لتصل إلى روســيا، وربما أبعد من ذلك إلى الهنــد، والصين وأمريكا، والعالم أجمع. لقد كانت حقيبة الفقراء، وصغار اللصوص، وتجار الســوق الســوداء، والبائعين على العربات الصغيرة في عطلات نهاية الأســبوع في الأســواق الشــعبية، واللاجئين والمشــردين. آه تذكرت، كانت بناطيل الجينز و«التيشــرتات»، والقهوة تسافر في تلك الحقائب من تريســتا إلى كرواتيا، والبوســنة وصربيا، ورومانيــا، وبلغاريــا... وأيضــا الجاكتات الجلديــة، والحقائب اليدوية، والقفازات تأتي من اسطنبول، وما تبقى من أشياء كانت تأتي من الســوق الصينية في بودابســت، مغادرة إلى مقدونيا، وألبانيا، والبوســنة، وصربيــا وغيرها من المناطــق. كانت تلك الحقائــب بخطوطها الحمر، والبيض، والــزرق تتنقل من مكان إلى آخر كالبدو الرحل، واللاجئين، والمشردين، لكنها كانت أيضا من الناجين، فكانت تســافر في القطارات من دون تذاكر، وتعبر الحدود من دون جوازات سفر.

عندمــا صادفت واحــدة من تلك الحقائب فــي أحد المتاجر التركية هنا في أمستردام، اشتريتها على الفور بجيلدرين. وفيما بعد، طويتها إلى نصفين ووضعتها لوقت الحاجة إليها مستقبلا، كمــا كانت تفعل أمي بالحقائب البلاســتيكية البيض العادية: - لأنــك لا تعرفــين متى ســتكونين بحــاجــة إليـها. كنت مدركة

أنني بشـــرائي إحدى تلك الحقائب قد أديت طقس عبور ذاتي: بانضمامي إلى أكبر عشـــيرة علي الأرض، مجموعة شـــكلت لها تلك الحقيبة البلاســـتيكية بخطوطها الحمـــر، والبيض، والزرق ألوانـــا، ورمـــزا، ودرعا من أذرع مطوية في آن. الشـــيء الوحيد الذي لم أجد له إجابة: من الذي نزع النجمة الحمراء؟.

كانت لعبتنا منبثقة من حقيبة آنا الرمزية.

قالت ميليها: «أول ما ينبغي عمله هو ما اعتاد - أهلنا - على فعله. ينبغي ربطها بإحكام حتى لا يسقط منها شيء». كنت لتظن أنها تصف طقسا ممتعا.

قال داركو: «أعترف بأنني كنت أشـــعر بالخجل من أهلنا كلما رأيتهـــم يأخـــذون متاعهم المتواضع من على ســـير الحقائب في المطارات».

قـــال إيجـــور: «كان ذلك يزعجني أيضا. كنت أقول لنفســـي: انظر إلى هؤلاء الريفيين الســـذج الذين عليَّ أن أســـافر معهم - لكن أعتقد الآن أن ذلك رائعا».

سألته: «كيف ذلك؟».

«هل تعرفين من يمتلك أغلى متاع في العالم؟».

«مادونا؟».

«كلا. إنهـــم الروس. والبغايـــا ذوات المرتبـــة العالية، ورؤوس المافيـــات. وذلـــك ما أعادنـــي إلى المظهـــر الغجـــري: الحقيبة البلاستيكية التي رُبِطت كحذاء أحد المتشردين، كسن من ذهب... آنـــا، كم كنتِ محقة فيمـــا يتعلق بالنجمة المفقـــودة. نحن جميعا طبقة عاملة! الشيء الوحيد هو أن بابا ماركس يقبع في قبره».

صاحــت ميليها: «عندك حق! وهو يتقلــب في قبره في هذه اللحظة بالذات».

لقد اقترحت على خجل أن يكون مشــروعا دراسيا - أو لعبة، فــي الحقيقة: كانت دليلا على الحياة اليومية في يوغســلافيا. جاءت أول مســاهمة من آنا. قدمــت موضوعها حول -الحقيبة الغجريــة - في المحاضرة التالية. وبعد ذلك اقترحت أن نحتفظ بــكل محتويات تلك الحقيبة الغجريــة الافتراضية في متحف - حنيننا إلى يوغسلافيا.

«أي متحف؟».

«أوه! سيــكون متحــفا افتراضيا أيضــا. كل شيء تتــذكرونه وتعــتبــرونــه مهـما. البلــد ذهـب أدراج الريــاح. لِم لا ننقـذ ما لا تريدون نسيانه؟».

قال بوبان: «أتذكر المسيرات التي كانوا يقيمونها بمناسبة عيد ميلاد الرئيس «تيتو». كنا نشاهدها على التلفاز كل عام».

قالت ميليها: «كلنا نتذكر ذلك يا صديقي. تحدث عن شــيء أكثر خصوصية».

قــال ماريو: «أول دراجة هوائية ملكتها. كانت واحدة من تلك الدراجــات المنخفضة التي كنا نســميها - بالمهر- هل يعد ذلك شيئا خصوصيا؟».

«بالتأكيد!» .

قالــت ميليها بمزاح: «أنت مثلــك مثل كل الرجال، لا تفكرون سوي في رجولتكم. ماذا عن الطعام؟ والفطائر، والبقلاوة؟».

«الفطائر، والبقلاوة، والمكرونة».

ابتهجوا جميعا بمجرد تذكر أغنية «بالشفتش».

قالت نيفينا: «إذا كانت المكرونة تؤدي الغرض، فكل شيء مقبول».

قلت: «أي شيء يشعرك بالسعادة».

سأل سليم خافضا عينيه: «أو بالحزن؟».

أجبته: «أو بالحزن. لم لا؟».

«ماذا عن معتقل أومارسكا؟».

خيم السكون على المكان فجأة. وأنا تجمدت في مكاني.

«هل تريد التحدث عن ذلك يا سليم؟».

«ماذا يوجد به للحديث عنه؟ إنه المتحف الافتراضي الوحيد الذي أملكه. لقد نحر الصرب والدي هناك».

لقد ألقى سليم بلغم آخر من ألغامه. لا يمكنني القول إنني لم أتوقع ذلك: فأنا كنت أحاول شق طريقي في حقل من الألغام منذ البداية. جميعنا لدينا ذكريات عن الحرب، وخسائر مثل خسائر سليم لا حد لها. لقد مر سليم وميليها بتجربة الحرب بكل ويلاتها من قرب. أحجم يوروش ونيفينا عن الحديث حول الحرب على الرغم من أنهما من البوسنة أيضا. لقد غادر بوبان، وماريو، وإيجور البلاد لتجنب التعبئة، وبدا بذلك أنهم لم يصابوا بعدوى الجنون القومي - القومية الصربية بالنسبة إلى بوبان، والتنوع في كرواتيا بالنسبة إلى ماريو، وإيجور. أما جوهانكي، فقد تابعت الأحداث من هولندا. آنا، التي وصلت إلى أمستردام مع زوجها الهولندي قبل الحرب، تابعت الأحداث من خلال وسائل الإعلام الكرواتية، والصربية، والهولندية، لكنها قامت

بزيـــارات دورية ليس فقط إلى بلجـــراد، ولكن أيضا إلى زغرب، حيـــث كان لها أقارب مقربون. كانت تجربتي مع الحرب لا تذكر مقارنة بتجربتهم.

أدركت أنه لا بد من إيجاد أرضية مشـــتركة، لأنهم لم يختلفوا فقط في تجاربهم عن الحرب، بل وأيضا في اهتماماتهم. فبينما كانت ميليها تحمل شـــهادة في الأدب اليوغسلافي من سراييفو، كان يـــوروش قـــد حصل على تعليـــم حتى المرحلـــة الثانوية في البوسنة، وقد دخل الجامعة للتو. كان ماريو يدرس علم الاجتماع في جامعة زغرب. وكانت آنا قد قُبلت بقسم اللغة الإنجليزية في جامعة بلجراد، لكنها انســـحبت مباشرة. كانت نيفينا قد درست علـــم الاقتصاد لمدة عامـــين، أما آنتي فكان قـــد تخرج في كلية تدريب المعلمين في أوســـيك. كان بوبان قد نجح في عامه الثاني في كلية الحقوق. وكان داركو يحمل شهادة في إدارة الفنادق من أوباتيا. كان ســـليم قد التحق للتو بقســـم الرياضيات في جامعة ســـراييفو عندما اندلعت الحرب. أما بالنسبة إلى إيجور، فكان يتنقـــل من تخصص إلى آخر: فقـــد أخبرني مرة بأنه درس علم النفـــس لفترة معينة، لكنه أخبرنـــي لاحقا أنه أمضى عامين في أكاديمية زغرب للفنون المســـرحية والســـينما في البرنامج الذي يعنى بالإخراج المســـرحي. لم أضغط عليـه قط لمعـرفة ماضيه، إذ لم يعد ذلك يحمل أي أهمية.

أما فيما يتعلق بالأرضية المشـــتركة، فقد كنت أشعر بتمزقهم الداخلي، وغضبهم ورفضهم المكبوت. لقد انتُهكنا جميعا بطريقة أو بأخرى. فقائمة الأشـــياء التي حرمنا منـها طـويلة ومرعـبة؛

إذ حُرمنا من الوطن الذي ولدنا فيه، ومن حقنا في الحياة العادية؛ وحرمنا من لغتنا، وعانينا من الإذلال، والخوف والعجز؛ لقد تعلمنا معنى أن نصبح مجرد أرقام أو فصيلة دم، أو شرزمة. البعض - مثل سليم - فقد الأصدقاء المقربين والأقارب. كان فقدهم أصعب أمر يمكن تحمله. والآن كنا نحن من نحاول بشتى الطرق أن نتماثل للشفاء.

في خضم هذا الجنون كنت أبحث عن مساحة تخصنا جميعا على السواء، وتؤلمنا أقل ما يمكن من ألم. في اعتقادي، أن تلك المساحة، قد تكون ماضينا المشترك. لأن هناك شيئا آخر حرمنا منه، وهو حقنا في التذكر. اختفاء الوطن يولِّد الشعور بوجوب محو الحياة التي عشناها. فلم يكتف السياسيون الذين جاءوا للحكم بالتمتع بالسلطة فقط؛ بل أرادوا أن يكون مواطنو دولهم مثل الموتى الذين أُعيدوا إلى الحياة لكن مسلوبي الإرادة والقدرة على الكلام، أناسا بلا ذاكرة. لقد شهَّروا بماضيهم اليوغسلافي، وشجعوا الناس على التخلي عن حياتهم السابقة ونسيانها. كنا من المفترض أن ننسى كل شيء، بما في ذلك الأدب، والأفلام، والموسيقى، والنكات، والتلفاز، والصحف، والسلع الاستهلاكية، واللغات، والناس. الكثير من ذلك انتهى في النفاية على شكل مخزون من الأفلام والصور، والكتب، والكتيبات، والوثائق، والنصب التذكارية... أصبح الحنين إلى يوغسلافيا، وتذكر الحياة في ذلك الوطن السابق، أصبح له اسمٌ آخر هو التخريب.

إن انهيار الوطن، والحرب، وكبت الذاكرة، ومتلازمة الطرف المقطوع، والفصام العام، وبعد ذلك المنفى، إن هذه الأشياء

كلهــا - وأنا متأكــدة من ذلك - كانت الأســباب التي تقف وراء مشــاكل طلبتي العاطفية واللغوية. كنا جميعا في حالة تشوش. لــم يكن أحد منا يعرف من نحن، فضــلا عن مَنْ وماذا نريد أن نكون؟ في الوطن كان طلابي يســتاءون من الديناصورات، الذين يحنون إلى يوغسلافيا، وهم لم يشعروا إلا بالقليل من الألفة مع الدولة الجديدة سابقة التعليب المتراجعة عن المستقبل. وهنا، في هولندا، وُصموا بتجار اللجوء السياســي، واللاجئين، والأجانب، وأحفاد ما بعد الشيوعية وسقط البلقنة، والمتوحشين. كان الوطن الذي جئنا منه هو ألمنا المشترك.

أدركت أنني أحاول المشــي على حبل مشدود: فإثارة الذاكرة تعــد لحدا كبيرا وتلاعبا بالماضي مثلها مثل إلغائها. الســلطات الموجودة في بلدنا الســابق كانت قــد ضغطت على زر الحذف، وأنا كنت زر الاســتعادة؛ فقد كانوا يمحون الماضي اليوغسلافي، موجهين اللوم إلى يوغســلافيا على جميــع المحن، بما في ذلك الحــرب، بينمــا كنت أنا أقــوم بإحياء ذلك الماضي على شــكل التفاصيــل اليوميــة التي شــكلت حياتنا، مُوظِفة - إذا شــئت القول - طريقة الخدمة التطوعية للبحث عن الأشــياء المفقودة. وبالرغــم من أنهم كانــوا يتلاعبون بملايين من البشــر، وأنا لم يكن لدي إلا القلة، فكلانا كان يشــوه الواقع. كنت أتساءل: ما إن كنت باســتدعائي الصور الحميمة لماضينا المشترك فإنني أعزل الصــور الدموية للحرب، أم أنني كنــت بتذكيرهم بطعم الحلوى اليوغســلافية لن أمحو صورة الصبي فــي بلجراد، الذي طعنه أشــخاص من معاصريه حتى الموت، لمجرد أنــه ألباني؛ أم أنني

بحثّهم على التفكير في الأبطال اليوغسلاف في قصص الكرتون المصورة مثل «مسكو» و«سلافكو» سوف أؤجل مواجهتهم لحلقات السادية التي لا تحصى التي اقترفها المحاربون اليوغسلاف، المخمورون والمهوسون بالسلطة الآنية، ضد منافسيهم؛ أو إذا استدعيت اللازمة الشهيرة - هذا ما يحصل، يا سيدتي الجميلة، عندما تعرفين القبلة البوسنية -، سوف أجمد التأثير الذي تركته حالات قتل لا تحصى في البوسنة، كمقتل والد سليم، مثلا؟ كنت أدفعهم إلى ولوج خلفية تضم قوائم مبهجة لترهات الحياة اليومية التي لم يعد لها وجود أصلا.

من جهة أخري، كان كل شيء متشابكا، بحيث لم يكن ممكنا أن تتناول شيئا واحدا دون الأخر. الموت متلازم مع حلوى «الكيكيز». الناس قتلوا، وكانوا يقتلون، ونهبوا وكانوا يُنهبون، واغتصبوا وكانوا يُغتصبون تحت شعارات مُبسطة حقيرة. كان الجنود يُضربون بالرصاص وهم ينهبون التلفزيونات الملونة، الغنائم الحديثة، وهم يجرونها إلى خنادقهم. لقد مضى الموت يدا بيد مع حطام الحياة اليومية. فتفصيل مثل حلوى «الكيكيز» قد يعيد إلى الذهن تنويعات لا حصر لها، فلنقل، مثلا، صورة فتاة تم قنصها والدم يقطر من شفتيها اللتين لم يبرحهما طعم الحلوى بعد. لقد كان الشر عاديا كصناعة يومية للإنسان ولم يعد حالة خاصة.

لم أعرف كيف يمكننا أن نتعامل مع ماضينا إن لم نتصالح معه أولا؟ لذلك اخترت شيئا يشكل قاسما مشتركا يشعرنا جميعا بالقرب منه، ألا وهو المسار اليومي للحياة التي عشناها في يوغسلافيا.

بدأت حقيبتنا بخطوطها الحمر، والبيض، والزرق تمتلئ تدريجيا. كان هناك شيء من كل شيء: شيء من العالم الغابر للمدارس الابتدائية والثانوية اليوغسلافية، وشيء من صور ثقافة «البوب» اليوغسلافية، وكل العادات المتصلة بالسلع اليوغسلافية - من طعام وشراب وملابس ونحوها - والتصميمات الفنية اليوغسلافية، والشعارات الأيديولوجية، والمشاهير، والرياضيين، والأحداث، والأساطير والخرافات الاشتراكية اليوغوسلافية، والمسلسلات التلفزيونية، وقصص الكرتون المصورة، والصحف، والأفلام.

أخرج بوبان كنزا دفينا من الأفلام اليوغسلافية مسجلة على شرائط فيديو، وبذا أصبح لدينا ما نشاهده لوقت طويل. كانت تلك الأفلام أكثر الأدلة القابلة للدوام على وجود حياة يوغسلافية. وبقراءة تلك الحياة بأثر رجعي، اكتشفنا تفصيلة بعد أخرى، أن استشعار المستقبل المسبق، والدلالات المنذرة قد أصبحا واقعا فعليا.

سرعان ما وضعت جانبا ما ساورني من قلق، فميراثنا وروحنا، وإعادة إحياء ماضينا الأفضل، قد قرّبتنا من بعضنا كثيرا، لدرجة أننا بدأنا نجد صعوبة متزايدة في الافتراق. لذا، استرجعنا عادة أخرى من الماضي، هي النزول إلى أحد المقاهي بعد الدراسة لإكمال دردشتنا، وكنا نفترق فقط عندما يحين موعد آخر ترام، أو حافلة، أو قطار. بالنسبة إلى شخص غريب، لا بد من أننا بدونا كقبيلة تتكلم بكلمات سحرية مناجية آلهتها. لا بد أننا كنا في غشية من النشوة. حسنا، لقد كنا كذلك بطريقة ما.

أما الطالب الذي واجهت صعوبة كبيرة في التعامل معه فكان إيجور. لقد أدهشتني ذاكرته: فقد كانت لديه ذاكرة مفعمة لأشياء لا يمكن أن يكون قد مر بها شخصيا.

«لم تكن قد ولدت بعد!».

«لكني أملك جينات يوغسلافية، يا رفيقة، وهم يتذكرون».

تلقى ركلة على لفظه عبارة «جينات يوغسلافية» التي اخترعها بالطريقة الهولندية، وذلك بتغييره بعض الأصوات. ضحكنا جميعا. استحسن طلبتي بشكل واضح أن تكون «جيناتنا اليوغسلافية» الدفينة والخارجة عن إرادتنا مسؤولة أكثر منا عن تذكر ماضينا.

غالبا ما كنت أرتطم بأحدهم في المدينة. كنا نسعد بلقاء مثل هذا، كأننا لم نلتق من عصور. كنا نتبادل العبارات الحلوة، ونربت على أكتاف بعضنا قبل أن نأوي إلى أحد المقاهي من أجل فنجان قهوة ودردشة حميمية لا ينتهيان.

كان الطالب إيجور أكثر من ألتقي به مصادفة أثناء رحلاتي. يظهر فجأة بطوله الفارع، حاملا حقيبة الظهر، وسمّاعات الأذن التي لا تفارقه تتدلى حول عنقه.

اعتدت أن أسأله: «ما الذي أتى بك إلى هنا؟»

فكان يرد: «ما الذي أتى بكِ أنتِ؟»

«ماذا تقترح؟».

«لنتبختر معا».

هكذا كانوا يتحدثون. كانت لغتهم العامية. كانت كلمة «نتبختر» بالنسبة إليهم تعني «نتجول».لقد استخدموا العديد

من الكلمات والعبارات الهولندية في حديثهم، وكان مزج سـليم للهولندية بالبوسنية أمرا هستيريا.

برغم أن طلبتي أعربوا بوضوح عن اسـتمتاعهم بمشـروعنا المشترك، فإنني لم أستطع التخلص تماما من صورة حقل الألغام. في أحد الأيام، وبينما كنت أتجول مع إيجور في الشوارع، حاولت أن أكتشف رأيه حول هذا الموضوع.

«أخبرني يا إيجور. ما رأيك بالفصل الدراسي؟».

«هل تعلمين بما قاله تيتو «لزوجته المستقبلية في لقائهما لأول مرة؟».

«لا، أخبرني».

«أصغي إلى أفكاري، يا جوفانكا».

- يداكِ مُذنبة أقل من يداي.

جبهتى تحترق هذه الليلة.

وترتجف رموشي.

سأرى حلما جميلا الليلة.

سيسلّمني الجمال إلى الموت!

هكذا امتزج بيت لشـاعرة كرواتية بمقطع لشاعر كرواتي في مخيّلة «إيجور».

قلت ضاحكة: «ما هذا الرعب؟».

وبدل أن يجيب قال سائلا: «أخبريني، هل لاحظت أن الملائكة لا يضحكون أبدا؟».

«لا أستطيع أن أجزم هنا، إذ لم أفكر بذلك مليا من قبل».

«ألم تحدّقي في عين ملاك قط؟».

«لا، لا أظن ذلك ... لا أتذكر شيئا من هذا القبيل...».

«لنر إذن. علينا إجراء مكالمة مهمة».

قضينا ما تبقى من فتـرة العصر في متحف «رايكس» ونحن ننظر إلى وجوه الملائكة التي رسمها أساتذة الفن القدماء.

«ألم أكن محقا؟ الملائكة لا يبتسمون، أليس كذلك؟».

«مثل الذين يتولون الشنق».

انفجـر كلانا في الضحـك، بالرغم مـن أن الموقف لم يكن مضحكا بالمرة. كان الضحك طريقة لمعالجة القلق الدفين.

خطـر ببالي أننا أنـاس يمرون بفترة نقاهـة، والناس الذين يتماثلون للشـفاء من مرض، أو صدمة من نوع ما، أو حادث، أو فيضان، أو تحطم سـفينة، هؤلاء الناس لا يضحكون أيضا. لقد كنا في طور النقاهة. مع ذلك، لم أنطق بشيء.

٩

محاطين بجدران لا تقــدم ولا تؤخر لمختبرنا الخيالي، رحنا نبعــث الحياة في حياة لم يعــد لها وجود. تناوبنــا على تدليك القلــب، وتأدية التنفس الاصطناعــي. وبالرغم من عدم الإتقان وقلــة الخبرة، فقد نجحنا فــي إعادة النبض إلــى تلك الحقبة الغابرة.

عــاد معظمهم إلــى مرحلة الطفولة، إذ إنها المســاحة الأكثر أمانــا، والأقل تهديدا. لم يكن مهما مــا إذا كانت التفاصيل من عندهــم، أم كانت مما جمعوه مــن آبائهم وأمهاتهم، أو كانت من نســج خيالهم، كما كان يفعــل إيجور غالبا. كانــت كل تفصيلة تتضمن جزءا من الحقيقة.

أما مجمل الصورة، فكانت عصية على التفسير: إذ كنا نتكلم لغة منقرضة لا يفهمها إلا نحن. كيف كان يمكننا أن نفسر الأمور لأي شــخص آخر، تلك الكلمات والمفاهيم، والصور، وبدقة أكبر المشاعر التي تستدعيها فينا الكلمات، والمفاهيم، والصور؟ كانت ســيمياء: وقد أكدت لهم أنه ســيكون هنــاك الذهب عند آخر النفــق، وأنا مدركة تماما أن اللمعان الســاطع لجزئية معينة في لحظة ما، قد يتلاشــى ويختفي فــي اللحظة التالية. مثل القلب الذي أنعشناه معا.

أحيانا كنت أتســاءل: ما إذا كان ما أقوم به لا يتعارض تماما مــع ما كنت أعتقد أنني أقوم به. على أي حال، فإن وصمة العار التي وصم بها الأيديولوجيــون ورثة البلد الجديد ذاكرةَ الماضي

الجمعية، قد أثمرت عكــس النتائج المرجوة: إذ إنها جعلت ذلك الماضي الجمعي أكثــر جاذبية. ربما بإثارتي ذكريات الماضي قد أســـتطيع أن أحطم تلك الهالة المقدسة. أو ربما محاولتي لإعادة تركيب الماضي قد تنتهي برســـم محـــاكاة باهتة ليس إلا، وبذلك نكشــف فقر «المتـــاع» الذي اعتبرناه قويا جــدا. ومع ذلك، كلما قلّبت هذه الأمور في رأســـي والقضايا الأخرى المتعلقة بها، فإن المتعة التي كانت تنتج عن لعبة الذاكرة كانت تطرح تلك الهواجس جانبا، مثلما كنت قد طرحت جانبا ذات يوم اكتشافا رمى بحمل الجبال على كاهلي، وهو أنني قد نســـيت أكثر بكثير مما نسوا، ولذلك لم أكن الأكثـــر تأهيلا للحديث عن الذاكرة. لكن كان قد فات الأوان: فقد أدرت العجلة، ولم يعد يمكنني إيقافهم.

نيفينا .. الأول من كل شهر

كان أبـــي يعمـــل في مصنع، وكانت أمي ربـــة بيت. كانت أهم عطلة عائلية لنا هي الأول من كل شـــهر. كان أبي يحضر الراتب الشهري إلى المنزل في «جيب الراتب» (ذلك ما كان يطلق عليه)، ويقدمـــه لأمي. كانت أمي تعتني بالنقـــود: المبلغ كذا وكذا للغاز، كذا وكذا للكهرباء، وكذا لأجرة البيت، وآخر لسداد ثمن الأشياء التي اشتريناها بالدين. بعد ذلك، نرتدي أفضل الملابس عندنا، وكأننا ذاهبون للعشاء في أحد المطاعم، ونخرج للتسوق.

كان أبي يســـتخدم الكلمة التركية للتسوق «باكالوك/البقالة»، وأمي تســـتخدم الكلمة الألمانية بصيغتها الكرواتية «فاســـنوج».

كانـــت أمي تقود حملة التســـوق، لأنهـــا دون غيرها كانت تعرف ما نحتاج إليه (كم من الســـكر، وكم مـــن الدقيق، وكم من الزيت والقهوة، وكم من المكرونة وشرائط المكرونة ستدوم لتكفينا حتى اليوم الأول من الشهر التالي)، وكنا جميعا نتقافز مرحا وراءها. كانت أمي تشتري دائما القهوة غير المحمصة، والتي كنا نحمصها بأنفسنا في قدر معدنية اســـطوانية ذات أبواب صغيرة ولها يد على الجانب. كنا نسكب حبات القهوة الرمادية عبر الأبواب، ثم نغلـــق تلك الأبواب ونضع القدر على موقد الغاز. ثم نقوم بتدوير اليد التي تقوم بدورها بتدوير القدر، والقهوة بداخله تدور مرات كثيرة ببطء وتتحمص على النـــار. كانت رائحة القهوة المحمصة الطازجـــة تفوح في الشـــقة بكاملها. كم أحببت تلـــك الرائحة. لقـــد كنا نحتاج إلى كميـــة كبيرة من البن، لأن الجارات كن يجئن لزيارة أمي وشـــرب القهوة كل يوم. لم نكن نشتري أشياء أخرى كثيرة. كانت أمي تصنع المربى، والأشـــياء المحفوظة. كانت تخلل الخيار، وتحـــول الفلفل الأحمر إلى بابريـــكا، وإيفار، ومثل هذه الأشـــياء. كانت جيدة أيضا فـــي عمل الخمرة المحلاة من الكرز، والشـــيكولاتة بالمكسرات، لذا لم نكن نشتري ذلك أيضا. حفظنا كل شـــيء في حجرة المؤن، وكانـــت أمي تلصق ورقة على الجرار تحمـــل اســـم المنتج وتاريخـــه. كان أكثر الأوقات إثـــارة لنا نحن الأطفـــال هو وقت تقديم الحلوى. كانت أمي تشـــتري بضع علب من البسكويت، و«شـــوكولاتة الطبخ» (ذلك ما كان يطلق عليها)، لأنها أرخص الأنواع. كان هناك نوع من البســـكويت على شـــكل خُف عليه خطوط من الشـــوكولاتة، يدعى «بسكويت ربة البيت»،

الذي كان الأفضل للغمس في الحليب. وكانت أمي دائما تشتري لكل منا قطعة دائرية من البسكويت المغموسة بالشوكولاتة، إذ كنا نعتقد نحن الأطفال دائما أن الحلوى التي تباع في السوق أفضل مذاقا من تلك التي تصنع في المنزل.

كانت أمي تشتري أيضا كعك الأصابع، والبسكويت المالح، ليس لنا، بل لضيوفها. وكلما زارنا أحد كانت تقدم كعك الأصابع، والبسكويت المالح في كوبين مختلفين. كان الضيوف يجلسون على الأريكة. كانت أمي تقول، وهي تضع الفناجين على طاولة القهوة الطويلة المنخفضة: «تفضلوا بعض البسكويت المالح»، فكان الضيوف يأخذون الأصابع ويمضغونها بصوت مسموع. كانوا يبدون مثل الأرانب. بعد ذلك، كانت أمي تخرج طبقين أو ثلاثة من الأطباق المسطحة، التي كان أبي يسميها الأطباق اليابانية، مملوءة بحلقات من شرائح المخلل، والنقانق والفلفل، والجبن. كانت تغرس في كل شريحة عود تنظيف الأسنان يبرز منها، وفي الوسط كانت تضع كومة من صلصة «آفار». كان الضيوف دائما ما يعبرون عن إعجابهم بتلك الأطباق، لكنهم كانوا يثيرون أعصاب أبي.

فقد يقول بغضب: «يوما ما سيختنق أحدهم بأحد عيدان تنظيف الأسنان التي تضعينها».

وكانت ترد عليه: «أنت لا تفهم كنه ذلك».

أعتقد أن كلمة «كنه» كانت الأكثر شعبية في ذلك الوقت. كانت أمي تعرف كنه الأثاث، والإنارة، وتصفيف الشعر، والستائر، والحذاء، وإطارات النظارات. كان الزمن الذي كان يجب أن يكون فيه كل شيء طيعا. وكان البلاستيك هو «الكنه» الأعظم.

بعد تناول الحلوى كان أبي يشغّل جهاز التلفاز. كانت الشاشة مغطاة بمرشح بلاستيكي مثل قوس قزح لتجعله يبدو ملونا، على الرغم من أنه في الحقيقة كان بالأبيض والأسود. كنا نضحك كثيرا عندما يأتي المسلسل الكوميدي «المواطن موليكدل».

الآن، وبعد أن كتبت هذا، لست على يقين تماما بأن الأمور كانت هكذا. فالأمر برمته ضبابي جدا ويشبه الحلم، وكأني أروي قصة شخص آخر وليست قصتي.

بوبان.. الرسوم الكارتونية المفضلة عندي

لم يكن هناك الكثير من الكتب في منزلنا، لكن كان هناك واحد منها قد راق لي تماما عندما كنت صغيرا. لقد كان حافظة رسوم أكثر من كونه كتابا. كان له غطاء جلدي أسود، وحواف صفحاته مذهبة. ظهر في منتصف الغطاء الأمامي شعار معدني يشبه قطعة نقد معدنية كبيرة، نُقشت عليها صورة لرجل بلحية. في صغري، كنت أحاول أن أخدش ذلك الشعار ونزعه، لكنني لم أنفذ ذلك أبدا. كان في داخل الكتاب أوراق بحجم ورقة الطابعة، مصفرّة من القدم: وثائق، ورسومات زيتية، وخرائط، وصور. كانت النصوص قليلة مقارنة بالرسومات الكثيرة. بدت كأنها سلسلة من رسومات كارتونية مرتبة بشكل سيئ.

كان جدى يقول لي: «إنه كتاب عن الثورة».

وكنت أردد بعده: «التوله».

«إنه كتاب عن ثورة أكتوبر العظيمة».

بعد أن تعلمت القراءة كنت أنطق عنوان الكتاب مرات ومرات: حياة وأعمــال فلاديمير إليتش لينين ١٨٧٠-١٩٢٤، كان أكثر ما أحببتــه في الكتاب صور رجال الثورة. أظهرتهم الصور بنظرات غامضــة، تأملية، وهم جالســون غالبا حول إحــدى الطاولات يتجادلون. وعلى الرغم من أن الكتاب كان عن لينين، فإن ستالين كان يظهر دائما في الصدارة. عادة كان لينين يقف خلف ستالين الــذي كان يجلس إلــى الطاولة. راقني أن كل شــيء في الصور كان شبه معتم. كان الضوء يأتي دائما من مصباح، أو من إحدى النوافــذ. لكن أكثر ما أحببت كان الكتب. كان توجد في الخلفية دائمــا خزائن مملوءة بالكتب. ظهر في إحدى اللوحات ســتالين وهــو يزور لينين في غرفته، وقد وقــف لينين للترحيب به تاركا كتابا مفتوحا على كرسيه. وفي لوحة أخرى ظهر لينين وستالين في دردشــة مع مفوضيّ جمهوريات آسيا الوسطى. أتذكر ذلك كأنه حــدث البارحة. كان مفوضو جمهوريات آســيا الوســطي يرتدون تلك القلانص الآســيوية، وقد ظهرت في الخلفية خزانة كبيرة للكتب، ويمكنكم أن تروا في الصورة انبهار المفوضين بعدد الكتب الموجودة بالخزانة. كذلك أتذكر صورة معنونة: ف.إ. لينين وزوجته ن.ك. كروبسكايا في منفاهما في سيبيريا، وقد أظهرت لينين وهو يقف بجانب مجموعة من الصناديق منهمكا في قراءة كتاب، بينما كانت زوجته واقفة بجانب رف للكتب.

فيما بعد، قرأت كلام الإهداء. كان مكتوبا بخط دائري جميل. كان الإهداء يقول: تمنياتي القلبية إلى أعز الأصدقاء نيبويشــا كرستيتش. وكان التوقيع: الرائد فليكو فوكاشنوفتش.

كان اسم جدي نيبويشا كرستيتش.

كان جـــدي عضوا في الحزب. كان من أوائل من انضموا إلى رجال المقاومة. وكان أبي يدعوه أودباس، أي أحد أفراد الشرطة الســرية، إلا أنه لم يفعل ذلك إلا بعد أن بدأ الشيوعيون يفقدون مواقعهم. كان أبي ســيئا. ولكن معظم الناس كانوا سيئين. كانوا يفعلون الشـــيء ونقيضه. ما الذي يجعلك تعتقد أن الشـــيوعيين يختلفون كثيرا عن المُعلّم الهندي ساي بابا؟ لقد حاول الشيوعيون القيام بالمعجزات أيضا حتى انكشــف المستور، هذا هو الأمــر. ولا أعتقد أنهم قرأوا كل تلك الكتب.

لو طلب مني شــخص أن أرســم لوحة تمثل عائلتي، أتعرفون ماذا سأضع إلى جوار أبي؟ سوف أضع السيارة «زاستافا ١٠١»، لأنه كان يهتم بتلك الســيارة العتيقة أكثر مما كان يهتم بي. وإلى جوار أمي ســأضع تلك الحقيبة البلاســتيكية التي كانت تحمل فيها البقالة عند عودتها من الســوق. وإلى جانبي ســأضع كرة قدم. وجوارجدي ســأضع المسدس القديم الذي كان يضعه على الطاولــة إلى جانب ســريره، ولم يدعني قط أقتــرب منه. كان والداي ريفييّن بسيطين. وكان الشيوعيون طيبين!

آنتي.. دعوة إلى حفلة

أتذكر حفلات الشاي الراقصة التي كنا نقوم بها في المدرسة، ونحن في الثانية عشــرة أو الثالثة عشرة من العمر. اختفت هذه الحفلات بعد أن أُدخلت نوادي رقص الديســكو. لم يقدم الشاي

قط في تلك الحفلات أو أي شـيء آخر، ومازلت أتساءل: لماذا سميت بحفلات الشاي. كانت الغرف تضم صفوفا من الكراسي بمحاذاة الجدران. كان الأولاد يجلسون في جهة، والبنات في جهة أخرى. كان هناك مسؤول عن كل حفلة، ربما للتأكد من أننا لم نتجاوز حدّنا في شرب الشاي الذي لم يقدم أصلا. وكان هناك شخص آخر مسؤول عن الموسيقى. تلك كانت الأيام التي لم يزل الناس يستخدمون فيها مشغل الأسطوانات، ومسجلات الأشرطة، التي اختفت هي أيضا الآن. كان كل واحد منا يذهب إلى بنت ويقف أمامها كعاشق أو ما إلى ذلك، من دون أن ينبس ببنت شفة. كان ذلك يعني طلبها للرقص. وبين الحين والآخر، كان المسؤول يعلن بصوت عال: «الفتيات يخترن الآن!»، وعندها تقف البنات ويجئن إلينا. وهكذا تعرف من التي تحبك من الفتيات.

تلك هي سنواتنا «الهرمونية»، إذ كنا نتطلع بشوق إلى الرقص البطيء، أو ما كنا نسميه «العصّارات». كانوا يشغلون موسيقى أغنية «أنت فقط»، بطيئة، فتضم الفتاة ضما شديدا لدرجة أن كلا منا يجد صعوبة في التنفس. وقد تتخدر من الإثارة تقريبا، لكنك تتظاهر بعدم التأثر. مازال مجرد التفكير في ذلك يبهر أنفاسي. كان الأمر كأنني أغوص في الماء ثم أخرج وخدي ملتصق بخدها. وقد نكون قريبين جدا، لدرجة أن عيناي تفقد التركيز وتحوّل. أحس بملمس بشرتها الصافية، البيضاء كالحليب؛ حتى أنه يمكنني أن أرى العروق الزرقاء في جفونها. أستنشق في أنفاسها قطرات النعناع الأخضر. مازال مجرد التفكير في ذلك يُدوّخني. كان اسم تلك الفتاة سانيا بترنتش.

ميليها .. الطبق البوسني الساخن

وسائل الحفاظ على الذاكرة

مارسيلا بروستلتش

المقادير: نصف كيلو لحم خنزير مخلي من العظم، نصف كيلو لحم بقر مخلي. نصف كيلو حبات بطاطس صغيرة غير مقطعة. ٢ بصلة مقطعتين إلى نصفين. ١٠ فصوص من الثوم. ٤٠٠ جرام طماطم. ٤ حبات من الفلفل الأخضر أو الأحمر. ٣٠٠ جرام لفت. ٢٠٠ جرام من الملفوف. ٢ حبة جزر. ٢ حزمة بقدونس. ١ حزمة كرافس. ١ حبة كرنب. ١٠ قرون فاصوليا. ٢ معلقة صغيرة من الفلفل الأحمر. من ١٥ إلى ٢٠ حبة فلفل أسود. حوالي ٣٠٠ جرام من الماء، أو المرق، أو النبيذ الأبيض.

قطعي الخضار قطعا كبيرة. ضعي اللحم والبصل والخضار في إناء، ويفضل أن يكون خزفيا. أضيفي السائل. ضعي شريطا من العجين على حافة الإناء الداخلية لمنع البخار من التسرب، ثم ضعي الغطاء. ضعي الإناء على النار حتى يغلي، ثم اتركيه على نار هادئة لمدة ٤ أو ٥ ساعات.

جوهانكي.. أكواز آيس كريم الفانيليا

أنتمي إلى عائلة كبيرة. لقد أحب والدايّ يوغسلافيا. وكذلك نحن الأطفال. والآن أدرك أن ثمة سببا آخر جعلنا نقضي إجازتنا الصيفية في يوغسلافيا، وهو أن تكاليف الحياة كانت

رخيصة جدا فيها. كنا نخيم في عدة أماكن على طول شاطئ البحر الأدرياتيكي في واحدة من تلك الخيام الواسعة، واعتدنا أن نكون من بين أوائل السياح الأجانب. كان عندي سبعة من الإخوة والأخوات. كان أبي يعمل، وبقيت أمي في البيت معنا، لذا كان علينا أن نقتصد كل جيلدر، وألا نبعثر نقودنا في العطلات، فحتى الهولنديون كانوا فقراء في ذلك الوقت. بعد اندلاع الحرب، بدأ الهولنديون يذهبون إلى دول أخرى (نيوزيلندا، وكندا، والبرازيل)، وكانوا يكدحون مثلهم مثل اليوغسلاف من أجل كسب رزقهم. لذلك، كان البحر الأدرياتيكي الجنة بالنسبة إلينا. في كل يوم كنا نحن الثمانية نصطف - من الأصغر إلى الأكبر - والوالدين في المؤخرة، ونذهب لتناول الآيس كريم، وفي كل يوم كان «نظيف» يُحيينا بكلماته المعهودة: «أنتم أيها الهولنديون بيض البشرة كالفانيليا».

انتشر هذا الوصف في البلدة، وسرعان ما أصبح الكل ينعتنا به: «انظر، ها قد جاء الفانيليون»! (وكان اسمنا الحقيقي تير بروجن هوجنهولتز، والذي لم يكن أي أحد يستطيع نطقه)، وقد اتخذنا لأنفسنا أسماء أولى نحن أيضا. سمّيناها أسماء الصيف. فكنت أنا جوكا، وأخي جيرارد أصبح اسمه جريج، وفرانس أصبح فراني وڤولتر أصبح وولتر، على اسم وولتر الشخصية التي ظهرت في الفيلم الذي شاهده الجميع، ذلك الفيلم الذي يدور حول الدفاع عن سراييفو، وبدأ الجميع ينادونه به، بألمانيتهم المهجنة: «ها هو وولتر». مازلت حتى الآن أناديه بتلك العبارة.

كان ذلك الآيس كريم ذكرياتي المبكرة عن يوغسلافيا.

لم يصطحبنا والدايّ لتناول الآيس كريم أبدا في هولندا، إذ كانت مكلفة جدا. وكان السكان المحليون ينادون بائع الآيس كريم نظيف (بشيبتار). وبما أنني لم أكن أعرف جماعاتكم العرقية المختلفة حينذاك، فلم أكن أعرف أنها تعني «ألباني». أنتم جميعا بدوتم بالنسبة إلينا متشابهين. ونحن بدونا لكم بلون الفانيليا، وأنتم بدوتم لنا بلون البندق.

سليم .. الحنين إلى الجنوب

كان فرض علينا جميعا دراسة تاريخ الأدب المقدوني، والسلوفيني، والكرواتي والصربي، والبوسني، وأدب الجبل الأسود، كما تعرفون جميعا. لم أحصل قط إلا على مقبول. كان من بين ما درسناه تلك القصيدة المقدونية بعنوان: «الحنين إلى الجنوب». كنت أعرف العنوان فقط، لأنني لم أقرأها قط، لكن دائما ما بدا لي العنوان غريبا. لقد كانت أشبه بإعلان أكثر منها قصيدة. ثم في أحد الأيام وجدت نسخة لها بالفاكس في قاعة المطالعة بالقسم هنا. وكما تعرفون، كان قد كتبها «قسطنطين ملادينوف» قبل أكثر من مائة وخمسين عاما. على أي حال، أنتم تعرفون كيف يطيل أصدقاؤنا الهولنديون الحديث عن خططهم للصيف، وإجازاتهم الصيفية وتحضيراتهم لها، أو عن عودتهم للتو منها، أو التساؤل عن وجهة الذهاب هذا العام، حسنا، هذا ما ينطبق على تلك القصيدة. قد تظن أن من كتبها هولندي وليس مقدونيًا. كان عليَّ أن أترجمها لصديقتي «ميكي». لذلك

رحت ألقيها بالمقدونية - وتيتو شاهد على ما أقول - وكان عقلي يسترجع القصيدة من دون أي خلل. لا أريد أن أسبب لكم الضجر، ولكن دعوني أذكركم ببدايتها، إن لم تكن بحوزتكم الآن.

الظلمة في كل مكان، الظلمة تلفني.
يطوق الضباب الكثيف الأرض...

حسنا، تستمر هذه النشرة الجوية لبعض الوقت، ثم يصل إلى هدفه، والذي صدمني.

لا أستطيع الاستمرار بالعيش في هذا المكان؛
لا أستطيع العيش بين الثلج والبرد والجليد.
هب لي يا إلهي أجنحة لكي أحلق بها؛
حتى أعود إلى الوطن دون إبطاء؛
لكي أتمكن من تكحيل عينيّ مرة أخرى
بشمس «ستراجا» وشاطئ «أوهريد» الجميل.

وعندما وصلت إلى النهاية، إلى الأبيات التي تقول:

هناك سأعزف لحن الوداع الأخير،
وعندما تغرب الشمس، سوف أموت.

ياإلهي، لقد انفجرت في البكاء. هأنا هنا، أتكلم المقدونية

بطلاقة كابن لتلــك الأرض، وأصرخ من رأســي. اعتقدت أنني تجــاوزت النهاية العميقة. على أي حال، قمت بترجمة القصيدة لصديقتــي «ميكي» والدموع مازالت تســيل على خدّيّ. أتعلمون ماذا قالت؟ «موي!» عندما سمعت تلك الكلمة الهولندية، صفعتها صفعة قوية، فانفجرت في بكاء شــديد. طبعــا، كان أفضل أن أرفس نفســي. لا أعرف ماذا دهاني. شــيء ما في تلك الكلمة جعلني أتصدّع. لا أســتطيع تفســير ذلك، علــى الرغم أن تلك الكلمة تعني «جميل» ربما كان الحشيش هو الذي رجرج دموعي بالنسبة لهذه القصيدة.

داركو.. أمي تشابك الأيدي مع تيتو

هذه ليست ذكرى تخصني؛ لقد حدثت لأمي. كانت أمي تنتمي إلى الــرواد مثلها مثل بقية الأطفال في مدرســتها. ومرة، لأنها كانــت الأولى في صفها، وقع عليهــا الاختيار لحضور الاحتفال بعيد ميلاد تيتو. كان عرفا أن يرســلوا أفضــل الرواد إلى ذلك الاحتفال. أخبرتنا والدتنا بأنه عندما دخل المصور لأخذ الصورة التقليدية «لتيتو مع الرواد»، أسرعت إلى تيتو وأمسكت بيده. لقد رأيــت تلك الصورة. كانت تميل عليه وهي تضغط يده في يدها، وكان يمسك بســيجار كوبي بيده الأخرى. عندما انتهت مراسم التصوير، حــاول تيتو أن يفلت يده من يدها، لكن أمي تشــبثت بهــا. كانت ملتصقة به كالغراء. حــاول الإفلات مرة أخرى، لكن أصابعها تحولت إلى «كماشــة» حية. بدأ الناس يشــعرون بعدم

الارتيــاح. كان لا بد من أن يأتي أحــد حراس الأمن لفكها عنه. عند ذلك، أطلقت صرخة مدوية.

قالــت لــي: «لا أعرف ما دهانــي . أو من أيــن جاءتني تلك القوة؟».

في إحدى المرات رأيت تيتو بلحمه ودمه. كان ذلك في معرض زغــرب التجاري. كنت أنا وأمي من بين الحشــود التي اصطفت على طول الطريق عندما مر وحاشيته. كان قد بدا أصغر حجما مما كان في الصــور، ومقاطع الأفلام. لقد بدا عليه التقدم في العمر والوهن، كان أشــبه ما يكون بمومياء. وعندما لامس شعاع الشمس أعلى رأســه، وبدت جلية لي، ظهر أعلى رأسه مبرقشا بنقاط خالية من الشــعر، وقد غُطيت بخصلات شعر مصبوغة حال لونها إلى البرتقالي.

«هيا»، قالت أمي، وهي تشدني بقوة من يدي، وأخذتني لتناول الآيــس كريم. وقد بالغت أمي فــي طلب الآيس كريم، حتى أنني لم أســتطع أن آكل ربع الكمية التي طلبتهــا. لا أعرف ما الذي دهاها؟!

ماريو.. قطارات بلا جداول للمواعيد

بالنظر إلى الوراء كان لديّ انطباع بأن كل شيء في يوغسلافيا الســابقة كان له علاقة ما بالقطــارات، فإذا ما رتّبت القطارات المهمة وغيــر المهمة في حياتنا في سلســلة لحصلت على تاريخ مواز للدولة. ولا يقل صحة عن التاريخ الرسمي.

١- إذا ما استثنينا الشعار الذي يدعو إلى «الأخوة والوحدة» في يوغسلافيا السابقة، فلن يتبقى منها سوى سكك الحديد ومحطات القطارات التي تربطها بالنمسا والمجر. كنت أشعر بغصة في حلقي في كل مرة أرى فيها واجهات المحطات الصفراء ونبات الجيرنيوم المزهر الأحمر في أحواضها. كان مجرد رؤيتها يعني الوطن.

٢- أول قطار ظهر في حياتي كان في كتاب الأطفال «قطار في الثلج» لصاحبه ماتي لوفراك. وأول حدث في تاريخ يوغسلافيا، وفي تاريخ السينما اليوغسلافية، كان كتاب فليكو بولايتش «قطار بلا جدول مواعيد». هذا الكتاب يروي قصة رحيل مجموعة من الناس من جبال روكي الدينارية بالألب، إلى «سلة الخبز» اليوغسلافية، إلى إقليم بارانيا (أم أنه كان باتشكا؟) الغني، الخصب في الشمال. وفي خضم تلك الرحلة، أولئك الناس تحابوا، وتخاصموا، وتجادلوا فكريا، وشهدت الرحلة مولد بعض الأطفال، وموت بعض الرجال. تلك القصة كانت سببا في سلسلة أفلام القطارات في السينما اليوغسلافية، حتى وصلت إلى مشهد الحب القاسي في الحمام القذر في فيلم «أمير كوستاريكا»، عندما كان أبي مسافرا في عمل. بالمصادفة، كانت السينما اليوغسلافية بفيلم كوستاريكا ذاك قد لفظت أنفاسها الأخيرة.

٣- كانت السكك الحديدية أيقونة الخمسينيات، وهي مرحلة حركة الشباب العمالية الصادمة محليا وعالميا. أوكلت للجيل الصاعد بناء خطين مهمين: خط «برتشكو - بانفويتشي» (وكان

الشــعار «برتشــكو» بانفويتشــي هدفنا، نهاية الصيف ستشهد صرحنا)، و خط «شــاماك - سرابيفو». لفترة من الزمن شكلت كتائب الشــباب حدثا ســاخنا في الأفلام الموجهة للاســتهلاك المحلــي. إن فيلم «الفتاة الرائعة» الــذي أدت فيه ملينا درافتش دور البطولة، ليس إلا واحدا من بين العديد منها.

٤- بعــد بناء تلك الســكك لم نتمكن مــن الحصول على العــدد الكافي مــن القطــارات، لقد اســتخدمنا القطارات للذهــاب في الرحلات المدرســية، وللذهاب إلى الشــواطئ وللالتحاق بالوحدات العســكرية. طبعــت على كل القطارات JDZ بالأحرف اللاتينية والســلافية القديمة. عرف العديد من الناس اللغات الأجنبية من خلال القطارات. نقشت عبارة «لا تمل بجســمك خارج النافذة» على صفائح نحاسية تحت النوافذ برفقة ترجمات إلى الفرنســية، والألمانية، والروسية. لقد أصبحت عبارة مشــهورة في الكتب والأفلام، واكتســبت صيتا لافتا في لازمة الأغنية الشــهيرة «الزر الأبيض»، وهي (اســتقلي القطار يا ســيلما، ولكن لا تميلي بجســمك خارج النافذة...)، الصقت فوق كل مقعد في القطار لوحة لبلدة، أو منتجع سياحي يوغسلافي. كان خطي المفضل خط ماكارسكا مــرورا ببيوكوفو التي كنت أعشــقها. كانت الشــطائر التي نأكلها في القطار هي الألذ على الإطلاق، وكذلك كان الدجاج المشوي في القطار الأفضل على الإطلاق. كان الاختراع الأهم في ذلك الوقت هو «الترمُس»، وكان المشــهد الذي لا ينســى والذي نقش في ذاكرة ملايين اليوغســلاف، هو منظر ظهور

شاطئ الأدرياتيكي في الأفق بعد غياب طويل. كان جميع من استقل القطار إلى البحر يشارك في اللعبة نفسها : فعلى كل من يرى البحر أولا أن يصيح بأعلى صوته «الماء!»، وسيحصل على خمسة دنانير، أو أيا كان الرهان المتفق عليه...

٥- اتسمت الستينيات والسبعينيات «بقطارات العمال الأجانب» التي كانت وسيلة المواصلات المفضلة عند العمال اليوغسلاف، واليونانيين، والأتراك، وهم في طريقهم من الدول العربية وإليها إلى أن بدأ الأمر يحتاج إلى امتلاك سيارات. كان الحنين الجامح في رحلة العودة بالقطار إلى الوطن يظهر جليا في مقطع قصيدة غنائية مجهولة المؤلف:

(...) انتظريني أيتها الحبيبة.
فأنا في اشتياق منذ مغادرتي فرانكفورت الجميلة.

٦- كان القطار الذي يذهب إلى تريستا أيقونة النزعة الاستهلاكية اليوغسلافية في الثمانينيات، إذ كان يُحمَّل ببضائع السوق السوداء من الجينز، والبن، والأرز، وزيت الزيتون، و«التشيرتات»، والسراويل، والملابس الداخلية، وكل ما يخطر على البال. تزامن أوج الانغماس في التسوق في تريستا مع وفاة تيتو. مات تيتو في سن الثامنة والثمانين. لقد استذكر الناس الحدث بطرق عدة، منها القيام بحملة نشاطات زراعية: فزرع البعض «ثماني وثمانين وردة للرفيق تيتو»، وزرع البعض «ثماني وثمانين شجرة بتولا للرفيق

تيتو»،... وهكــذا. ومن هنا جاءت النكتة الغجرية التي تقول: ســأل ضابط الجمارك غجريا في القطار القادم من تريستا: «مــا لديك في تلك الأكيــاس»، فرد الغجــري بعفوية لافتة: «ثمانية وثمانون بنطلون جينز للرفيق تيتو».

٧- كان آخر قطار يوغســلافي هو «القطار الأسود»، الذي حمل جثمان تيتو من خط «ليوبليانا - زغرب- بلجراد»، ليوارى الثرى في حديقة الزهور في بلجراد. اصطف مئات الآلاف من اليوغســلاف على جانبي السكة لإلقاء نظرة الوداع على «الابن الأعظم للشــعوب والقوميات اليوغســلافية»، وقد خلد العهد اليوغسلافي «الإخوة والوحدة» في أبيات شعرية قوية مثل:

في نفق السكة، في الظلام،
تسطع نجمتنا الخماسية الحمراء.

٨- يعود انهيار يوغســلافيا، والحرب التي اندلعت إلى ذلك اليوم التاريخي الذي قام فيه صــرب كرايينا في كرواتيا، بقطع خط «زغرب - ســبليت» باســتخدام الكتــل الصخرية، وبذلك وضعوا حدا لتلك الخدمة لسنوات عدة.

٩- أُعيد فتح خط «زغرب - سبليت» قبل عامين، واستغرقت رحلــة القطار الذي ســمي «قطار الحرية» يومــا كاملا، وقد تم بثّها على التلفزيون الكرواتي. ويعود ســبب استغراق تلك الرحلة كل هــذا الوقت إلى أن رئيــس الوزراء الكرواتــي كان ينزل من القطار عند كل صفّارة للتوقف لإلقاء خطاب في الجمهور. أثناء ذلك، كان الصرب الذين طردناهم من كرايينا يشــقون طريقهم

إلى صربيا مشـيا على الأقدام، أو بالحافلات، أو بالسـيارات، أو بالجرارات، أو بالعربات التي تجرها أحصنة، أو بأي وسـيلة أخرى ماعدا القطار.

١٠- أخيـرا وليس آخرا، ارتبط بالقطارات كذلك أحد أقوى مواطن الجدل بشأن اختلاف اللغة الصربية عن اللغة الكرواتية، وبناء على ذلك كانت الحرب ضرورة تاريخية. فالكلمة التي تعني «قطـار» مختلفة في اللغتين: فالكروات يسـمونه «فلاك»، بينما يسميه الصرب «ڤوز».

إيجور.. الرعب والبستنة

(تعليقات صديقي ميكا على الشعر اليوغسلافي، بعد اطّلاعه على مجموعة مختارات جديدة من الشـعر اليوغسلافي زغرب، ١٩٦٦ التي أعرتها له).

ضمّت المجموعة الجميع: الصـرب، والكروات، والمقدونيين، والسلوفينيين. لم يحظ شعراء البوسنة، والجبل الأسود بفصول مسـتقلة، رغم وجودهم في المجموعة. أكثر ما لفت انتباهي هو قراءة الشـعر السـلوفيني باللغة السـلوفانية، والشعر المقدوني باللغة المقدونية، من دون ترجمة لهما.

قلت لنفسي، لا بأس، لنر ماذا كان أجدادنا في الوطن يقرأون قبـل أن يكون لنا وجـود. هلم نحضر الآلة الحاسـبة كما نفعل في الأسـواق. يسأل دولاك: كم سـعر البيض اليوم يا عزيزي؟ ثم يجري الحسـبة. من بين ١٧٣ شـاعرا في المجموعة، ثمة ٥٦

صربيا، و٦٢ كرواتيا، و٤٠ سلوفينيا، و١٦ مقدونيا. لا بأس، هذا جيد. دعني الآن أحصِ النسـوة بينهم. ثمة واحدة بين الصرب، وثلاث بين الكروات، واثنتان بين السلوفينيين. في المجمل هناك ١٦٧ شـاعرا، وست شـاعرات. كان من بين الشـاعرات واحدة دفعتها الرهبة إلى استخدام اسـم ذكري مستعار. ومن الأشياء التي لاحظتها أن هؤلاء الشعراء يعيرون اهتماما كبيرا لأسمائهم، ويفضلونهـا من ثلاثة مقاطع بدل مقطعين، ويقومون، مثلهم مثل الأبطال الحزبيين، بتسمية المدارس بأسمائهم، فنجد اسما مثل يورى فرانيتشـيفتش- بلوتشـار، أو ميلينكو بركوفتش- كـرني، ولا تسـتطيع أن تحدد من يملك ناصية القلم، ومن يملك ناصية السـيف. وهذا ينسـحب على النوع الحالي من الساسـة ممن يتوقون إلى النازية، فهم يصرون على ثلاثة مقاطع في أسمائهم، ويسترسـلون في ذلك، فطول الاسـم له أهمية خاصة عندهم. وهـذا يجعلني أتسـاءل إن كانوا يحاولـون التعويض عن عاهة بيولوجية، حيث يشـكل سنتيمترا أو سـنتيمترين فرقا ذا دلالة؟ أوه، ثمة شـيء آخر. يقوم شـعراؤنا بإهداء قصائدهم لبعضهم بعضـا. أتعرف ما أقصد؟ كرجل يغازل آخر. هل ثمة حاجة إلى المزيد؟

علـى أي حال، لنسـتمر فـي الحديث. والمدهـش. المدهش حقيقية! أن حوالي ٥٠٪ مـن قصائدهم تدور حول الأم، أو الأم الوطـن. أي نوع هذا الذي يحول الأم وطنا والعكس؟ ثم يتباكون على كليهما. دعني أقل لك إنه مجرد هراء. والأدهى من ذلك كله أن حوالي ١٠٪ منها تـدور حول قصص الرعب، أعني بالضبط

القبور، والأضرحة، وما شـابه ذلك. يا إلهي، إنه شـيء يخيفني حقا. أعني أن شـعراءنا غيلان، ينبشـون الأرض دوما بحثا عن عـدو أو آخر. أحدهم يحدد أرضه (هذه هي الأرض التي بذرت فيها أمواتي)، ومن ثم يرفع معوله (أنا استدعيك أنتِ، يا ظلالي) ويجول فـي خاطري، أنـت خاطف الجثث اللعـين. أنت تدخل الرعب حتى في قلب سـتيفن كنـغ، ملك قصص الرعب. وبينما أحاول التغلب على ذلك الخوف، أجد نفسي وجها لوجه مع هذه السطور:

يا مرآة الرعب! أظهري مشاهد دون مقاصل أو مشانق!
الدماء! الدماء! يصرخ دمي في أرض الكروات المستباحة.

اللعنة!

لكن لننتقل الآن إلى العشرة في المائة التي تنتمي إلى ما يمكن أن أسميه «جنون العظمة»، أو قصائد أنا، أنا، أنا، التي يتحدثون فيهـا مع النجوم، ومع الكون، مثل «إن كنت رجلا، فامش مطاولا السـماء» ذلك الهراء. قصائد تجعل مـن كل رجل، رجلا خارقا بمنتهى السخافة.

لا بأس، لنستمر في الحديث. الفئة التالية تشكل ٢٠٪، وتتغنى بجمال الطبيعة بما فيها فصول السـنة، وهطول المطر، وما إلى غيـر ذلك من هراء. تظنهم مجموعة من المتنبئين الجوّيين أمثال كامنكو كاتيتش. هؤلاء المنحرفـون يهتمون بالحياة النباتية أكثر من الحياة الحيوانية. صحيـح أنني وجدت قصيدة تتحدث عن

عِجل، لكنني لم أدرك ذلك حتى وصلت إلى نهايتها. اعتقدت في البِداية أنها عن فتاة جذّابة، إذ كانت اللغة جميلة، وجنسية، ولكن في منتصف القصيـدة ثمة بيت يتحدث عن الروث... لكن لنعد إلـى الحياة النباتية. كانت هناك أنـواع كثيرة من القصائد عما هب ودب من الأشـجار، بما فيها أشـجار الحور، والصفصاف، والسـنديان. بعـد كل ذلـك الرعب فوجئت بأن لشـعرائنا مـا يقولونه عن الورود، بما فيها زنبق الوادي، والبنفسـج ثلاثي الألـوان، والورد، ونبـات بخور مريم المزهر. لـم أكن أتخيل أن الرعب والبسـتنة يتناغمان. مع ذلك ذكر أحدهم شـيئا عن عن زهور بخور مريم الدموية. كم يشـكل مـا تحـدثت عـنه؟ ٩٠٪؟ لا بأس، فقد فحصتهم من كثب باحثا عن الجنس في شـعرهم. وقد أصبت بالدهشـة لأنهم لا يهتمـون بالجنس على الإطلاق. وهذا يظهر جليا لك من دون الحاجة إلى آلة حاسـبة. صدقني أن الوقـت الوحيـد الذي يكتبون فيه عن المـرأة هو عند موتها، ودفنها. يبدو الأمر كأنهم ينتظرون موت المرأة بفارغ الصبر حتى يكتبوا قصيدة عنها، وشـعارهم هو أنه كلما كبر المصاب ازدادت القصيدة حُسنا. أنتم تعرفون القصيدة التي تقول:

رأيتك ليلة البارحة في منامي، حزينة، ميتة.
في وسط القاعة المحتومة أنشودة رعوية للورد.
في تابوت عالي المقام بين آلام الشموع.

طبعا، أنتم تعرفون هذه القصيدة، فقد كان لزاما علينا تعلمها

في المدرسة. وكتب الشاعر نفسه يقول:

لا أعرف من أنتِ: أأنتِ امرأة أم أنثى الضبع؟

اللعنة! هل هذا الرجل يغيظني؟ أعني ما الحكمة إن كنت لا تميز المرأة عندما ترى واحدة؟ وهناك أيضا الشاعر الذي لم يستطع أن يجد مكانا لدفن امرأته (أين أستطيع دفنك، أوه، يا حبيبتي، أنتِ الآن رحلتِ؟)، والرجل الآخر «كلما ازددت قراءة، ازددت انزعاجا»، الذي غاب طويلا وعند عودته وجد حبيبته قد ماتت:

وعندما عدت،
وجدتك قد قضيت.

لماذا عاد ذلك الأحمق؟ وهناك أيضا شاعر آخر درسناه في المدرسة، أتذكرونه؟

ومع ذلك قد يأتي الحب، ويصيبنا،
ولكن هل أتمناه، أم أتمنى ذهابه؟

دائما ما جعل ذلك الدم يغلي في عروقي. مشكلتك يا صديقي ليست فيما إذا كنت تريد أم لا، بل فيما إذا كنت تمتلك القدرة. لذا، عليك أن تحزم بضاعتك، وتمشي، فأنا لن أشتري بضاعتك.

هؤلاء الشعراء مجموعة من المرضى النفسيين. وهذا لا يقتصر على الموجودين في المختارات الشعرية التي بين أيدينا،

إذ لم نجد صوتا عاقلا بين شعرائنا خلال المائتي سنة الماضية، أو حتى منذ بدأوا يقرضون الشعر. وهذا ينسحب على الجميع، الصرب والكروات، والسلوفينيين، والمقدونيين لا فرق. كلهم ضرطات قديمة. وأنت لست في حاجة إلى آلة حاسبة لإثبات ذلك.

يوروش.. أتمنى لو أنني عندليب

خلال عامنا الثاني في المدرسة الابتدائية، طلبت منا معلمتنا أن نكتب موضوع إنشاء عن «تيتو». أخبرتنا أنه قد بُترت إحدى ساقي تيتو، وأنه يتعافى من تلك العملية الجراحية، وسيكون سعيدا إن كتبنا شيئا لطيفا عنه. كتبت أنني تمنيت لو أنني عندليب لأتمكن من الطيران إلى المستشفى الذي يرقد فيه الرفيق تيتو كل صباح لأوقظه بغنائي وهو في سريره. امتدحتني المعلمة كثيرا وقرأت ما كتبت أمام الفصل. سخر زملائي في الفصل مني ونادوني بالعندليب. كانوا يصيحون بالهراء ضاحكين: «ها قد جاء العندليب»، وعندما سمع أفراد عائلتي بموضوع الإنشاء، سخروا مني أيضا، وأخص بالذكر والدي. بعد ذلك بوقت ليس بالطويل، مات تيتو، وبكى والدي عليه، وجلس أفراد العائلة جميعهم أمام التلفاز لمدة ثلاثة أيام أثناء الجنازة وهم ينتحبون. وأكثر ما شدّ انتباههم هو العدد الكبير من الشخصيات الأجنبية المرموقة التي حضرت الجنازة. قالت والدتي: «كل هؤلاء المشاهير!» وجدوا متنفسا للتسلية لهم في نقد نطق المذيعين لأسماء رؤساء الدول، والشخصيات المشهورة. ولكن عندما

قلت إن اسم مارجريت تاتشر هو تاتشر وليس «تراتشر»، رد والدي قائلا : «هذا يكفي منك، يا عندليب. اذهب وأحضر لي زجاجة بيرة من الثلاجة. واحذر أن تفلت من منقارك!». وانفجر الجميع ضحكا على ما قاله أبي.

كانت يوغسلافيا مكانا بغيضا. كان الجميع يكذبون. طبعا، ومازالوا يكذبون، ولكن كل كذبة انقسمت إلى خمس، كذبة لكل بلد.

١٠

[...] أعتقد أنه من الأفضل أن أبين مباشرة
أن المناطق الشمالية من هولندا جعلتني دائما
أشعر
بقلق محدد، حيث أستهل الكلمة بالحرف الكبير
كما تتطلب اللغة الألمانية، كأن ذلك الحرف الكبير
وفق مذهب الفلسفة الطبيعية المبكرة كان من
العناصر الأساسية، مثل النار والماء
التي تكوِّن الحياة على الأرض. الحرف الكبير يمنح
المرء
شعورا بأنه وضع في صندوق أسود
حيث لا مهرب سهلا منه.

سيز نوتيبوم

تعد أمستردام من أجمل مدن العالم. برغم أن هذه مقولة مبتذلة من كثرة الاستعمال، غير أنني لن أتردد في قبولها من دون حرج من ابتذالها، ليس لما تهمله سهوا أو عمدا: إحساس، يكاد يكون إحساسا ماديا بالغياب بشأن تلك المدينة، إحساس طاردني من وقت لآخر، ولم أستطع تحديد مصدره.

خلال تجوالي في المدينة، كنت أمر بحزام من مناطق الشم: رائحة البول التي تتلاشى أمام رائحة العفن الذي يمسّ خياشيمي في أثناء نزولي على الدرج، ورائحة العفن التي تفسح في المجال

أمـــام رائحة الزيت النـــتن التي تفوح من مخلفـــات الطعام على الشاطئ وتسكن في شعري، ورائحة الزيت التي تتنازل عن رائحة العـــرق الآدمي الذي يعلق بي وأنا أشـــق طريقي عبر الحشـــود، ورائحـــة العرق التي تختفي أمام رائحة مخدر الحشـــيش القوية البغيضـــة. لم تكن لطبيعة المكان التي طالمـــا أحاطتني أي قدرة على الإثارة، إذ تركت الانطباع نفســـه الذي تركه الرجل المســـن غريب الأطوار الذي كان يؤدي خدعا بهلوانية على حبل مشدود، وهو عار تماما في ميدان أمستردام العام. ذلك المخلوق البشري العـــاري وغير المألوف الذي يتلوى ويتقلب على الحبل، كان مثالا غريبا لتناقضات المدينة.

تفصيلة بعـــد أخرى أفقدتني حذري . دائمـــا ما كنت أواجه بازدواجية ما: إذ بدا لي أن كل شـــيء يمضي يدا بيد؛ وكل زيادة يقابلهـــا نقص. لقد اتخـــذ غياب الجمال الأشـــكال النموذجية فـــي التماثيل المدينية القبيحة، الذبابـــة الحديدية الممددة والتي تقبع على الأســـفلت في حي «هارليم»، والجرارات المعدنية التي تزحف خلال الميدان الرئيس، والتماثيل الصغيرة بحجم الكرات المطاطية التي تبرز من داخل العشـــب المبتل من متنزه لآخر. كان الجمـــال أيضا حاضرا، وقد اتخذ أيضا أشـــكالا نموذجية: في المتاحف، والمنازل الأرستقراطية، والقنوات، والصور المنعكسة.

بالإضافة إلى القول المبتذل الأول، غالبا ما كنت أســـمع قولا آخر، أعني «أمســـتردام مدينة ذات بُعد إنســـاني». بالنسبة إليَّ، كان بها بُعد طفولي. واجهات المتاجر في المنطقة الحمراء تعرض الدمى الحية لإغراء الكبار، ومتاجر الأدوات الإباحية بزخرفتها

كانت تشبه متاجر اللعب، والمقاهي التي تشبه روضات الأطفال بالفطر البلاستيكي «المزروع» عند المدخل، وجاذبية حديقة ألعاب السد. والأمر ليس أن هذه المسحة الطفولية مخربة أو باعثة على السخرية، إذ لا يبدو أن هناك دافعا أيا كان من ورائها؛ إذ إنها حولت أمستردام تماما إلى نوع من «ديزني لاند» كئيبة. غالبا ما كنت أشعر بالخزي والعار وأنا أتجول في المدينة. ومتسائلة إن كان بعض الناس غيري يرونها هكذا؟!

إن كانت نوافذ أمستردام الشهيرة غير المغطاة بالستائر تكشف ما في الداخل، فإن الداخل يكشف غياب الخصوصية. بذلك يتم تأكيد متناقض لحق الخصوصية المقدس من خلال غيابه. وتمثل الشرفات الأمامية التي لا تتسع لأكثر من كرسي أو اثنين مكانا آخر لعرض مفهوم الغياب: فعندما يكون الجو حارا، يجلس المواطنون على تلك الشرفات في عروض حية يراقبون خلالها عروضا حية أخرى، حركة المرور، والماضي المتبختر. إن أمستردام خشبة مسرح دائم، لكن إذا كانت تتشارك في هذه السمة مع غيرها من المدن على الأرض، فإنها تختلف عنها في تلقائية الجهد الذي يبذله السكان في أدائهم على خشبة المسرح، من خلال تحويل نوافذهم إلى واجهات للعرض، والتنزه مشيا على الأقدام، أو راكبين دراجاتهم الهوائية. لقد فُتنت في البداية «ديزني لاند» الكبار هذه، ولكن سرعان ما وجدتها منفرة. ربما أنني أسقطت كوابيسي على هذه المدينة، وقرأت من خلالها معاني لم يكن لها وجود. ومع ذلك، تبقى الحقيقة أن أمستردام هي المدينة التي اخترتها للعرض على شاشتي.

إن كانت أمســتردام خشبة مســرح، فقد كان لي دور مزدوج: فكنت المُشاهد والمؤدي، المراقِب، والمراقَب في الوقت نفسه. الماء، والســماء، وألواح زجاج النوافذ، طبقات منفصلة تعكس الواحد منهــا الآخر، فعند توقفي أمام نافــذة فإنها تجبرني تماما على اختــلاس النظر، فكنت ألمح صورتي تذوب في الداخل، والصورة على شاشــة التلفاز، وصاحب المنزل يحملق في الشاشة من على كرســيه، والصور المنعكسة للمارة الآخرين. وإذا ما مررت بنافذة في المنطقــة الحمراء، كانت صورتي المنعكســة تمــر عبر وجه بائعة للهوى كظل. كانت كل الأشــياء تعكس بعضها، وكل الأشياء اندمجت في بعضها، فصور المنازل المنعكسة في القنوات توحدت مع صور النوافذ المنعكســة في السماء. كنت أصاب بالدوار من مجرد التفكير في ذلك.

كان لبعــض الأبواب الأمامية مرايا بارزة على قضبان معدنية هدفها تمكين النزلاء من رؤية من يقرع الجرس من دون أن يتمكن هو من رؤيتهم عند النافذة. وكثيرا ما كنت ألمح صورتي المنعكسة في تلك المرايا، ويتولد لدي شعور بأنني قد أنزلق من خلالها إلى عالم مواز، وأرتعب من فكرة أن أرى نفســي من الداخل متوارية خلف الستار، وأقرع جرس الباب.

مــررت في أحــد الأيام بمجموعــة من الســياح الأمريكيين الــذي تحلقوا حول عازف مُســن متجول لأرغــن متنقل، وعند ســماعهم يتدفقون عليه وهم يهتفون «رائــع» تذكرت ما يعادلها في الهولندية، كلمة «ليوك»، وأدركت أنها المفتاح لحل المشــكلة. كانــت «الليوكينية/ الروعــة» مُطهرا، مبيــدا للجراثيم يزيل كل

البقع، والكدمات، وتضع كل شـــيء على قدم المساواة، تجعل كل شـــيء مقبولا. كانت بالقـــرب من منزلي حانة للمثليين اســـمها «رأس الملكة»، معروض في واجهتها عشر دمى ذكرية، في عشرة مناظر. كان عرضـــا لـ «ليوك/الرائع». كلمـــا مررت به، تداعت إلى ذهني صور الدمية «باربـــي» الحقيقية من فتيات مولدافيا، وبلغاريا، وأوكرانيا، وبيلاروسيا، التجار، المتاجرين باللحم الآدمي لمن تم شراؤهم من أجل التصدير. كنت أفكر في اللحم الشرق-أوروبـــي المتجه فـــي رحلته الطويلة إلى الغـــرب. إذا عجزوا عن التقدم إلى منطقة صربية، أو بوسنية نائية، فسينتهي بهم الأمر إلى هنا. فكرت بهم، وفي المناظر الشـــرق - أوروبية للذين جاءوا إلى هذه الـ «ديزني لاند». كم كان كل هذا رائعا/ليوك! والشـــيء «ليوك/الرائع» يتخطى الخير والشـــر؛ المسألة ليست «الأخلاقي واللاخلاقي»؛ المسألة هي ببساطة: أقبله أو أرفضه، ليس إلا.

في وقت مبكر من صباح أحد الأيام كنت شـــاهدة علي منظر طعنني كما لو كانت مدية اخترقت جسمي. كانت الشوارع لم تزل فارغة... مزقت صيحة الفجر البورسيليني تماما امرأة آتية في اتجاهي، تضرب بذراعيها، وتحكم قبضتيها في إشـــارة تهديد، وفمهـــا يقذف بكلمات ممزوجة بالأنين. لمحت قناعا مندمجا مع وجهها، قناع الألم. خلت عيناها من الدموع، محبوستين في نظرة محدقـــة كليلة، وكان فمها يميل إلى أســـفل. مـــرت من دون أن تشـــعر بوجودي، على الرغم من أنني كنت الكائن الحي الوحيد في الجوار. بدت كأنها تستذكر قائمة من الشتائم جمعتها طوال حياتهـــا. ومع أني لم أفهمها، غير أنهـــا اخترقتني في الصميم.

ما نال مني هو ذلك المزيج مــن صيحات الذعر القاتلة، والوجه الورقي المُعجّن الذي خلا من أي أثر للحياة.

ذات مرة في أثناء إحدى رحلاتي العصبية بالقطار، نزلت في لاهاي، وذهبت إلى زيارة مدينة «مادورودام»، حيث وجدت نفسي فعلا في قلب الاســتعارة التي كنت أبحــث عنها. إن «مادوردام» نموذج بالحجــم الطبيعي لهولندا، إنهــا «ديزني لاند» هولندية. ضمت كل شــيء، المدن، والمنازل، والقنوات، والجسور، وطواحين الهواء، وكل شــيء حقيقــي في الحياة: فالماء يجــري، والأزهار تتفتح، والأعشــاب تنمو، والقوارب تتكــدس في الممرات المائية، والجسور ترتفع لتفسح لها في الطريق، والهواء يموج بالطائرات الهليكوبتر. كان هناك الناس أيضا: سائقو الحافلات والترامات الصغيرة، ورجال الشــرطة، وحــراس القطــارات، والطيّارون، والمشــاة، والأطباء، وأصحــاب المتاجر والعاملون فــي المتاجر، والســياح، والأطفال، والكبار، والمسنون المتقاعدون، والمزارعون، ورجــال الإطفــاء. كان بها أيضا مطــار بمدرجاتــه، وطائراته وأبراج مراقبته، وبواباته، والمســافرين. كان بها البرلمان الموجود فــي لاهــاي، والكاتدرائية في أوتريتش. وكان بها ســوق آلكمار للأجبان الشــهيرة، ومتحف رايكس بأمستردام، وجسر روتردام، ومحطــة قطارات جرونينجن، ومنارة جزيــرة آميلاند... وفجأة ظهر أمام عقلي شــيء: لقد رأيت نفســي جالسة على مقعد في متنزه «فونديل» كفراشــة في ألبوم للصور، أو معبرة عن إعجابي بلوحة بحجم ظفر طفل في متحف رايكس. كنت أنتقل بعقلي من أمستردام إلى مادورودام، ومن مادورودام إلى أمستردام. وفجأة

أدركــت أنني أعيش في أكبر بيــت للدمى في العالم. رفضت أن أنظر عبر النافذة. ماذا سأرى؟ لا شيء سوى أوسع بؤبؤ عين في أوسع عين طفل.

بعــد ذلك قد أغيــر منظوري وتصبح أمســتردام «من أجمل مــدن الدنيا»، و«زهرة الصحراء». تخطــر ببالي رياح الصحراء وهي تســتوعب رمال الصحراء غير مبالية، وتطحنها بأسنانها، ثم تصقلها بألسنتها الملتهبة، وتخرج زهرة من الصخر. في الأيام الماطرة عندما تهبط السماء هبوطا كبيرا كأنها تلامس السطوح، تلف الزهرة الصخرية حلة داكنة بغيضة. لكن حين ترتفع السماء، فإن الزهرة تمتلئ بالضوء، وتشع ببريق، يتركني مبهورة الأنفاس.

في الجزء الأكبر كنت عدّلت نبضي على نبض المدينة، وتابعت حياتــي. كنت أذهــب إلى الســوق، وابتعت الســمك، والفاكهة، والخضار، وعينات مختلفة من الجبن الهولندي؛ وواصلت حضور أحدث الأفــلام؛ وراقبت النــاس في المقاهــي؛ وزرت المعارض والمتاحف. وأبدت الحياة طبيعيتها، واســترخيت من جديد. كنت أسكن في قلب مدينة أمستردام الذي، أو هكذا تراءى لي أحيانا، تدفــق نهرا من الحلوى أكثر مما تدفق من الدم. قد تكون غريزة البقاء هي الصمغ الــذي أبقى قلبي ملتئما، وجعلني أظن أن كل شيء كان «طبيعيا».

١١

نحن روادٌ،

جنود شجعان وحقيقيون.

ننبت على مر الأيام

مثل العشب من جديد.

واصلت الاعتقاد بأنه كان لدينا الوقت لمعرفة الحقيقة، لكن الفصل الدراسي الأول انتهى قبل أن أدرك الأمر. وبما أن نهاية الفصل تزامنت مع عيد ميلادي، اقترحت أن نخرج جميعا ونحتفل بالمناسبتين معا. كانت لدي تذكرة طائرة للذهاب إلى زغرب، حيث يفترض أن أمضي أسبوعا قبل العودة من أجل التحضير للفصل الدراسي الثاني.

اختار الطلبة حانة هولندية قديمة بالقرب من محطة القطار الرئيسية. كان أحدهم يعرف صاحبَ الحانةِ. كانت الحانة تكاد تكون فارغة: فلم يوجد بها أكثر من ثلاثة أو أربعة من الزبائن الدائمين جالسين عند المشرب، وهم سكارى.

قال داركو: «انظروا. سيكون المكان لنا فقط».

أحضرت ميليها علبة من الكعك البوسني الأصلي صنعته والدتها. قدم إيجور ونيفينا، وسليم (وجميعهم كانوا يعملون في الوزارة)، قدموا لي مصنوعات جمعوها في أثناء العمل: قيدا لليدين مخفيا في حزمة من الأزهار الصفراء من إيجور، وطوقا من الجلد بمسامير معدنية من سليم، وسوطا أسود ملفوفا بورق

بنفسجي ومزينا بشريط أحمر من نيفينا.

قال إيجور وهو يقبل يدي: «عقبال المائة عام، يا رفيقة ماكارينكو! الآن لديك كل ما تحتاجين إليه».

سألت نفسي مستغربة، أين اكتشف إيجور ذلك الاسم، فعملا «ماكارينكو» عن الأحداث الجانحين في الاتحاد السوفييتي «الطريق إلى الحياة»، و«قصيدة تعليمية»، قد نُسِيا منذ زمن طويل حتى في موطنهما الأصلي.

كانت جوهانكي قد ذهبت إلى متجر أطعمة معلبة بوسني في روتردام كي تشتري الأفاري المقدوني كثير التوابل، وشوكولاتة نبابوليتنكا المحشوة، وكيسا من بن ميناس، وضعتها كلها في صندوق ثم لفته وكتبت عليه: «صندوق الإسعافات الأولية لمن يعانون الحنين إلى يوغسلافيا»، قدم لي آنتي نبتة روزماري، وقدمت آنا نسخة من مبادئ القراءة الأولية ليوغسلافيا ما بعد الحرب. تساءلت: إلي أي مسافات ذهبت لإحضار تلك النسخة... إلى أمستردام؟

حضر أيضا ماريو، وبوبان، وداركو، ويوروش. وحتى آمرا، الأم الشابة، جاءت لفترة قصيرة، برغم أنها لم تحضر أي محاضرة في الفصل الدراسي تقريبا. وقد حضر زول لمدة وجيزة، وهو الشخص الذي كان قد ادعى أنه يسكن مع أحد المثليين ليتجنب الطرد من هولندا، كذلك فعل لاكي، الذي كنت قد نسيته تماما.

أحضر آنتي آلة الأكورديون، بينما كانت أقداح البيرة ينفد منها الشراب وتعبأ من جديد ببهجة غامرة، شرع آنتي في التحدث عن إسهامه المعجز في الأغاني الوطنية، وأغاني المدينة

الشـعبية، وأغاني الحب البوسـنية، وحفلات الرقص الصربية، والمقدونية، والقصائد الغنائية من مقاطعة ميديموريان، والطرب الدلماسي، ورقصات البولكا، وبعض الألحان المجرية، والغجرية. كان يعــرف كل القديم المفضل: «إمينا»، و«بليانا تنظف الفرش»، و«يا لشــعرك الشديد السواد، يا حبيبتي»، و«كنت زهرة»، و«كان لأبي مهريــن»، و«فتاة بليتشــا،» و«من فاردار إلــى تريجلاف»، وحالما بدأت الموسيقى تحرك ذكرياتهم، سالت المقاطع والألحان الواحد تلو الآخر، وســرعان ما بــدأ الحضور التنافس على من يتذكــر أكثر من الآخر. بدا الأمر كأنــه برنامج مكثف في تاريخ الأغنية الشعبية اليوغسلافية. عرجنا على أعياد أوباتيا سنة تلو الأخرى: زدينكا فوتشــكوفتش، وآيفو روبتش، ولولا نوفاكوفتش، ولادو ليســكوفار، وزفونكو شبشــيتش، وديــوردي ماريانوفتش، وليوبكا ديميتروفســكا... لقد استمتعنا كثيرا لمجرد نطقنا بتلك الأسماء بشكل جماعي.

«أتذكر عندما غنت لــولا نوفاكوفتش: لم تأت قط لتقدم لي يدك، وردد اليوغسلاف بصوت عال من ورائها، طبعا لأن الجميع يعرف من الذي لم يأت».

«لا أعرف. من كان ذلك؟».

«لماذا؟ أيها الغبي! إنه كيون جويكوفتش».

تدخلت بينهما مقاطعة وســألت: «ولكن كيف لك أن تعـرف؟ لم يكن معظمكم قد ولد بعد».

أجابوا جميعا بصوت عال: «نحن لدينا جينات يوغســلافية، يا رفيقة، أتذكرين ذلك؟ تلك الجينات تتولى الأمر».

كان آنتي يغذيهم بمزيد من الغناء، وكانوا يلتمسون منه المزيد: «أحسنت يا آنتي! آنتي، ماذا عن...».

وأخيــرا وصلوا إلى أغاني «ديوردي بلاشــيفتش» بين الحلوة والمــرة، والتي كان يُظن أنها من الأغانــي التي تنقص من الكآبة اليوغسلافية البائسة، ثم انتقلوا إلى أغاني «الروك» اليوغسلافية الشهيرة تاريخيا، مثل المؤشرات والأزر الأبيض، وآزرا. وفي أثناء إحــدى فترات راحة آنتي، قمنا بجمع كلمات قسّــم الرواد التي تقول: «أقسم بشرفي أن أحافظ على مكتسبات الوطن»، والنشيد الوطني اليوغســلافي: «أصغوا أيها اليوغسلاف! سيبقى صوت أجدادنا مدويا طالما بقيت قلوب أحفادهم تنبض بعنفوان»، الذي قمنا بإنشاده بلحن مقطعي جديد. جمعنا قائمة بكل الموسيقيين الذين كتبوا ألحانا نُعتت بالشعبية، وذاع صيتها في السبعينيات، والذين كتبوا اللون الموسيقي الشعبي الذي أعقبها. وقد ضحكنا بصخب حول أسخف المقاطع الهزلية:

اشترِ لي سيارة، يا أبي. وكذلك برتقالات.
أو اشترِ لي دبا صغيرا مباشرة من حديقة الحيوانات.
اشترِ لي أرنبا أو حلوي أو كرة.
لا، اشتر كل شيء . فأنا أريدها كلها.

بمجرد أن وصلنا إلى الأرنــب، والغدير، حتى ولجنا طفولتنا الثانيــة. فذرفت نيفينا دمعة عند ســماعها «والآن يبكي الأرنب المســكين وينتحــب ...»، وتابعنا الحديث لنصل إلــى التلفزيون

اليوغسلافي، فسردنا أولا وقائع برامج الأطفال: حرفا بحرف، وميندو وسلافيكا، ونيفين وقاطني الضباب، ثم أوائل المسلسلات الأمريكية «بيتون بليس»، و«داينستي»، و«دالاس»، وكذلك المسلسل البولندي كابتن كلوس، والمسلسل السوفيتي كابتن شتيتليتز، والمسلسل التشيكي مستشفى الضواحي. ومن هناك انتقلنا عائدين إلى عهد المغنية رادميلا كاركلايتش، التي كان من الممكن أن تكون أما أو جدة لنا، وعرجنا على أغنيتيها «زومبان زومبا، «سمكة القد المملحة»، وممرنا بكل النكات العرقية: النكات البوسنية (عن ميهو وميوجو، وفاتا وسوليو)، وتلك التي من مقاطعة فويفودينا الصربية (عن لالا)، والسلوفينية (عن جانيز)، ونكات الجبل الأسود، والدالاما، ومقدونيا. وقلدنا الطريقة التي يتحدث بها الألبان الكوسوفيون (لغتنا) (عندما أحب أقبّل، وعندما لا أحب أقتل)، وكل اللكنات المحلية. لم يكن بمقدور أحد إكمال جملة من دون تدخل شخص آخر. لقد كانت جلسة ثرثرة مطولة عن الحياة في يوغسلافيا. ظللت قلقة من أن تنفجر حقيبتنا البلاستيكية - ذات الخطوط الحمر، والبيض، والزرق - وتنفجر معها المؤسسة الجدية التي أسسناها لمتحفنا الافتراضي عن الحياة اليومية في يوغسلافيا.

و لم يتحاشوا الحديث عن الحرب أيضا.

(ثمة شيء خطأ جدا من أساسه في لغتنا، فهي بدل أن تقول: «الطفل نائم بارتياح» أو «الطفل نائم بعمق»، تقول: «الطفل نائم نوم القتيل».

«هذا هو الذي قاد إلى الحرب».

«ماذا تعني؟».

«إذا اعتقدت أن طفلك على وشك أن يذبح، فما عليك إلا سحب سلاحك وإطلاق النار مباشرة».

لم يعرف طلبتي أنني كنت سمعت الشيء نفسه من بعض المهاجرين اليوغسلاف، حتى أنهم ذكروا أن ذلك كان السبب الرئيس لتركهم وطنهم. (لماذا رحلت؟ لأن الأطفال في اللغات الأخرى ينامون النوم فقط، بينما أطفالنا ينامون نوم القتيل).

في تلك اللحظة شعرت بموجة من الشفقة تغمرني؛ في تلك اللحظة شعرت بالرثاء لهم، وأحببت كل شيء يخصهم، الطريقة التي ينظرون بها، والأشياء التي يقولونها، والطريقة التي يتحدثون بها عنها... كانوا هم أطفالي. وبينما كانت عيوني تتنقل بينهم، كنت التقط صورا فورية لأبرز ملامحهم: أصابع سليم الطويلة بشكل غير عادي، والناعمة، وطريقته العصبية في ضرب ذراعيه كالأجنحة، ووجه ميليها عندما تجتاحه ابتسامة كالزيت، والشق العميق بين حواجب آنا، الذي يكاد يكون وسمة، وجفون يورروش القلقة نصف المغلقة برموشه المبيضة، ورأس نيفينا الذي يلتوي التواء رابطة العنق قبل أن ترفع عينيها. كنت الوحيدة التي ليس لها صورة كاميرا فورية: فالمكان الذي حُجز لي على الطاولة كان فارغا، مجرد فجوة.

ارتفعت حرارة المجموعة كارتفاع رغوة البيرة. لا بد أننا جميعنا، فقدنا عقلنا مؤقتا. لم يكن لدينا فكرة أين كنا. في اجتماع للرواد؟ في مهرجان حزبي؟ في رحلة مدرسية ميدانية؟ وفجأة بسبب التناول المفرط للشراب، أو الإثارة المفرطة،

أو الإرهاق، أو شيء من الاسترخاء الجماعي - انفجرت ميليها في البكاء. حذا آخرون حذوها، أو شعروا بغصة في حناجرهم. تولد لدي إحساس بأننا شربنا الكأس حتى الثمالة، وبأنه بين لحظة وأخرى، قد تنقلب تلك اللحظة العاطفية للجماعة إلى شيء آخر.

وهذا ما حصل بالفعل.

يوروش، الذي كان من الواضح أنه شرب أكثر من الآخرين، وقف ونادى بأعلى صوته: «أرجو الهدوء من الجميع، أرجو الهدوء. سأقول شيئا».

بدا وجهه شاحبا، وترنح قليلا وهو يحاول التقاط نفس عميق.

في أرض فلاحين
في جبال البلقان
في يوم واحد
جاء موت شهيد
لمجموعة من الأطفال.
الكل أتى إلى هذه الحياة
في السنة نفسها.
الكل ذهب إلى المدرسة نفسها،
الكل حضر
الاحتفالات نفسها؛
الكل أخذ
اللقاحات نفسها،
والكل مات في اليوم نفسه.

استمعنا له من دون النطق بكلمة واحدة. كان «آنتي» يعزف أغنية وطنية «جبل كونيوه».

وخمس وخمسون دقيقة
قبل تلك اللحظة المشؤومة
كانت مجموعة الأطفال
جالسة على مقاعدها
يجهدون في حل مسألة حساب صعبة
كم يستطيع المسافر أن يقطع
إذا مشى بسرعة...؟
وهلم جرا.

كان ذلك مشهدا مؤلما من «حكاية دموية» للشاعرة «ديسانكا ماكسيموفتش» التي كانت تحفظها أجيال من تلاميذ المدارس عن ظهر قلب في يوغسلافيا السابقة. كانت تلك القصيدة مقررة في كل الكتب الدراسية والمختارات الأدبية، وكانت تنشد في «المناسبات الرسمية»، والاحتفالات والاجتماعات المدرسية. كانت تعالج حدثا وقع بالفعل، فالألمان أعدموا فعلا فصلا كاملا من التلاميذ في مدينة كراجويفاك سنة ١٩٤١، ولكن القصيدة فقدت قوتها نتيجة تكرارها المبتذل، وتحولت مع مرور الوقت إلى محاكاة ساخرة لا تعكس جوهرها. فسئم الناس سماعها. وبينما كان يوروش يجلجل في نشيده، تذكرت صورة تلفزيونية لشاعرة تبلغ من العمر تسعة وتسعين عاما، وهي ترتدي قبعة بحواف تكبر رأسها ثلاث مرات. كانت تجلس في الصف الأول

مصغيـــة إلى خطاب «ســـلوبودان ميلوســـيفتش» داعيا للحرب، وكانت مشرقة، وتومئ برأسها مثل مشعوذ غريب أو كلب آلي.

حفنة من الأحلام نفسها.
والأسرار نفسها،
أسرار الحب وحب الوطن،
تقبع دفينة في جيوبهم،
وجميعهم كانوا يظنون أن لديهم
كل ما يحتاجون إليه من الوقت
ليجروا تحت القبة الزرقاء
و يضعوا حدا لمشاكل العالم...

بدأ طريق هذه القصيدة البريئة من حدث تاريخي: وهو إعدام مجموعة من الأطفال أثناء الحرب. وما إن جسدت القصيدة ذلك الحدث، حتى أدخلت في المقررات المدرسية. وبعد مرور خمسين سـنة على ذلك؛ تحول مغزى تلك القصيـــدة المناوئ للحرب إلى عكســـه: فالابتســـامة التي منحتها تلك الشاعرة للزعيم القومي مثلـــت دعما رمزيا للحرب التي كان يشـــنها، وكل ما يتصل بتلك الحرب من معان. هنا في الحانة كانت أبيات تلك القصيدة تسيل من فم ذلك اللاجئ الشـــاب مثل لعاب كريه. يســـتحيل أن يكون الموقف أكثر ألما، وســـوءا. لقد فقد «يـــوروش» الغاية. على نحو مميت. ما إذا كنـــا أصغينا إلى يوروش بدلا من اختلاس النظر، فلن يكون ســـبب القصيدة، أو أداؤها هو ما صدمنا، بل الســـبب

الحقيقي هو أن يورِوش نفسه من صدمنا. لقد ثقب البالون الذي كان يجمعنا في الداخل، وتبخر حنيننا الجمعي واختفى. فانقلب سحر اللحظة إلى ذعر.

في صف أطفال تلو آخر
تشابكوا بالأيدي وغادروا الفصل،
ذاهبون من آخر حصة دراسية لهم
إلى كتيبة الإعدام مثل الخراف،
وكأن الموت لم يعنهم البتة.

وبعد إلقاء آخر بيت في القصيدة، انهار يوروش ساقطا في كرسيه. لم ينبس أحد ببنت شفة. كان الصوت الوحيد في المكان هو عزف آنتي الهادئ. أخرج يوروش ورقة نقدية من فئة خمسة وعشرين جيلدر، وبصق عليها ولطمها بجبين آنتي. سكنت آلة الأكورديون. أنزل يوروش يده وقبض بقوة على الكأس التي أمامه محطما إياها إلى قطع، ثم ضرب رأسه بالطاولة.

عندما رفع رأسه، رأيت نوافير من الدم تسيل على وجهه. سمعت صرخة مصدرها نيفينا، أو آنا، أوميليها. رأيت ماريو، وإيجور يرفعانه عن الطاولة ويسحبانه إلى الحمام. فقدت الإحساس وشعرت بانفصالي عن الواقع تماما. كان بمقدوري سماع الأصوات في المكان، ولكنها بدت آتية من بعيد.

-كان ذلك شبيها بفيلم بيتروفتش: «قابلت غجرا سعداء».

- ويوروش يؤدي دور بيكم فهميو.

– فهمي.

– منذ متى وأنت خبير بأسماء الشيبتار؟

– منذ متى وأنت تدعو الألبانيين بالشيبتار؟

– لماذا ينتهي «أهلنا» دائما إلى هذه المرحلة؟ لماذا نعمل دائما من الحبة قبة؟

بعد فتــرة عاد الجميع إلى وضعهم الطبيعي. بدا يوروش في وضع مقبول، فقد اعتنى إيجور، وماريو به جيدا، إذ مسحا الدم عن وجهه وضمدا الجروح بمساعدة من صاحب الحانة، ولفا يده بوشاح أحد الموجودين.

تلعثم يوروش قائلا وهو يغادر المكان: «آسف إن كنت...».

عندئذ عادت الأصوات إلى طبيعتها من جديد.

«أنتِ يا رفيقة! هل أنتِ بخير؟ تبدين شاحبة كأحد الأشباح». كان ذلك إيجور.

أومأت برأسي وطلبت كأســا من الماء. ثم جاء النادل ودفعنا الحســاب. وضعــت الهدايا في حقيبتي. ثــم غادرنا الحانة في صمت.

مررنا في وســط ضباب كثيف. بصعوبة كان يستطيع المرء أن يرى يده أمام وجهه.

«يا إلهي! ضباب شبيه بالظلمة!».

تمثلت استجابتي بأخذ عدة أنفاس عميقة فقط.

كان الطلبة ينظرون إليّ وهم يقفزون صعودا ونزولا ليحافظوا

على دفئهم، ومن ثم بدأوا في التفرق.

صاح ماريو من وسط الضباب: «أشعر كأني في أحد أفلام جون كاربنتر».

قالت ميليها من أجل تهدئة الخواطر: «انظروا إليّ! لا تنزعجوا كثيرا مما فعل يوروش. الحفلات البلقانية لها نهايات بلقانية».

تمتمت: «أنا بخير. سأراكم بعد أسبوعين».

سألت نيفينا: «ذاهبة إلى زغرب لقضاء الإجازة؟».

«نعم».

«متى؟».

«غدا».

قالت وهي تقبلني على خدي: «أتمنى لك إجازة سعيدة! أحضري بعض الشوكولاتة الطيبة من زغرب».

تواروا الواحد تلو الآخر في الضباب. وسرعان ما بقيت أنا وإيجور وحدنا. كنت ممتنة عندما عرض إيجور أن يوصلني إلى المنزل. حمل الحقيبة وبداخلها الهدايا، وأخذته من ذراعه واتكأت عليه، إذ لم أزل أشعر بالضعف.

كان الضباب بكثافة حلوى شعر غزل البنات. كان الألم الذي شعرت به أثناء ما قام به يوروش في الحانة يتلاشى تدريجيا أمام بهجة أمستردام وسحرها الطفولي.

همس إيجور: «الضباب يتماشى مع أمستردام، أليس كذلك؟».

«لماذا تتحدث هامسا؟».

رد مرتبكا: «إنه الضباب».

نظرت إليه. وجدت ارتباكه مؤثرا. كان الضباب مثيرا. أشبه بتخيل طفل عن اختفائه في الأثير الرقيق. الآن أنت تراني، الآن أنت لا تراني. ذلك مغر ومرعب في الوقت نفسه، مثل قبعة الإخفاء في الحكايات الخرافية الروسية.

قال مستفسرا: «ما الأمر؟ لماذا تنظرين إليّ هكذا؟!».

«يا لك من طفل رائع!».

«أنتِ الطفلة! أراهن أنه ليس لديك فكرة أين أنتِ».

«ذكرني».

«في بلدة ماكوندو الخيالية».

«لماذا ماكوندو؟».

«أتتذكرين كيف أن الجميع في تلك البلدة توقفوا عن النوم فجأة وفقدوا ذاكرتهم تماما؟ لذا كان عليهم أن يلصقوا على الأشياء أسماءها، وكيفية استعمالها لمعرفة التعامل معها. أتتذكرين أيضا كيف اخترع آركانديو بوينديا آلة الذاكرة؟».

بدا كل شيء من حولنا ساكنا. لم يعد هناك المزيد من الحواف الحادة. كل شيء كان ناعما، الأصوات، والتعبيرات، والأضواء. كل شيء هادئ، في مستوى منخفض، ويحبس أنفاسه. كان علينا عمليا أن نتلمس طريقنا عبر الضباب. كل شيء كان وهميا.

«كلا، لا أتذكر».

«أتتذكرين من أنقذهم؟».

«كلا، لا أتذكر».

«ذلك الغجري ميلقودیادس، الذي عاد من عالم الأموات وأحضر لهم ماء محلى بالسكر في زجاجات صغيرة».

«كوكا كولا؟».

رأيت رجلا بعينين ســوداوين، لامعتــين، مائلتين ميلا خفيفا تحملقان فيِّ من خلال الضباب. كانت شــفتاه الكبيرتان رطبتين ومنتفختين، وكان جسمه مشدودا كوتر . بدا كأنه يرتجف.

بدت صورة تبزغ في ذهني كأنها من ماض تم نســيانه. رأيت نفسي متعبة، (...).

قلت لاهثة وأنا أنسل إلى مدخل منزلي: «تصبح على خير».

الجزء الثاني

اتصلت بي قائلة: «سأحضرك من المطار»، أجبتها: «لا تكلفي نفسك. سآتي بسيارة أجرة». لكن عندما نزلت من الطائرة، شعرت بوخزة خيبة الأمل: لأنني لم أر وجهها هناك. جال في خاطري، أن الدولة الأجنبية هي الدولة التي لا يستقبلك فيها أحد في المطار. كنت مندهشة من حساسيتي هذه: فهي طفولية إلى حد كبير. ولم يكن لدي الوقت لأرتدي ترسا يحميني من ذلك.

أقسمت أن أكظم كل «عواطف المهجر»، لقد كنت مدركة لقائمة الشكاوي المألوفة، «لا أحد يستفسر عن حالنا، فهم يتحدثون عن مشاكلهم فقط» (ماريو). «نحن» من غادر الوطن، و«هم» من بقي هناك، «فهم» يعيشون «هناك»، ونحن نعيش «هنا»، «إنهم» الأكثر معرفة بالأمور. وهم يقاطعوننا بمجرد أن نفتح أفواهنا، إذ إن لديهم رأيا في كل شيء. (داركو). «لماذا ينبغي أن يكون لهم رأي في كل الأمور؟»، «عندما يتحدثون يعطون الانطباع أنهم يعرفون أمستردام أكثر منا، على الرغم من أن أقدامهم لم تطأها قط» (آنتي). «لا يتوقفون عن الشكوى من سوء الأمور عندهم، ومحاولة جعلي أشعر بالذنب لتركي الوطن» (آنا). «كلما عدت إلى الوطن، أشعر وكأني أشيع جنازتي» (نيفينا). «أشعر وكأني كيس للتدرب على الملاكمة، إذ أتوجع في كل أنحاء جسمي» (بوبان). «اعتدت أن أمثل شخصية بابا نويل وأحصل على كم هائل من الهدايا. كان ذلك يسعدني. أما الآن، فالأمور مختلفة» (جوهانكي). «لا أعرف كيف تسير الأمور هناك، فأنا لم أعد إلى هناك ولا توجد لدي الرغبة للعودة» (سليم). «لم أعد إلى هناك أيضا، فأنا أخشى من المواجهة» (ميليها).

تركت أمي باب شـقتها مواربا. تأثـرت بعمق تفكيرها: فقد كانـت تنتظرني على أحر من الجمر، وتخوفت من عدم سـماع رنة الجرس، أو من مشقة البحث عن المفتاح في مكان لا تتذكره، ومـن ثم الجري نحو الباب الذي قد لا ينفتح بسـهولة: فأنتِ لا تعرفين متى سيعلق القفل.

رمت بنفسـها بين ذراعي كطفل. («يا إلهي! تبدين كالخيال! أين تعيشين؟ في بنغلادش؟ لا، أنت تعيشين في دولة تزود العالم بالطماطم. بالمناسـبة، مذاقها سـيئ؟»)، أجلسـتني إلى طاولة المطبخ وبدأت تتحدث عن الأطباق التي حضرتها («لا، لا سأضع ذلك في طبق لك، لا تتحركي»)، وما إذا كنت أريد ملحا أو المزيد من هذا أو ذاك.

بـدت أقصر وأكثر ضعفا مما كانت عليه في آخر مرة رأيتها. زادت تجاعيدها وبدأت تفقد الشـعر في أعلى رأسـها. مجرد رؤية أعلى رأسها من خلال شعرها الأشيب الخفيف المتناثر أثار حنانا مؤلما في نفسي. يا إلهي، كم تقدمت في العمر!

كانـت لأمي موهبة فطرية في تحويل الناس إلى مراسـليها. فعلت ذلك مع كل من كان حولها – معي، ومع أهلها، وأصدقائها – ولـم يعترض أحد ولو بكلمة واحدة. لقد كنت صفحة صغيرة، مطيعة في بلاطها، أو على الأقل هكذا نظرت إلى نفسي. اعتادت أن تمطرني بألفاظ محببة من أسـماء الدلـع – فكنت «نحلتها الطنانـة»، و«فطيرتها بالتفاح»، و«ضفدعتها الغنية»، و«أنسـتها السـمكة» – لكنها لم تخصص لي وقتا كافيا قط. كانت تراقبني طوال الوقت، ذلك كل ما في الأمر: فهي لم تكن تعيرني اهتماما،

بل كانت تعتني بــي. وبالرغم من أنها غالبا ما كانت تتركني في رعايــة الآخرين - من الطلبة، وربات البيوت من الجارات، وفي الرعايــة النهارية مع «الخــالات»، فإنني كنــت دائما أنضم إلى «النشاطات التي تعقب المدرســة»، وكنت أنتظرها بفارغ الصبر لتأخذنــي. في إحدى المرات نســيت أن تأخذني من مستشــفى حيث أجريت لي عملية بســيطة. أتذكر جلوســي على الســرير طوال الليل، مرتدية كامل ملابســي، متظاهرة بالشجاعة، بينما كنت أتقطع مــن الداخل: متخوفة من عــدم رؤيتها مرة أخرى. جاءت في صباح اليوم التالي. رفضت أن تدعني «أهوِل» من هذا «العبــث»، وفي آخر الأمر، تربي عنــدي التعود على تدبير الأمر مــن دونها. كنت قد أصبحت «ضفدعة أمي الغنية المعتمدة علي نفســها»، لقد كانت تكد في العمل. كانت عالمة اقتصاد، وانتهى بها الأمر مديرة لأحد البنوك. كانت أيضا تتنقل جيئة وذهابا بين العديد من العشــاق الثابتين، وزوجين. وفي خضم ذلك كله كنت أنا - صغيرة أمها التلميذة الذهبية - و«كنز أمها الوحيد».

والآن كانت تتابع الحديث بابتهاج مصطنع عن الجيران الذين لم تعرهم ســابقا أي اهتمام البتة، والأقــارب الذين لم تتحدث عنهم ســابقا قط، وعن أناس لم أسمع بهم من قبل إطلاقا. كان هذا التقرير الطويل، والمفصل، طريقتها في ملء الفراغ، وإخفاء حقيقة أنه لــم يعد لديها إلا القلة القليلــة من الأصدقاء، وكان طريقتها في إبعاد شــبح الموت، وتجنــب مواجهة حقيقية معي، وتخفيــف الألم الناتج عن زيارتي، التي هي بمنزلة بداية لرحيل وشيك، ومحو الزمن الذي انقضى منذ زيارتي الأخيرة - خلاصة

القول، كانت طريقة «لوضع الأمور في نصابها»:

«هل تذكرين السيد شارتش في الطابق الثاني؟ لقد مات أخيرا».

«ما سبب موته؟».

«سكتة قلبية».

«يؤسفني سماع ذلك».

«وعائلة بوشيفيتش في الطابق الثامن - لقد فقدوا ابنهم».

«ما الذي حدث؟».

«كان حادث سيارة. لن تستطيعي التعرف على السيدة بوشيفتش. تبدو أكبر من عمرها بعشرين عاما، إذ غزاها الشيب بين ليلة وضحاها. ولكن أصغي إلي، فأنا لم أخبرك إلا بالأشياء الحزينة، ومازال في جعبتي أخبار سارة أيضا.

لقد كانت تختبرني، وتجس وضعي العاطفي. هل سيكون ذلك مقبولا أم سيكون عليها أن تؤنبني؟ («أنت لا تعيرين جيراننا أي اهتمام»، وكأنها كانت تفكر بهم طوال الوقت). لقد جاء هذا الاهتمام بالمشاعر مع التقدم بالعمر، فهي اعتادت أن تهزأ من الذين يعبرون عن عواطفهم.

انتصبت وغادرت الغرفة لبرهة قبل أن تعود بكراسة في يدها. وبفرحة طفل يريد أن يعرض لعبته الجديدة ناولتني دفتر «مذكراتها»، بدت في معظمها مجموعة من الأرقام.

«ما هذا؟».

«مذكراتي».

«ماذا؟».

«معلومات يومية عن مستوى السكر، فأنا مصابة بمرض السكر. على أن أقيس مستوى السكر يوميا».

«هل تعانين من ذلك كثيرا؟».

«إلى حد ما. لكنني مواظبة على إبر الأنسولين».

«لماذا؟».

«يقول الطبيب إنه من الأفضل أن أبدأ بجرعات صغيرة بدل الانتظار حتى تظهر الحاجة إلى جرعات كبيرة».

كانت تتحدث عن المرض بدرجة عالية من الحميمية والتفهم والاهتمام، وكأنه كلب أو قط أليف تقتنيه في المنزل. كانت تشير بإصبع منتفخ قصير إلى التواريخ المختلفة مفسرة لماذا قفز مستوى السكر في بعض الفترات بينما عاد إلى المستوى الطبيعي في فترات أخرى.

قالت: «سأريك كيف أقوم بقياسه». ثم أضافت على عجل: «كم ستقضين هنا؟»

«أسبوعا».

قالت وهي تزم شفتيها: «ستكونين مشغولة جدا».

«ماذا تقصدين؟».

«عليك أولا أن تحصلي على بطاقة هوية جديدة لسبب واحد. يوجد نظام جديد. طوابير الانتظار رهيبة. يقف الناس طوال اليوم. كنت قد أغمي علي تقريبا أثناء قيامي بذلك. ثم عليك الذهاب إلى محام بشأن شقتك، وعليك أيضا الحصول على بطاقة جديدة للتأمين الصحي. هناك نظام جديد لهذا أيضا. إنهم يغيرون القوانين باستمرار».

أجل، فهذه الثرثرة المستمرة تعد إشارة إلى أنها تعلمت كيف توظف الكلمات كقناع تغطي به خوفها، على الرغم من الغموض الذي يلف ذلك.

عندما فتحت الدرج في خزانة الأواني الصينية لتريني شكل الهويات الجديدة، رأيت صورة لي ولجوران في برلين، في المكان الذي احتفظت فيه بصور العائلة.

قالت وهي تتابع نظراتي: «ينبغي أن تقومي بزيارة والدي جوران. إن ماركوس ليس بحالة مطمئنة».

نظفنا طاولة الطعام وغسلنا الأواني. ثم فتحت الحقائب وأعطيتها الهدية التي أحضرتها لها، وهي معطف شتوي للاستخدام داخل المنزل، وأخفاف. وأثناء وضعها للمعطف في خزانة الملابس، أرتني الملابس التي ابتاعتها منذ آخر مرة رأيتها.

«لقد ابتعت عددا ليس بالقليل من الأشياء الجديدة، وليس عندي أي مكان أذهب إليه لأتباهى بها». تنهدت قبل أن تقول: «ارتديت هذه القطعة مرة واحدة فقط، في عيد ميلادي».

بعد ذلك جلسنا نشاهد المسلسل التلفزيوني البرازيلي. كانت أمي تحاول دون جدوى أن تجذب انتباهي إلى قصة المسلسل. كان جلوسها أمام الشاشة لساعات طويلة ومتابعتها لمصير ماريسول، وكساندرا أو أيا كانت الأسماء - كان ذلك مثله مثل الثرثرة، استراتيجية للدفاع عن الذات. كان لديها ثلاثة أجهزة للتلفاز - واحد في غرفة النوم، والثاني في غرفة المعيشة، والثالث في ما سمته «غرفة الضيوف»، هذا الانغماس الكامل في عالم المسلسلات التافهة، هذه الهستيريا، والغيبوبة التلفزيونية، وهذا

الرفـض المطلق لمواجهة الواقع، كلها جـاءت مع الحرب، عندما انسل الواقع خفية إلى داخل المنازل على شكل ترجمات تلفزيونية تافهة، بل إنها أكثر تفاهة من كلام «ماريسول» أو «كساندرا» في أدوارهما. تلك كانت كامل المسـاحة التي سمح بها، إذ أصبحت المسلسلات التلفزيونية الماء الذي استخدم في إطفاء نار الخوف، والذي كان ينبغي اسـتخدامه مرتـين يوميا في معية الأصدقاء، ليعطي مفعوله. كانت أمي تشاهد المسلسلات في معية اثنتين من جاراتها: فاندا، والسـيدة بودين، إذ أصبح ذلك المخدر البرازيلي إدمانا بالنسبة لهن.

غدت أمـي، التي كانت تنكمش عند مجـرد التفكير بالتودد للجيـران، لا تسـتطيع التوقـف عـن التحدث عنهـم، وأصبح بمقـدوري معرفة مكانتهم العاطفيـة عندها من خلال طريقتها بالإشـارة إليهم. فإذا ما أشارت إليهم «بالسـيد»، و«بالسيدة»، («تقول السـيدة فرانسـيتش في الطابق الخامـس إن البترول الكرواتي قـد بيع إلى الأمريكان»)، أعـرف أن لها علاقة طيبة بهم. وإذا ما أشـارت إليهم «بجيراني» («جارتي فاندا متشـوقة لرؤيتك»)، أعرف أن لها علاقة حميمة بهم. أما إذا أشارت إليهم باسم العائلة فقط («ماركوفتش في الطابق الثالث في حالة سكر طـوال الوقت»)، أعـرف أنهم من غير المحببـين لها. لقد كونت تدريجيـا عائلة لها من الناس الذين حولها. («قد لا يكون هناك أشخاص ذوي شأن، لكن المتسولين لا يمكن أن يختاروا. ليس لمن في عمري. فإذا ما حدث شيء لي، فسيكونون موجودين حولي، بينما أنت»)، كان ذلك أهـم اتهام يمكن أن توجهه لي، فوالداها

قضيا منذ زمن بعيد، وشقيقها مات منذ عشر سنوات، وزوجها قتل في بداية الحرب، ثم جاء سفري لأبقى بعيدة عنها.

كانت تصدق أنها لم يعد لديها آراء، وهي التي كانت في الماضي لها رأي في كل شيء. بينما كانت في الماضي لا تعير اهتماما كبيرا لآراء الآخرين، بدت الآن شغوفة بها («تقول السيدة فيريتش إن أمستردام أصغر من زغرب»)، طبعا، كان الأمر تمثيلية برمته. كان الأمر وكأنها تجلس في كرسي متحرك غير مرئي، طالبة الاحترام لحالة إعاقتها، ومانحة رضاها عمَّن يتجاوب معها.

قالت: «ستأتي فاندا في الساعة الخامسة. ربما تريدين الاستحمام وتغيير ملابسك».

امتثلت فورا للذهاب إلى الحمام للاستحمام وتغيير الملابس.

بينما كنا ثلاثتنا نشرب القهوة، تلت أمي على فاندا تقريرا مشوقا حول حياتي في أمستردام.

تقول تانيكا إن أمستردام واحدة من أجمل مدن الدنيا. لقد شاهدت أخيرا برنامجا تلفزيونيا وثائقيا عنها، وأستطيع القول إنها أجمل حتى من مدينة البندقية.

تانيكا تقول هذا، وتانيكا تقول ذاك. مثل الأمر طريقة للتواصل معي وطريقة لمتابعة الدردشة مع فاندا على حد سواء.

بعد أن ذهبت فاندا، تجولت في الشقة. امتدحت الخزانة الجديدة في الحمام ولفت نظر أمي لضرورة فعل شيء فيما يتعلق بالبقع الصفراء في سقف الحمام. رفعت رأسها. كان السبب تسربا من حمام عائلة آيفتش، ولم يكونوا في عجلة من

أمرهم بشـــأن إصلاحه. هكذا كان الناس في الماضي، ومازالوا كذلك، فهم يتسببون بالإيذاء، ثم ينكرون أي علاقة لهم بذلك.

قلت: «سأتولى أمر هذه المشكلة».

تــوردت تقريبا من الفرح، وكأن عرضـــي عرض للزواج. فأنا من سيتولى الأمور، وأقوم بما ينبغي القيام به، أعتني بها. («لقد جاءت تانيــكا وتولت الأمور، شـــكرا لله. شـــكرا على أي حال، فتانيكا هي من ستتدبر الأمر»).

شـــاهدنا نشـــرة الأخبار وتحدثت لي بإســـهاب عـــن كل ما يتعلق بالتلفاز: عن مذيعة الأخبار، وعن المقدم الشـــهير لبرنامج المسابقات، وعن المسلسلات الجديدة.

قالت: «أنت منقطعة عما يجري بالكامل. يبدو وكأنك قد غبت مائة عام». لم تكن تلك تهمة، بل حجة من أجل ولوج حديث مطول. وقد كانت محقة. فأنا كنت منقطعة تماما عن مشـــاهدة التلفاز. على الأقل بدت الحياة على شاشة التلفاز مختلفة بالكامل.

تنهـــدت فجأة: «لا أعـــرف ماذا أفعل. لقـــد ارتفعت تكاليف الحياة كثيرا. ليس لدي إلا ما أتقاضاه من راتب التقاعد الضئيل، وينتابني القلق حتى حول مقدرتي علي تدبير الأمور. وقد أضطر لبيع الكوخ الريفي».

«امض في الأمر».

سألتني: «تقصدين أنك لن تنزعجي من ذلك؟».

كانت تختبرني مرة أخرى.

أجبتها: «لا يمكنني القول إنني لن أنزعج. لكن افعلي ذلك إن كنت تعتقدين أنه الحل المناسب».

«لكنه لك!».

قلت :«كلا، إنه لك أنت».

«إنه يقبع هناك طوال فترة الصيف دون أن نستخدمه. اعتقدت أنك وجوران ستعودان يوما وتحتاجان إلى مكان على البحر، مكان تقضيان فيه الصيف معا. لكن هذا الكلام لا يجدي نفعا الآن. أكره أن أرى ذلك الكوخ قابعا هناك هكذا».

كانت تزين القصة بعض الشيء. فأنا وجوران لم نستخدم ذلك الكوخ إلا نادرا. كانت العائلة هذا الوتر الذي طالما عزفت عليه. هي من كانت تقضي الصيف تلو الآخر هناك مع زوجها، حتى جاءته الأزمة القلبية وهما في الكوخ، وقد نأت بنفسها عن المكان منذ ذلك الوقت. في الحقيقة يقبع الكوخ هناك لهذا السبب فقط.

بعد المزيد من الحديث عن التلفاز مرة أخرى، وارتفاع الأسعار، قالت إنها متعبة، وذهبت للنوم. سرعان ما غرقت في نومها مثل طفل. أطفأت التلفاز والنور وذهبت إلى غرفتي، وهي «غرفة الضيوف».

وضعت وشاحا صوفيا يعود إليها على كتفي وخرجت إلى الشرفة، ورحت أحملق في الظلمة. فكرت بالنزر اليسير الذي بقي مني في هذا المكان، بعض الصور، وبعض الملابس، ليس إلا. الأمر ليس أن ذلك أوجعني. لماذا ينبغي أن أتوقع أكثر من ذلك؟ لطالما نلت مجرد النزر اليسير عندما كنا نعيش معا: فهي من كانت تحصل على حصة الأسد، وكنت دائما أحشر في زاوية ما.

والآن أنا موجودة في شظايا مجمدة تم اختيارها بعناية. هي من لها السلطة المطلقة في محيطها، فهي ترتب وتعيد ترتيب المحتويات وكأن الحياة معرضا للصور. كان سبب احتفاظها بصورتي مع جوران هو إبقاء العلاقة حية، فهي في دورها كمدير لأموال العائلة رفضت أن تعترف بانفصالنا.

نعم، لقد عدت إلى «المنزل»، ومازلت أمضغ ذلك الشعور مثل قطعة علك قديمة في محاولة لاستخراج آخر ما بقي من نكهتها. «المنزل» لم يعد «المنزل» الذي أعرفه، فكل ما بقي منه هو أمي. لم يغب جوران فقط، بل أصدقاؤنا أيضا. العديد منهم رحل إلى أماكن بعيدة في العالم، ومن بقوا لم يعودوا بعد أصدقاء. لم يكن لي أو لهم أي خيار في ذلك، فالأمر حدث وحسب.

متفحصة المباني التي بدت وكأنها تنظر إلى انعكاسها في مرآة الماضي، حاولت أن أفرغ ذهني. استمتعت بغرقي في الظلمة. ثم آويت إلى الفراش جارة وشاح أمي ورائي. غرقت في النوم ضامة ذلك الوشاح بين ذراعي وكأنه لعبة «الدبدوب».

قالت ميليها: «بعد رحيلي، لم أستطع حقا أن أربط الأمور معا بتاتا. لم أكن متأكدة من الوقت، أتعرفون ما أقصد؟».

كان الزمن بالنسبة إليهم مقسما إلى ما «قبل» وما «بعد» الحرب، وبينما كانت باستطاعتهم إعادة تشكيل فترة «ما قبل الحرب» دون صعوبة، فإن فترة «ما بعد الحرب»، والتي ضمت الحرب نفسها، كانت فوضى تامة. كانت أبسط الأسئلة كفيلة بجعلهم يتعثرون.

«هل تعني متى غادرت الوطن؟».

تلــك كانت الطريقة التي وضعوها، مختزلين، الأمر للقاســم المشترك الأدني.

«بالضبط».

«حسنا. لم آت إلى هنا مباشرة».

هذا ما حدث أولا، أم ذاك. بداية فعلوا ذلك وذهبوا هناك، وبعد ذلك جاءوا إلى هنا، إلى هولندا. خلت قصص المنفى من التاريخ. كانت التواريخ تسترجع بسهولة أكثر باللغة الهولندية لكثرة طلبها من المســؤولين الهولنديين. «متى أول مرة دخلت فيها إلى هولنــدا؟»، وعلى الرغم من درجــة إتقانهم العالية للإجابة عن ذلك الســؤال، كان المضمون الكامن وراءه يهرب منهم. كان «ما بعد الحرب»، زمنا أسطوريا حيث لم يعد هناك فــرق إن مر مائة عام، أو مائتان، أو ثلاثمائة. باختصار، لقد حدث الكثير من الأشــياء في فتــرة «ما بعد الحرب»، فجنت ســاعاتهم العقلية في ظل التوتر. كل شــيء جن، كل شــيء تصــدع، وقطع أربا. انقســم المكان والزمان إلــى ما «قبل» و مــا «بعد»، وحياتهــم إلى «هنا» و«هناك»، أمســوا فجأة دون شــهود، ودون والديــن، ودون عائلــة، ودون أصدقاء، وحتى دون المعــارف اليوميين الذين نعيد تشــكيل حياتنا في ضوء وجودهم باستمرار، وبافتقارهم إلى هؤلاء الوسطاء الفاعلين الحقيقيين، أعيدوا إلى أنفسهم.

كان الشــعور الذي تولد عندي لدى دخولــي الغرفة هو أنهم أوقفوا عقارب الساعة بكامل إرادتهم. لقد حاولوا إغرائي بولوج عالمهم من أجل تأجيل مســألة التفكير بالمــوت. لكن الموت كان

يحيــط بهم من كل صوب، لقد كان شــبحا متواريا. حتى الهواء نفسه كان ينفث رائحة الموت الكريهة.

كان بابا (والد جــوران) يرتدي بيجاما، وبرنس حمام متجعد مفكوك الحزام. برز أنبوب للقسطرة من سحاب البيجاما المفتوح. أدهشــني ما يرمز إليه ذلك من أنه لم يعد يســيطر على نفسه. بالكاد اســتطعت أن أعرفه بجسمه النحيل، ووجهه غير الحليق وبشرته الشاحبة، والبقع الســوداء الدائرية تحت العينين. بدت مامــا (والدة جوران) في وضع أفضل منه، إذ كانت ترتدي بلوزة جميلة، وزينت شــفتيها بأحمر الشفاه. لقد تأثرت بمحاولتها أن تريني أنها على الأقل لم تزل تمسك بزمام الأمور.

كنــت أناديهما بمامــا وبابا. عملت أولجا، وماركو في ســلك التعليم. جــاءت ولادة جوران في مرحلــة متأخرة من زواجهما. تخرج بابا فــي كلية تدريب المعلمين قبيل اندلاع الحرب، وانضم إلى الثوار. بعد انتهاء الحرب حصل على وظيفة مهمة في وزارة التربية الكرواتية. في العام ١٩٤٨ ارتكب زلة لســان سياســية، ومثــل كثيرين غيــره، تم ترحيله إلــى جزيرة «جولــي أوتوك»، الجزيرة القاحلة، حيث قضى ثلاث ســنين في الأشغال الشاقة. وبعد إطلاق سراحه، أرسل إلى مدرسة ابتدائية في قرية صغيرة نائية. لم يســتطع العــودة إلى «زغــرب» إلا عندما دخل جوران الجامعة.

تميز بابا دائما بالإيجاز، والتحفظ، فقد تعلم في تلك الجزيرة كيف يبقي فمه مغلقا. كان ذكر معســكرات الاعتقال، وفظائعها محرمــا حتى الســبعينيات، ولم يقل عنهــا الكثير حتى في تلك

الفترة. لذا، لاذ بابا بالصمت طوال حياته تقريبا. ومع ذلك، كان مســتمعا جيدا، ويطرح الأسئلة المناســبة. لم يكن يستعرض في حبه لجوران إلا قليلا، بدا وكأنه ترك تلك الوظيفة لماما. أعتقد أنه قد أحبني أيضا، بطريقته الخاصه.

فجــأة لــم يكن بمقــدورك أن تحصل على كلمــة واحدة من جانبه، فهو يتحدث من دون توقف طارحا الأســئلة ومجيبا عنها في الوقت نفسه.

«سمعت أنك تقومين بالتدريس. هل لديك العديد من الطلبة؟ مازلت أحاول إحصاء عدد التلاميذ الذين علمتهم خلال الثلاثين ســنة التي عملت فيها كمعلم، وهذا ينســحب على أولجا أيضا. لا أســتطيع أن أحدد كمية الوقت الهائل الذي صرفناه في ذلك، وصدقــي أو لا تصدقي أننا لم نصــل إلى أي نتيجة. لذلك قلت لأولجــا، يا أولجــا، إن لدينا عالم رياضيات فــي العائلة، أليس كذلك؟ اكتبي إليه واطلبي منه أن يقوم بالحسابات».

قالت ماما: «دعك من ذلك الآن. ثم التفتت نحوي وســحبتني قائلة: «تعالي وساعديني في المطبخ، من فضلك يا تانيا!»».

همست: «الآن ترين كيف تجري الأمور هنا».

لم أعلق على ذلك.

«كلام، كلام، كلام. مــن دون توقف. لقد توقفت عن الإصغاء له».

«لماذا يستخدم أنبوب القسطرة؟».

«لا تسألي. إنه مجرد... أحضري البسكويت من حجرة المؤن، من فضلك!».

لقـد تأثرت برغبتها في مشـاركة أسـرارها معي. فتحت أبواب الخزانة التي بجلتها باسم «حجرة المؤن»، أدهشني وجود غـلاف مجلة ملصق بطريقة يعوزها الإتقان على الباب. ظهر في الغلاف صورة تيتو في زي الماريشال. كنت أعتقد أن ماما وبابـا يكرهان تيتو بالرغم مـن أنهما لم يصرحا بذلك. والآن نجد «شانق» بابا مسترخيا في النعيم بين مؤنهم المتواضعة من أرز، ودقيق، وبصـل، وبطاطس. لقد قرروا أن يعيدوا تأهيله، في حجرة ماما للمؤن. من الواضح أنهم كانوا يفضلون سنوات حكم تيتو على الوضع الحالي، بالرغم من أنهم لم يجرؤوا على التصريـح بذلك علنا، تماما مثلما لـم يجرؤوا على التصريح بالعديد من الأشياء في عهد تيتو. سألتها وأنا أنزل الصندوق المعدني الـذي يظهر عليه صور الكعك: «متـى بدأت الثرثرة القسرية عنده؟».

«لا أسـتطيع تحديد ذلك، فقد بدأ بالتدريج. لكن أخيرا كان لا بد من أن ألاحظ ذلـك. فهو يتحدث للجدران عندما لا أكون في الغرفة. إنه يسـتمر في الكلام، ليـس إلا. لم يعد بمقدوري تحمل ذلك. هذا يتجاوز قدرتي، فقد سمعته ألف مرة، حتى إنني أتخيل سماعه يتمتم في نومه»، قضمت شفتها وأضافت: «أتمنى أن ينتهي هذا في أقرب وقت».

«مـاذا عن جـوران؟ هل يعـرف بهـذا الأمر؟ كيـف حاله، بالمناسبة؟».

«يمكنك الاطلاع على رسائله إن أردتِ».

«لا. ما نفع ذلك؟».

غادرت الغرفة لبرهة، ثم عادت وبيدها صورة.

«ينبغي ألا أريك هذا، ولكن ربما من الأفضل أن تعرفي».

ناولتني الصورة التي ظهر فيها جوران مع امرأة يابانية.

قلت: «جميلة».

قالت بارتياح: «اسمها هيتو. أنا وبابا ندعوها تيتو، على سبيل المزاح. تبدو جميلة، أليس كذلك؟».

عندما نظرت إلى الصورة مرة أخرى، شعرت بوخز من الغيرة.

تنهدت ماما.

«الحياة تستمر يا تانيا. لكن ليس لنا، فقد عشنا ما يكفي. لكن أنتم أيها الشباب تستحقون حياة أفضل، تخبرني أمك أنك على خير ما يرام في أمستردام».

«إنني كذلك».

«كنتِ دائما الأولى في صفك».

شعرت بأنها أرادت قول شيء آخر - قول، أنها كانت «بجانبي»، لكنها لم تستطع أن تجد الكلمات للتعبير عن ذلك.

«حزن جوران كثيرا عندما رفضتِ الذهاب معه».

«أعرف ذلك».

«الزمن يداوي كل الجراح، لحسن الحظ».

ظهر بابا عند الباب.

«ما الأسرار التي تتحدثان عنها هنا؟ لا أحب أن أترك وحيدا. وماذا تقصدين بقولك «الزمن يداوي كل الجراح»، «أنتن أيتها النسوة تتعلمن شيئا ما وترددنه كالببغاء في كل مكان. الزمن لا يداوي الجراح، إنه يصنعها».

قالــت له، وكأنهــا تتحدث إلى طفل: «أنــت تفرط في قراءة الروايات».

عدنا إلى غرفة المعيشـــة، وتناولنا بعض القهوة. فتحت ماما صندوق الكعك. كان الكعك قد صنع في يوغســـلافيا الســـابقة، فكان قديما جدا لدرجة أنه فقد نكهته بالكامل.

اســـتمر بابا في الثرثرة. ومن وقت لآخــر، كانت ماما تطلق ذراعا في الهواء وكأنها تطارد الذباب. ثم نهضت وفتحت التلفاز. بــدأ بابا يتذمر من أنها لم تعد تصغي إليه، بل إنها لم تصغ إليه قط، إذ كان شـــغلها الشاغل ذلك الصندوق التافه. خفضت ماما صوت التلفاز، إذ كانت تشاهد مسلسلا مترجما، ولم تكن بحاجة إلى الصوت.

عندما جلت بنظري في الغرفة، انتابني شعور بأن الأشياء قد تقلصت. بدت ماما وبابــا أصغر من حجمهما الطبيعي. بدا كل شيء أكثر قِدما أيضا، وبدت الأشياء رمادية ورثة، أشبه ما تكون بالنبتة الاصطناعية المكسوة بالغبار التي تقبع في الزاوية.

غمــرت كلمات بابــا الغرفة، كانت تصفي الحســـابات وتبرر الأفعال وتعبر عــن الغضب والاحتجاج. يــكاد أن يكون لكلماته واقعا فســـيولوجيا، إذ جاءت في مرحلة متقدمة من العمر، وفي غياب السيطرة على عمل المثانة. لم يكن يدرك أن الكلام يتدفق منه هكذا.

لم أدرك كم مضى من الوقت، لكن عند نقطة ما وقفت وكأني أصحو من حلم.

قلت: «حان وقت الذهاب. ستصنع أمي العشاء لي الليلة».

لم يحاولا ثنيي عن الذهاب.

قالت ماما معتذرة: «حسنا، أنتِ تعرفين الآن أي حياة نعيش هنا».

صاح زاجرا: «ما المشكلة في حياتنا! نحن نعيش أفضل من الناس في أماكن كثيرة. لولا أن الأمور أخذت منعطفا آخر، لكنا نعيش أفضل من الأمريكان».

ذهب بابا، وهو يلتقط أنفاسه، وأخرج ثلاث كراسات من تحت المنضدة التي وضع عليها التلفاز. كانت كراسات من القطع الكبير، ومثبتة يدويا.

قال لي: «ها هي، ألقي نظرة على هذه. إنها كتاباتي».

قبلت كليهما عند الباب. من الواضح أن بابا لم يرق له ذلك، إذ أفشلت شفتاه كل محاولاته لرسم ابتسامة. ذلك التعبير جعله يبدو كطفل تم التخلي عنه يبذل ما في وسعه للتغلب على تجاهله. لا بد أنه كان التعبير الذي بدا على وجهي عندما وصلت إلى المطار.

راقبتها وهي تخز إصبعها بإبرة وتسحب نقطة من الدم عبر قطارة صغيرة، ومن ثم تدخل القطارة بيدها المرتجفة عبر فتحة جهاز صغير، متتبعة الأرقام الظاهرة وتسجلها بعناية في دفتر يوميات مرض السكر: مسجلة التاريخ، والساعة، ومستوى السكر في الدم. راقبتها تلقي نظرة قلقة باتجاه ساعة الحائط وتفتح الثلاجة، ثم تخرج تجهيزات الإفطار وتضع كل شيء بإتقان على الطاولة: طبقين، وكوبين، وملعقتين، ومنديلين.

«اصنعي القهوة لنفسك. أنا لا أشربها بسبب مرض السكر».

سكبت بعض القهوة في حليب بارد.

«سخني الحليب. ألا تريدين تناول الإفطار؟».

«لا أستطيع».

تنهدت قائلة: «علي تناول الإفطار، فلا بد من أخذ وجبات منتظمة في أوقات منتظمة. هكذا يتم التعامل مع مرض السكر».

راقبتها تفتت الخبز بأصابعها كما يفعل الأطفال، وهذه عادة أخرى من عاداتها.

قالت فجأة من دون تفكير: «أنتِ تراقبينني. أشعر وكأني خنزير غينيا».

«ماذا تقصدين؟».

قالت مستخدمة ضمير الجمع: «أنت تراقبيني منذ أول يوم وصلت فيه إلى هنا».

قلت: «هذا ليس صحيحا».

التقطت كسرة طرية من الخبز وجعلت تعجنها مشكلة كرة منها. شعرت بغصة في حنجرتي. أوشكت على البكاء. وكانت ستبكي هي أيضا لو حدث ذلك.

«هذا يجعلني أشعر بأنك تلومينني لشيء ما. أنتِ تظنين أنني السبب وراء ترك جوران لك».

رحت أكرر لنفسي: «يجب ألا أسمح لنفسي بالوقوع في هذا الشرك. يجب ألا أسمح لنفسي بالوقوع في هذا الشرك».

قلت بكل ما أوتيت من رباطة جأش: «بعد الإفطار سنحزم متاع السفر ونتصل بسيارة أجرة». لاحظت أنني أيضا استخدمت ضمير الجمع.

سألت، منتقلة إلى مزاج الهجوم: «التوقيت في أمستردام هو

التوقيت نفسه في زغرب، أليس كذلك؟».

«طبعا إنه كذلك. أنتِ تعرفين هذا».

«إذن الساعة الآن الثامنة والنصف هناك؟».

«هذا صحيح، مع أننا نقولها بشكل مختلف في اللغة الهولندية».

«لا أعرف لماذا، ولكنني اعتقدت أن الوقت هناك يسبقنا بساعة واحدة».

«كلا، إنه التوقيت نفسه».

تنهدت، ثم اضافت: «حسنا، ينبغي أن تعرفي، لا أستطيع القول إنني مرتاحة لوجودك هناك».

«لماذا؟».

«تلك القنوات، أراهن أنها كريهة الرائحة».

«لا، أبدا».

«لكن مياهها راكدة. لا بد أنه تفوح منها رائحة كريهة».

«من الغرابة بمكان أن هذا لا يحدث».

«حسنا، من جانبي لا أود العيش هناك حتى لو دفعتِ لي راتبا».

«لم لا؟».

«لأن المطر لا يتوقف هناك أبدا، والقنوات تعج بالجرذان التي تسبح فيها».

«ما الذي أوحى لك بتلك الفكرة؟».

كذبت قائلة: «شاهدت ذلك على التلفاز».

«أنا لم أر جرذا واحدا».

«أنت لا ترين شيئا. تفكيرك دائما فوق السحاب».

فكرت في أن مـــا تقوم به هو من انفطار القلب. الحاجة إلى مضايقتي وأنا على وشـــك الرحيل. لقد كنت أتركها، وكان عليها إيجاد طريقة لمعاقبتي. في الماضي كان مثل هذا الشيء يدفعني للبكاء، ولكنني تعلمت كيف أحمي نفســـي. الآن تمر هذه الأشياء مثلما يمر الماء على ظهر بطة.

قلت، وقد نهضت متجهة إلى غرفتي:«سأحزم حقائبي».

تبعتني إلى الغرفة.

«أتريدين أخذ أي شيء كتذكار».

«مثل ماذا؟».

«لا أعرف. لدي بعض مربى الخوخ المصنوع في المنزل».

«أأنت من صنع مربى الخوخ؟».

«لا، إنها الســـيدة بودين. ولا أســـتطيع تناولها بســـبب مرض السكر».

قلت لإسعادها:«إذن سآخذها».

أحضرت جرة زجاجية في كيس بلاستيكي.

قالت وهـــي تعيد ترتيب الملابس فـــي الحقيبة:«يا إلهي، ألم تتعلمي كيف تحزمين الحقائب بعد؟ لفي حولها بلوزة، أو أي شيء آخر لئلا تتكسر. هل هناك شيء آخر؟ أي شيء من أغراضك؟».

قلت وأنا أغلق ســـحاب الحقيبة :«لست بحاجة إلى أي شيء آخـــر، يا أمي». نظرت إلى ســـاعتي ووجدت أنـــه لم يزل هناك متســـع من الوقت. «يمكنك أن تتصرفي فيما بقي من أغراضي. قد تستفيد منها فاندا».

«عندما أعود إلى الوطن، أشعر وكأني أشيع جنازتي» (حسب نيفينا).

تجاهلت ما قلته عن قصد.، صنعت فنجان قهوة آخر لنفسي.

سألتني: «كيف تستطيعين شرب تلك القهوة باردة؟ دعيني أسخنها لك».

«أحبها باردة».

«لطالما كان لك رأيك الخاص في الأمور، لماذا لم تتصلي بسيارة الأجرة؟».

«ما زال هناك متسع من الوقت».

«تتأخر سيارات الأجرة كثيرا في الوصول إلى هنا».

«ثمة الكثير من الوقت».

نظرت إلي، ثم خفضت عيناها. كان كلانا يكد في البحث عن أرض محايدة.

عرضت علي: «دعيني أقيس ضغط الدم عندك. أراهن أنك لم تقومي بقياسه من قبل قط».

قلت، على الرغم من انحباس أنفاسي من وقع المفاجأة: «هذه فكرة جيدة».

«عندما أعود إلى الوطن، أشعر وكأني كيس للتدريب على الملاكمة، إذ أتوجع في كل أنحاء جسمي» (حسب بوبان).

أحضرت كيسا بلاستيكيا، وبعناية أخرجت منه جهازا لقياس ضغط الدم. لفت الشريحة حول ذراعي الأيسر، وضغطت على الزر بيدها الأخرى. راقبت الأرقام تتغير بسرعة حتى استقرت مع أزيز الجهاز. لم تستغرق العملية أكثر من دقيقة. قالت، وقد

بدا عليها بعــض الذهول، لكنها احتفظت بهدوئها: «ضغط الدم عندك طبيعي».

رفعت عينيها لتلاقيا عيني.

«كان مجرد فحص عادي»، ســارعت للقــول مثل طفل مدان بالكــذب. «أردت أن أرى إن كان الجهــاز يعمــل. الآن أعطنــي ذراعك».

أعطيتها ذراعي. أمســكت أصابعها المنتفخة، بسبب تقدمها بالعمر، بذراعي ولفت الشــريحة حول الجــزء العلوي منه. كان الجهاز في حضنها. أمســكته بكلتا يديها، ثم ضغطت على الزر فظهر رقــم ثمانية مكررا ثلاث مرات. عندمــا اختفت الأرقام، ضغطت بعناية على زر التشــغيل. لم ننبس ببنت شــفة. شعرت بانتفاخ في ذراعي. أصغينا إلى أزيز الجهاز وتتبعنا الأرقام وهي ترتفــع وتنخفض في المقياس. عندما اســتقرت الأرقام، تولدت لدي رغبة مفاجئة بالبقاء في تلك الحالة، كما كنت وإلى الأبد.

قالت وهــي تنزع الشــريحة: «أنت طبيعيــة! لا داعي للقلق إطلاقا».

تلــك كانت قبلة الوداع بيننا. فقــد كان جهاز قياس الضغط بديلا مرئيا لشــيء غير مرئي، وهو حبل سري مخضب بالدماء، نضر، ولامع مثل ســلك معدني. كان ضغطنــا طبيعيا، ونبضات قلبينا منتظمة. في تلك اللحظة، كنا قد بحنا لبعضنا بكل شــيء كان علينا قوله.

اتصلت بســيارة الأجرة التي جــاءت على الفور. اصطحبتني إلى المصعد. قبلتها على خدها. أخذت نفسا عميقا واستنشقت

رائحة بشرتها وولجت المصعد دون زفرها.

«أحبك!»، قالتهـــا فجأة بالإنجليزية. لا بـــد أنها تعلمت تلك العبارة، ونغمتها من الأفلام الأمريكية التي كانت تشاهدها على التلفاز. حركت تلك العبارة مشـــاعري، فهـــي لم تخاطبني بتلك العبارة الإنجليزية من قبـــل. والآن أتت تلك العبارة ربما بصوت أجـــش، لكنها كانـــت مفعمة بكل ما أرادت قولـــه ولم تعرف إليه سبيلا. لقد ولجت تلك العبارة مباشرة إلى أعماقي، وانهرت في داخلي.

كان بمقـــدوري أن أراها من خلال النافـــذة الضيقة في باب المصعد وهي تلمس خدها بيدها. لا بد أنها كانت تمســـح دمعة ذرفتها. وعندما ضغطت على الزر، كان باســـتطاعتي أن أسمعها تهرول عائدة في شبشبها.

«أحبك»، كنت أظن أنني أغنيها لها، ولكنها خرجت من شفتي أشبه ما تكون بنشيج.

ابتعـــت بضع علـــب من أنواع الشـــوكولاتة التـــي أوصيت أن أحضرهـــا معـــي من الســـوق الحـــرة فـــي المطار. كانـــت علب الشـــوكولاتة الكرواتية الشهيرة المسماة «كراش» مزخرفة بشعار النبالة الكرواتي، ومصممة بطريقة لتشبه جواز السفر الكرواتي الجديد.

بعد إقلاع الطائرة شعرت بإحساس غامض من الارتياح. بينما كنت أتصفح المجلة الموجودة على متن الطائرة، تمعنت في قائمة وجهات الرحلات الجوية، ثم انتقلت إلى الغوص في المقالات التي تتناول نبات الفطر «الأستيري»، وحسناوات «كوتشولا»، والسيرة

الباهرة لعــازف البيانو «أيفو بوغوريلنتش»، وآخر نجاحات بطل كرة المضرب «جوران إيفانسيفتش».

لم أنجز أي شيء في الأيام السبعة التي قضيتها في «زغرب». لم أحصل على هوية جديدة: لم أتصل بمحام. طبعا، كانت الشقة قضية خاسرة: فهناك آلاف القضايا المشابهة، علما أنني لم أكن مغرمة بالأشياء التي نتركها وراءنا. صحيح، أنا أشتاق إلى الكتب التي تعود إليّ، ولجوران، ولكن حتى لو وافق الساكن الحالي على إعادتها، فلن أجد مكانا لها.

ومع كل هذا، فقد أقنعت القاطنين في الشــقة التي تقع فوق شقة أمي بأن يجدوا عاملا حرفيا لإزالة البقعة الصفراء المنفرة من على ســقف الحمــام من تحتهم. كذلك تركــت بعض النقود لأمي لأشياء طارئة مشابهة، واشتريت لها حنفية للحوض.

شــاهدت أثناء الســبعة أيام في «زغرب» ســبعة مسلسلات برازيلية. حفظت أســماء أفراد العائلات الممتدة للممثلين. كان، علــى الأقل، واحد مــن أجهزة التلفاز الثلاثة شــغالا من لحظة نهوضها من الفراش.

قالت بطريقة تبرر نفســها: «هذا يشعرني بأني لست وحدي هنا».

«لماذا لا تقرئين؟».

«لا أستطيع. القراءة متعبة لعيني».

«احصلي على نظارات جديدة».

«لقد فعلت، لكن ذلك لم يحل المشــكلة. يبدو الأمر كأن هناك رملا في عيني».

لم أجـــر أي مكالمة هاتفية، إذ لم يكن ثمة من اتصل به. كنت أتصفـــح الأرقام في دفتر العناوين القديم، ومرة رفعت ســـماعة الهاتف وضغطت على أرقام هاتف صديق، لكنني أعدت السماعة إلى مكانها قبل أن يرد أحد. ذلك جعلني أشعر بالارتياح.

فكرت بأمي وكيـــف كانت تدافع عن حلبتهـــا. ما كان يعنيها بالمقام الأول هو إزالة البقعة في سقف الحمام، وإصلاح الصنبور الذي يســـرب الماء، والمحافظة على نظافة الســـتائر، وأن تأخذ الحيـــاة مجراها الطبيعي. لكنها كانت مقاتلة أيضا، وقد وجدت عدوا، مرض السكر. لقد رفضت أن تعترف بأي عدو آخر، فقد غزاها الوهن الآن، وكانت ستخســـر أي معركـــة أخرى. وهكذا حددت حلبتها، وتمتعت ببساطة مطلقة فيها.

كانت صورتي مع جوران في خزانة الأواني الخزفية في غرفة معيشة أمي. رؤيتي للصورة هناك جعلتني أدرك الشبه بينها وبين عـــروض التذكارات التي رأيتها في غرف معيشـــة المهاجرين. لم تعبر عروض التذكارات في منازل المهاجرين عن حنين لحياة خلت أو حنـــين لوطن، بل علـــى العكس من ذلك: فقد عبرت عن غياب ذلك الحنين. لقد شكلت تلك القلوب المصنوعة من خبز الزنجبيل، ومنافض السجائر على شكل أحذية الفلاحين، والقبعات الآتية من جزر الدلما أوالجبل الأســـود، والأشياء المطرزة والأشرطة الزينية المصنوعة يدويا، وقرعات الشـــراب المغطـــاة بالجلد، والأصداف الأدرياتيكية، شكلت أضرحة كثيرة جدا، قبورا صغيرة جدا تضع علامـــة لنهاية طريقة حيـــاة، واختيارا صريحا لتقبل الخســـارة واستعدادا لقبول النتائج المترتبة على ذلك الاختيار.

لم أستطع القول إنني قبلت بهذه الخسارة ونتائجها. ما يمكنني قوله هو أنه خلال الأسبوع الذي قضيته هناك كنت قلقة باستمرار. ليس نفس درجة القلق عندما أكون مع أمي مثلها عندما أكون خارج البيت. تجولت في شوارع «زغرب» بصفعة غير مرئية على وجهي، متفحصة الأشياء بشيء من الارتياب مثل أرنب، معانقة واجهات المباني بحثا عن الأمان. بدا كل شيء متعطلا ورماديا، فالآن يعني نفسي، الآن يعني أجنبي، الآن يعني سابق.

لم أخبر أمي قط بأنني حاولت الحصول على هوية جديدة. الأمر كان، أنني لم أستطع أن أجد المكتب المعني. وبالرغم من أنني كنت قد ذهبت إلى ذلك المبنى عدة مرات من قبل، وبالرغم من أنني أعرف المنطقة عن قرب، وبالرغم من أنني أملك حسا جيدا لتحديد الاتجاهات، إلا أنني لم أتمكن من الوصول إلى المكان. عندما سألت عن المكان، أشار الناس إلى اليسار ثم إلى اليمين، إلا أنني لم أستطع الوصول إليه. بقيت أحوم في مساحة دائرة محددة - في محيط شارعين أو ثلاثة على الأكثر - حتى اجتاحني الفزع فجأة وانفجرت في البكاء. ظهرت إلى السطح صدمة المنفى، صدمة الاختفاء المفاجئ لأم من محيط رؤية طفلها، ظهرت إلى السطح في مكان لم أتوقعه - «في الوطن»، حقيقة أنني ضللت الطريق في منطقة أعرفها كمعرفتي لأصابع يديّ قد ملأتني رعبا.

سردت تلك القصة للمسافر الذي جلس إلى جانبي في الطائرة. كان من «زغرب»، ويعمل مهندسا معماريا، وقد يكون

تخرج قبلي ببضع سنوات. لقد ترك «زغرب» عام ١٩٩١، وهو في طريق عودته إلى أمريكا، حيث وجد عملا في شركة واستقر هناك.

«اعتقدت أنني فقدت عقلي».

رد قائلا: «لماذا؟ لديك أسباب وجيهة لأن تضلي الطريق. لقد تغير كثير من أسماء الشوارع».

«لكن الشوارع بقيت كما هي».

«ليس عندما تحمل أسماء جديدة».

«ومع ذلك، لا أصدق ما حدث».

«فقدان مؤقت للذاكرة. فقد حدثت تغيرات هائلة في فترة قصيرة جدا».

«ولكن كيف لي أن أضل الطريق في مدينتي؟».

«ماذا لو لم تعد زغرب مدينتك؟».

قلت بعناد، مصغية لسخافة ما أقول: «زغرب ستبقى مدينتي إلى الأبد».

«في المرة القادمة، حاولي تعلم أسماء الشوارع الجديدة، ستكون الأمور على ما يرام. ويمكنك تسريع هذه العملية بنسيان الأسماء القديمة».

«أتظن أن من السهل فعل ذلك؟».

«ليس سهلا بأي شكل من الأشكال. أستطيع أن أرى كم أنت منزعجة من ذلك. كنت متضايقا أيضا، ولكنني تمكنت من التخلص من ذلك . أو، بالأحرى، اختفى ذلك مع مرور الوقت. لقد شطبونا، أنا، وأنتِ، وجميع من رحلوا. صحيح أننا مواطنون

غير فاعلين، لكننا لا نحسب. نحن أقلية مهملة. انظري، أنتِ قد عدتِ لفورك من الوطن، فهل تولد لديك الانطباع بأن الناس متضايقون خاصة من أحداث السنوات العشر الماضية؟

«لا أعرف».

«لقد تنفس الناس الصعداء العام ١٩٩١، كانت الحياة في يوغسلافيا صعبة على معظم الناس، كلاب تأكل بعضها. ولكن كان دائما هناك هدف على المرء أن يسعى إليه: المستقبل المشرق أو الإصلاح بشكل أو بآخر. كان هناك أولئك الجيران الأشرار الذين يتلصصون لمعرفة إن كانت دجاجاتك تبيض أكثر من دجاجاتهم. لذا تنفس كثير من الناس الصعداء عندما انهارت يوغسلافيا القديمة: فقد أصبح بإمكانهم أن ينكشوا أنوفهم، أو يحكوا أردافهم، أو يرفعوا أرجلهم فوق المنضدة، أو يستمعوا إلى الموسيقى الصاخبة، أو يجلسوا فحسب ويشاهدوا الملاكمة. طرد الكروات الصرب، وطرد الصرب الكروات واعتدوا بالضرب على الألبان. أما البوسنيون المساكين - فقد شطبهم كل من الكروات والصرب، مثلنا نحن المهاجرين. صحيح أن المكان يعج بالمجرمين الآن، والمجرمون يستغفلون الكثير من الناس، لكن الناس مازالوا يظنون أنهم أفضل حالا مما كانوا عليه من قبل: فالمجرمون على الأقل أصحاب عمل مستقل، ولا أحد يضع معايير مستحيلة. في النهاية، ينبغي أن يكونوا ممتنين «لميلوسيفيتش»، فهو من سحب القابس عن يوغسلافيا. لم يكن أي أحد آخر يملك الشجاعة لفعل ذلك. كان الكل ينتظر تلك اللحظة».

«ولكن ماذا عن آثار الكارثة؟ المسؤولية عن كل ما حدث».

«لماذا تكترثين بذلك؟ وما جدوى طرح مثل هذه الأسئلة؟ انظري، خلال سنة أو سنتين لن يتذكر أحد «فوكوفار». أو حتى «سراييفو» لذلك السبب. ولا حتى الناس الذين يعيشون هناك. لذلك لا تتحيري. فالأمر لا يستأهل كل هذا، صدقيني».

«لكنني حائرة».

«أخبريني، هل صادف أن قابلت أحدا من المهاجرين الذين رحلوا بعد الحرب العالمية الثانية؟ أو حتى ممن رحلوا بعد الحملة ضد القوميين العام ١٩٧١؟ لقد قابلت أناسا من هؤلاء. عندي عم في أمريكا، وقد قدمني إليهم. كان الأمر أشبه ما يكون بمقابلة الأشباح. كانوا يسترسلون بالحديث عن أشياء لا تتصل بحياتنا على الإطلاق. كان إدراكهم للزمن هو سبب ذلك. عندما ترحلين فإنك تغيرين ما هو أكثر من تغيير مكانك، فأنتِ تغيرين زمنك، زمنك الداخلي. الزمن في «زغرب» يمضي الآن بسرعة تفوق كثيرا سرعة زمنك الداخلي. أنتِ مازلت عالقة في إطار زمنك الغابر. أراهن أنك تظنين أن الحرب اندلعت أمس».

قلت بانفعال: «إنها كذلك. وهي لم تنته بعد».

«حسنا، هذا ينطبق على الناس الذين لم يغادروا الوطن! إن «أمسِك» هو تاريخهم الغابر. هل تتذكرين المهاجرين الذين سارعوا بالعودة من كندا، وأستراليا، وأوروبا الغربية، وأمريكا الجنوبية عندما أعلنت كرواتيا استقلالها؟ الكروات الذين حاولوا وصدقوا. أصبح من لبوا الدعوة المدوية «لتودجمان» يطلق عليهم المحتالون، وجحافل المحاربين القدماء، والقتلة، والفاشلين».

«معروضات من متحف إقليمي».

«بالضبط. خلال بضع سنوات سنبدو مثلهم في أعين الناس الذين بقوا في الوطن. لذا، فأفضل شيء هو النسيان، نسيان كل شيء».

«إذن، من سيتذكر؟».

«لماذا، في رأيك، يخترع الناس بدائل رمزية؟ يفعلون ذلك لزيادة معاناة الآخرين وجعلهم يتذكرون بدلا منهم».

«لا أعرف إن كنت...».

«حسنا، دعيني أقل لك الآتي. ليس من السهل سرد قصتنا. حتى الأرقام تحكي قصصا مختلفة لأناس مختلفين. ما نعتبره طوفانا، يعتبره آخرون زخات من المطر: فمقتل مائة ألف شخص، أو تهجير مليون أو مليونين، أو اندلاع حريق هنا أو انفجار قنبلة هناك، أو بعض النهب، كلها مجرد أشياء تافهة! لقد قتل أكثر من ذلك في فيضانات الهند هذا العام فقط».

«لا بد أنك فقدت صوابك!».

«ليس للناس قدرة على احتمال المحن، صدقيني. هم لا يقدرون على التوحد والمشاركة الوجدانية مع الكوارث الجماعية. ليس لفترة طويلة على الأقل، حتى لو أن الكارثة حلت بهم هم أنفسهم. لهذا لجأوا إلى الحل البديل».

«لا أفهم ما تقول».

«عدد الناس الذين يعلمون أن «إلفيس بريسلي» لم يعد له وجود بيننا أكبر من عدد أولئك الذين يعرفون أنه لم يعد لمكتبة سراييفو وجود بيننا. وهذا ينطبق على الضحايا المسلمين في مذبحة «سيربرينيتشا. يضع الناس الكوارث جانبا».

«إن ما تقوله مرعب حقا».

«أنتِ لم تسـمعي إلا القليل حتى الآن. إذا ما استرسـلت في الحديث، ستتوقين إلى التخلص مني...».

تقاطع حديثه مع إعـلان إحدى المضيفات بدء نزول الطائرة باتجاه أمستردام.

قال مبتسما ابتسامة ودية:« أنقذني الجرس».

(أشـعر براحة أكثر عندما أتحدث بالهولندية. كانت «نيفينا» قد قالت ذلك، وكأن الهولندية كيس نوم).

قلت معلقة: «أشعر براحة أكثر وأنا في الجو».

تجاهل رفيق السفر تلك الملاحظة، وكأنه لم يستسغها.

كانت الرؤية ممتازة: فالجو صاف، والسماء زرقاء، والشمس مشـرقة سـاطعة. بدت الأرض مـن تحتنا كفطيرة المشـروم، انقسـمت إلى أجـزاء رفيعة منتظمة، أشـبه ما تكـون بصورة هولندا. مثل الميدان الأبيض «لماليفيتش»، وعشـرات الآلاف من الآثـار الأدبية الهابطة. فجأة أدركت أنني لم أحتفظ ولو بصورة واحدة «لزغرب» في مخيلتي. حاولت جاهدة أن أستحضر شيئا، لكن كل ما اسـتطعت تجميعه كان سلسـلة من الصور المشوشة، والغريب كفاية أنها كانت بالأبيض والأسود. إن لاوعيي لسبب ما نقل ملفات مدينتي «زغرب» إلى عصر ما قبل الألوان.

قلـت، وقد التفـت على نحو مفاجئ لجـاري: «أخبرني. هل متجر «فارتيك» لا يزال في ميدان الجمهورية؟».

«تقصدين ميدان المحافظ يلاتشيتش».

«أيا كان الاسم».

«لا أعرف».

«كذلك أنا. لقد كنت هناك أمس، ولا أتذكر إن كنت رأيته».

قال: «لم أبتع شـيئا من ذلك المتجـر قط. لماذا يزعجك هذا الأمر كثيرا؟».

قلت: «إنني أنزعج وحسب».

الجزء الثالث

١٢

انفجرت قنبلة يدوية بين

الصبي اليافع وأبيه. يا له من مشهد!

لم يبق من الصبي المسكين إلا القليل الثمين،

وفقد الأب كلتا ذراعيه

حاولوا أن يحشوا الصبي في كيس.

ولكن سرعان ما بدأوا يسبون يائسين،

فكل ما تمكنوا أن يجمعوا منه

لم يتعد فردة من الحذاء وخصلة من الشعر.

نينو مويتشينوفتش

بعد يوم من وصولي إلى أمستردام، قمت بزيارة القسم. لن تبدأ الدراسة إلا بعد أسبوع، ولكنني ارتأيت الذهاب إلى هناك.

أخبرتني السكرتيرة بنبرة قد تستخدمها للإبلاغ عن تغيير في الجدول الدراسي: «سمعت أن أحد طلبتك قد أقدم على الانتحار».

تدبرت أن أقول: «عم تتحدثين؟».

«هذا ما سمعته».

«أي طالب؟».

«كيف لي أن أعرف؟».

كان من الممكن أن أخنقها.

«من أخبرك بذلك؟».

«أحد طلبتك الآخرين. للتو».

انطلقت نازلة الدرج واتجهت إلى المقهى حيث وجدت نيفينا، وإيجور. استطعت أن أعرف من تعبيرات وجهيهما أن هناك خطبا ما.

نعم، لقد سمعا أن «يوروش» قتل نفسه. لكنهما لم يعرفا كيف حدث ذلك. سمعا أن شقيق «يوروش» جاء إلى أمستردام لمتابعة الأمر، وأن والد «يوروش» مشتبه بارتكابه جرائم حرب، ويتم استجوابه حاليا في محكمة لاهاي. وقالا لا، ليس لديهما أي فكرة عن والده، إطلاقا. فقد كان «يوروش» كتوما جدا. وقد لاحظت أنا هذا أيضا. وهم مثلي لم يحدث أبدا أن رأوه خارج حجرة الدراسة.

قال إيجور ببساطة:«إنه الشعور بالعار، يا رفيقة».

لقد جلبت الحرب بعد اندلاعها سلسلة من حوادث الانتحار.

أخبرتني ماما بقصة جندي عاد من جبهة القتال - صبي، لم يبلغ العشرين من العمر - وقام بزيارة المدرسة التي كان يدرس فيها. اتضح أنه قضى اليوم بكامله في فناء المدرسة موزعا الحلوى على الأطفال، وكان يشرح لهم ما هي القنبلة اليدوية. في الصباح التالي كانت أشلاؤه مبعثرة في جميع أرجاء المكان. سقطت بعض أجزاء من جسمه فوق شجرة وظلت ملتصقة في الأغصان. لقد فجر نفسه قبل بضع ساعات من بدء الفصول الدراسية. هيئة العاملين في المدرسة لم تعرف بذلك - فكيف كان لهم أن يعرفوا؟ - وهكذا دخل التلاميذ مندفعين بأعداد كبيرة وهم يدوسون على البقايا المخضبة بالدماء.

نعم، موجة عارمة من حوادث الانتحار. انتحار بهدوء، وسكينة،

بعيدا عن الإعلام، فقد كان هناك الكثير من المحن والموت تحيط بالناس الذين لم يعد لديهم مزيد من الشفقة ليغدقوه على المنتحرين. إن الانتحار رفاهية أثناء الحرب؛ والشفقة شحيحة.

كانوا يُقدمون على الانتحار بطرق مختلفة: فكان البعض يتناول الشراب حتى الموت - وتلك أرخص الطرق؛ وكان البعض يأخذ جرعة مفرطة من المخدرات - نتيجة للحرب فإن الحدود فتحت على اتساعها، وتدفقت المخدرات بسهولة كبيرة؛ أو كانوا يموتون بكل بساطة بسبب «انفطار القلب»، وهذا تعبير تلطيفي عن الأزمات والسكتات القلبية التي لم تعالج، والتي انتشرت انتشار النار في الهشيم في أثناء الحرب. ويمكن أيضا وضع الأمراض الأخرى التي لم تعالج تحت مسمى الانتحار. ثم هناك حالة الطالبة ابنة الجنرال الصربي، وهو من مجرمي الحرب، التي وضعت حدا لحياتها بسبب الشعور بالعار. كذلك تلك المرأة العجوز من «بلجراد» التي تزحلقت وسقطت عندما توقفت الحافلة أمام حشد من الركاب. اندفع الحشد إلى داخل الحافلة، وهم يدوسون على جسمها بأقدامهم. لم يفكر أحد في مساعدتها. استطاع الأطباء ترميمها، ولكنها ما إن عادت إلى المنزل، حتى ألقت بنفسها من نافذة الطابق الرابع. إنه الشعور بالعار مرة أخرى.

هناك حوادث الانتحار بين من فروا من الحرب أيضا. لقد سمعنا كل أنواع القصص عندما كنا في برلين. سمعنا قصة المرأة البوسنية التي شنقت نفسها في مستشفى للأمراض النفسية قبل خروجها من المستشفى بيوم واحد. وقصة اللاجئ البوسني

الذي شنق نفسه في مخيم للاجئين بعد أن خنق زوجته وطفلهما البالغ من العمر سنتين بالوسادة. وهنا في أمستردام قامت امرأة كرواتية في أحد مراكز اللاجئين بفتح الغاز ثم أحرقت نفسـها. لقد فعلوا كل ذلك بسـبب المذلة، واليـأس، والخوف، والوحدة، والعـار. وهنـاك كثير من الوفيـات غير معروفـة، والتي مرت وحسـب، ومعظمها لضحايا الحرب، رغم خلو سجلات الحرب منها.

عرفنـا تفاصيل ما حدث ليوروش مـن داركو الذي لم يتأخر كثيرا عن المجيء للمقهى. فقد كان داركو الشخص الوحيد الذي احتفـظ بعلاقة شـخصية إلى حـد ما مع يـوروش. أخبرنا أن يوروش أطلق النار على صدغه من مسدس. لم يجد صعوبة في الحصول على ذلك السـلاح: فكل ما كان عليه فعله هو الاتصال بمجموعات المافيا اليوغسلافية. كانت أمستردام تعج بالأسلحة اليوغسـلافية: فدائمـا ما كانت الشـرطة تعثر علـى قنابل تم التخلص منهـا في المتنزهات. وقد مات طفـلان أخيرا بعد أن داسا على إحداها.

كان يوروش قد نظف شـقته بشـكل جيد قبل أن يطلق النار على نفسه. لقد تخلص من كل الأشياء التي كان يملكها - الكتب والملابس، بما فيها الملابس التي كان يرتديها قبل سحب الزناد. ترك وراءه حقيبة بلاستيكية سوداء فقط لا غير. ألصق على تلك الحقيبة بطاقة مكتوبا عليها اسـم وعنوان شقيقه بأحرف كبيرة متقنـة. أقدم على الانتحار يوم السـبت أو الأحد، عندما كانت صاحبة الشـقة خارج المدينة. وقد وجدت الجثة مسـاء الإثنين،

واتصلت بالشـرطة مباشرة. كان ملقى في منتصف الغرفة وهو عار تمامـا. كانت الجثة نظيفة فيما عـدا بضع نقاط من الدم والبول، ولم تتحلل بعد. كانت الجثة محاطة بسبع حقائب أطفال كرتونية (حقائب لعب أطفال!) تباع في متجر «بلوكر». احتوى كل منها على الأشياء نفسـها: فرشاة أسنان غير مستعملة، ومخدة صغيرة، وقلم رصاص مشـحوذ بشـكل جيد، و«يرملك»، القبعة التي يستخدمها اليهود.

سألت نيفينا: «هل كان يوروش يهوديا؟».

رد داركو:«لم يكن يهوديا وفق علمي. كان والده بوسنيا صربيا، كما تعرفون جميعا».

بـدا وصف «داركو» لمشـهد موت «يـوروش» طفوليا، مع أنه كان وصفـا باردا، وحادا كالسـيف في آن واحد. كانت الحقائب الكرتونية هـي المتاع الذي رأى «يوروش» أنـه ضروري لرحلته: يرملك، وفرشاة أسنان، ومخدة، وقلم رصاص، مكررة سبع مرات. لقد كانت أيضا بمنزلة وصية «يوروش» بأحرف هيروغليفية لأي شخص يريد أن يحللها.

قـال داركو: «أوه، وهناك شـيء آخر. لقد وضع رصاصة في فمه».

قالت نيفينا: «إنني أتساءل عن سبب ذلك!»

«لا أعرف».

قال إيجور مذهولا:«حقا. ألا تعرف سبب ذلك؟».

قـال داركو: «كما قلت، لا أعرف. ولكن ماذا لو – ما أن نظف المكان وخلع ملابسه وصوّب المسدس إلى رأسه – أدرك أن الأمر

سيكون مؤلما. إذ ربما قد يصرخ. قد يسمعه شخص ما. ربما تذكر مشهدا في فيلم حربي ما وضعوا فيه شيئا صلبا بين أسنان رجل مصاب قبل أن يجروا له عملية جراحية من دون استخدام المخدر، ليتجنبوا صراخ الرجل. وربما للحظة أحس بالفزع فلم يتبق له شيء: فقد وضع كل شيء وفقا لترتيب معين. لذا فقد أخرج رصاصة من المسدس ووضعها بين أسنانه قبل أن يطلق رصاصة أخرى على رأسه».

كان داركو بالكاد ينطق كلماته. بدا وكأنه على وشك البكاء طوال الوقت الذي كان يحاول فيه إعادة تركيب المشهد. كان الأمر وكأنه يفكر كيف أن موت يوروش موت بلا معنى - وفي الوقت نفسه معترضا على هذا التفكير. هناك موت نبيل، ذو معنى، ولكن في النهاية، لماذا اختار يوروش موتا بلا معنى؟ كان داركو متعاطفا مع يوروش لذات السبب، وهو أن موته خلا من أي معنى يمكن تخيله. لكن كل هذا ليس إلا مجرد حدس بما كان يدور في ذهن داركو. في حقيقة الأمر، لقد كان الاعتراض هو اعتراضي أنا.

أرانا «إيجور» مقالا قصيرا في النشرة الصادرة عن المجلس النرويجي للاجئين تتعلق بمحاكمة ثلاثة من مجرمي الحرب، وكان أحدهم والد «يوروش». كانوا أول من سيمثلون أمام المحكمة، إذ إنهم من صغار القوم. لن يُجلب المجرمون الكبار للمحاكمة قبل سنوات عدة.

سأل إيجور، وكان يقصد والد يوروش: «هل نذهب ونلقي نظرة عليه؟».

«أتقصد أن المحاكمة مفتوحة للجمهور؟».

«حصلت على تذكرتين للدخول اليوم من القسم».

«كما لو أنك ذاهب لمشاهدة فيلم».

قال بسخرية: «إنهم ينظرون إليها من قبيل ممارسة اللغة. مجانا».

«متى سيكون ذلك؟».

«غدا، إن أردتِ».

لم ينبس أحد ببنت شفة. كنت قد نسيت ما يتعلق بالحرب في أثناء الفصل الدراسي الماضي. كذلك الطلبة نسوا ذلك. لكن موت «يوروش» أعادني من جديد إلى خضم الحدث، إلى الكابوس. لقد كنت بجانب نفسي. كيف فشلت في أن أعرف؟ لأنني لم أسأل قط. ولم أقم بالسؤال لأنني كنت خائفة من ذلك. والآن، فات الأوان، لقد كنت مرعوبة من الأسئلة التي كان من الممكن أن أطرحها.

«لقد رتب شقيق يوروش كل شيء. ساعده أصدقاؤه الذين يعيشون هنا منذ زمن طويل. ليس ثمة شيء واحد كان يمكنكِ أو يمكن لأي منا فعله. لا يمكننا حتى الذهاب إلى مراسم الدفن».

قالت نيفينا وهي تتجه إلى البار: «يمكننا أن نحتسي الشراب على روحه، أليس كذلك؟ إنها دعوتي لكم».

ارتشفنا «الراكيا» الهولندية في صمت. لم أعد أفكر في يوروش؛ كنت أفكر في مسلسل شاهدته على التلفاز في وقت مبكر من الحرب. ضم المسلسل فتى سلوفينيا يرتدي الزي الرسمي للجيش الوطني اليوغسلافي، كان في عمر يوروش، تم

أخذه أسيرا على يد قوات الدفاع السلوفينية الجديدة. كان يقف رافعا يديــه، والدموع تنهمر على خديه وهــو يصرخ «لا تطلقوا النار، أيها الرجال! أنا واحد منكم!» بعد بضع ثوان، أطلق الرجال السلوفينيون النار على رجلهم السلوفيني.

بعد انتهاء جلســة الشــراب، ذهبت نيفينا، وداركو، وإيجور، وأنا، كلٌ مضى في طريق مختلف. في ذلك اليوم بدت أمستردام في مشهد «أماركورد» لفيليني. بدت رقائق الثلج المتساقطة أكبر من حجمها الحقيقي بكثير بشكل لا يصدق.

١٣

من حين إلى آخر سوف ينبش شخص ما
تحت الأشجار
النزاعات الصدئة
ويلقي بها في القمامة.

ويسلاوا زيمبورسكا

لم أعرف ما أريد فعله. سرت الهوينا في المساحة الضيقة لشقتي، وأنا أرتجف من حمى خفيفة. لم أستطع التركيز على أي شيء، فالتفكير في موت يوروش تملّكني كالشقيقة. ثم وقعت عيني على الدفتر، أحد الدفاتر الثلاثة التي أعطاني إياها بابا حديثا في «زغرب». لقد تركت الاثنين الآخرين عند أمي، مدركة أنه لن يكون لدي الوقت أو الرغبة لقراءتها. إذا أخذت ولو واحدا منها، فهذا لمجرد إراحة ضميري. خطفت الدفتر من على الرف وبدأت أقلّب الصفحات.

كان النص مطبوعا بمسافة واحدة بين الأسطر ومن دون هوامش. لم تكن الكتابة واضحة، فمن المؤكد أن تلك النسخة كانت النسخة المصورة الثالثة، أو الرابعة لذلك النص. كان قد قام بتدبيس الأوراق بعضها مع بعض، وغلفَها بكرتون أخضر فاتح، وكتب على الغلاف بخط يده مذكرات مُعلم في بلدة صغيرة. كان يسمي تلك الدفاتر «كتبا». وأنا لا أعرف العنوان الذى أعطاه «للكتاب رقم واحد»، الذي قد يكون تناول طفولته المبكرة. وقد يكون عنوان «الكتاب رقم اثنين» يوميات المدرسة في عصرها

الذهبي. كان لدي «الكتاب رقم خمسة» الذي حمل إهداء «إلى ذريتي المستقبلية». لم يكن لدى بابا إلا القليل من الأمل في ذرية مستقبلية، إذ كانت «الذرية» مجرد عذر رومانسي، ولكن، بما أنه صور العديد من النسخ من «هذا الكتاب»، اعتراف حياته، فمن الواضح أنه كان يأمل بأن يقرأه شخص ما في نهاية المطاف.

ذهبت إلى بلدة «ن» للقيام بما كنت قد دُربت للقيام به: التدريس. كنت مدرسا مثلي مثل غيري خلا شيئا واحدا: أنني ذهبت إلى المدرسة، وبلدة «ن» - بعد إطلاق سراحي من سجن «جولي أوتوك».

كانت اعترافات بابا منقوعة بتجربته كسجين سياسي في سجن «جولي أوتوك»، بسبب تعاطفه مع مكتب الإعلام الشيوعي. لقد غيره ذلك تماما: فحتى بعد إطلاق سراحه لم يشعر بأنه غفر له. بينما كان في الداخل، «مُغّيبا عن الحياة»، وبينما كان يقضي «طوال اليوم»، وكل يوم، وهو يحمل صخرة تزن عشرة كيلوغرامات لمسافة خمسين مترا لأعلى المنحدر، وإذا حدث وكان الحارس في مزاج جيد، فكان يسمح له أن يطرحها أرضا للحظة من أجل الراحة قبل أن يعاود جرها إلى أسفل المنحدر؛ كان الناس في الخارج قد تعلموا، بمزيد من الوقاحة، كيف «ينهبون أموال الدولة». لقد نعت حياته بعد خروجه من السجن «بحياة ما بعد الوفاة»، ونعت نفسه «بالجثة»، وقد اضطر إلى إخفاء ماضيه في سجن «جولي أوتوك» كمن يخفي إصابته بالسفلس. كان يشعر بأنه نُفي من الحياة لأسباب أخرى أيضا: لقد فقد مكانته كمحارب نصير للحرية (وفي أحد السياقات يصف كيف تم تجريده من كل

أوسـمته العسـكرية)، ولم يعد عضوا في الحزب (فقد طُرد من الحزب). لقد أضحى مجرد مُعلم في المدرسة الآن.

لقد تنوعـت النبرة، والمزاج: فكان رثاء الذات يفسـح مجالا للوعـظ المدرسـي، أو غضـب المؤمـن الحقيقي، أو الناشـط الاجتماعي - الشيوعي السياسي الذي يقوم به الموظف الإقليمي. في البداية اعتقدت أنه يخاطب مجموعة غير مرئية من جدران أحد السـجون، ولكن سرعان ما أدرك أن جمهوره لم يكن ذريته المسـتقبلية، ولا تيتو، أو الحزب، أو الشـرطة السرية، أو الدولة اليوغسلافية، أو الحراس القساة في سجن «جولي أوتوك»؛ لقد كان جمهوره تلك البلدة الصغيرة التي درّس فيها.

مـا ظهـر بالتدريج كان صـورة للحياة اليومية فـي الأقاليم اليوغسـلافية في الخمسينيات، والسـتينيات. لقد أعطى بابا وصفا دقيقا لكيف بدأ، بعد سـنوات عدة من العمل مدرسا في بلـدة «ن»، بترميم المدرسـة المهلهلة، حيث صب الأسـمنت على السـاحة الموحلة وأقام ورشـة؛ وكيف أنه، بعد وقت طويل حين أصبح رئيسا لفرع الوزارة الإقليمي، أسس مركزا للثقافة وجمعية اجتماعية للفنون؛ وكيف أنه أنشـأ مسرحا للهواة، واستطاع أن يؤمّن له أضواء كشّـافة حقيقية؛ وكيف بُنيت أول دار للسـينما، وكيف تحصّلوا على الأفلام لها؛ وكيف أنهم أسسـوا أول مكتبة عامة حقيقية فيها قاعة للمطالعة وكيف موّلوا شراء الكتب لها؛ وكيف أنهم أعـادوا الحياة إلى المتنزه البلدي المهمل؛ وكيف أنهم قاموا ببناء مجمع لمدرسة ثانوية وحمام سباحة؛ وكيف أنهم نظموا ناديا لكرة السلة؛ وكيف أنهم أسسوا أول مدرسة للموسيقى ...

كانت الصفحــات التي تتعلق بتلامذتــه تتميز بالدفء بوجه خاص. في أحد السياقات تحدث عن زلة لسان حين قال: «اذهب على الســبّورة»، بدلا من قوله، «اذهب إلى السبّورة». وبينما كان يديــر ظهره، نفــذ الطالب معنــى ما طلب منــه حرفيا، «فرفع الســبورة عن قاعدتها الخشــبية وخطا عليها، مثيرا البهجة في غرفــة الصف. لقد حصل ذلك الصبي فيما بعد على شــهادتين جامعيتين».

عندما تقاعد من الخدمة - آنذاك، كان قد انتقل إلى زغرب - حصل على الســاعة الذهبية الرمزية لقيامه بواجباته، ولكنه كان مجروح المشاعر بشدة لأنه لم يتلق أي كلمة عرفان من البلدة التي أمضى فيها أفضل سني عمره.

في نهاية «الكتاب» كرس بابا مســاحة مغالى فيها لوصف الأنواع المختلفة من خزائن الكؤوس والأطباق، وخزائن الملابس والرفوف في حياته، من مرحلة الطفولة حتى الســن المتقدمة في العمــر (كانت الأكفان التي تخصه من ضمنها). وتوســع بشكل خاص بالحديث عن رفوف الكتب في شقة «زغرب» التي عادة ما كانت تسقط منها مختلف أنواع الوثائق، والملصقات، والميداليات. كانت إحدى الملصقات تثني على «جهوده التربوية المتفانية بالنيابة عن جيل الشــباب في أثنــاء حرب التحرير الوطنية»، وأخرى تمتــدح «جهوده المتفانية في تطوير وتعزيز الحيــاة الاجتماعيــة والثقافية فــي الدولــة». وكانت هناك أخرى ســميت «شــهادة المعلم الحزبي»، وهذا ذكرني بالزمن الــذي كانت تدرس فيه القراءة والكتابة والحســاب على وقع

هدير القاذفات الألمانية من جهة وقاذفات الحلفاء من الجهة الأخرى، ووقع أصوات المدافع عن بُعد، وأصوات الرشّاشات عن قرب. كان تلامذتنا يجلسون تحت إحدى الأشجار وألواح الأردواز في أحضانهم، والطباشير في أياديهم، ليتعلموا المفردات، والقراءة، والحساب، وعين المعلم الحزبي تراقبهم من كثب.

في أحد الأيام بدأت أبحث في الوثائق المصفرة، ولم أجد سوى ورقة وحيدة مدموغة بالختم الحكومي من أعلى. لم أرَ فيها إلا اسمي مشفوعا بأنني حصلت على ميدالية لقاء خدمة الوطن. جلست هناك أفكر مع نفسي، أي نوع من الأوطان يكون هذا الوطن إن كنت قدمت له من الخدمة ما يكفي ليستحق ذلك التكريم وبعد ذلك أنسى أنني تلقيتها؟ «نعم، جلست هناك ممسكا بتلك الورقة وفجأة، في لمحة بصر، تبدد الخوف من أن حياتي ذهبت هدرا. نظرت إلى الورقة من جديد، وكانت موجودة بكل تأكيد. بدا الأمر وكأنه حدث البارحة ...».

أصل إلى «زغرب» وليس لدي فكرة عما أفعله هناك، ولكنني باللباس الرسمي الكامل من ربطة عنق وغيرها (كان ذلك معاناة حقيقية لا يتخيلها المرء حتى من ألد الأعداء). ينمّ المدرج الذي أدخلت فيه عن جو رسمي، فالناس يتهامسون ويترقبون الآتي من دون وجود حتى ولو ابتسامة واحدة في المكان. ومن ثم يدخل مدير فرع الجامعات الكرواتية إلى المسرح حاملا مجموعة من الأوراق المهمة تحت ذراعه. «الفارس الذي يستحق الشهادة الأولى للمساهمات الرئيسية في تعزيز ونمو وتطوير مستمر للتعليم

والثقافـة في الجمهورية الكرواتية الاشـتراكية هـو ...»، ثم يقرأ اسمي بصوت عال.

ينتمي بابا إلى الجيل الذي آمن بحق أنه كان يبني مســتقبلا أكثر إشــراقا. كان قــد انضم إلى حركة المقاومــة كواحد ممن اقتنعوا بمناهضة الفاشية وشعر بأنه قد ربح الحرب. إن كان قد انتهى به الأمر في أحد المعتقلات لمن يشك في ولائهم السياسي، فــلا بــد أن يكون ذلك بســبب تصريحه علنا في مــكان ما عن رفضه لوجود المعتقلات الســتالينية. وعند إطلاق سراحه، وهو «لم يزل متشبثا بمعتقداته»، عاد «ليبني مستقبلا أفضل»، ولكن عندما تقاعد من الخدمة كان قد فقد أوهامه، وكذلك الاهتمام «بكتبه». هنالك اســترجع أطياف الناس الذين ســيحطمون كل شــيء آمن به في نهاية المطــاف، وكثير منهــم، مصابون بوهن لا يمكّنهــم من تحمل غريزة حب البقــاء، كانوا من الجيل الذي ينتمي إليه نفسه. وحالما تخلى عن كل ما كان يعرفه، فتح النافذة ليأخذ نفســا عميقا ويتفحص الدمار. لقد نكص الزمن، إذ عاد إلــى حيث كانت البداية. فقد عــادت الحرب من جديد، وعادت المعتقلات والأسلاك الشائكة.

تســاءلت إن كان أحد سيقرأ ما كان عليه أن يقوله. فالأحفاد الذين أمل بهم، إن وجد له أحفاد، سيتكلمون اليابانية. أما أولجا، التي سمعت تلك القصص منه آلاف المرات، فكانت أكثر اهتماما بالوقت الذي تســتطيع فيه صبغ جــدران المنزل باللون الأبيض. وعبر الســنين، تحول بابا من ضحية إلى جلاد، وحوّل ماما إلى أم مؤمنة يجلدها بكلماته من دون توقف.

كان باستطاعتي أن أصور بابا هكذا، وهو يضمد الجدران بشكاواه، مرسلا إشارات لا يتمنى أحد أن يستقبلها، ومبررا وجوده وذاته، ومراجعا الإهانات التي تعرض لها، مقتفيا إياها قائمة تلو الأخرى في الهواء، ومغتاظا من خيبة الأمل والدناءة وقذارة الخيانة الإنسانية. تصورته وهو يقف في منتصف الغرفة في بيجامته، بأزرارها العلوية المفتوحة وأنبوب القسطرة البارز من أسفلها، وهو يطلق جحافل من الكلمات الانتحارية التي تصطدم بالجدران، تاركة خلفها بقعا من الدماء.

فكرت في جوران أيضا، وكان يتحدث عن حصته من الإهانات مثله مثل والده. ومما لا شك فيه أنه أخذها معه إلى اليابان، مهربا إياها عبر الحدود، مثل صندوق للمجوهرات. كان مثل والده مصابا بعدوى - «عدوى» كلمة استخدمها والده في مكان ما - الإقصاء، بما فيه المحو، والتصفية، والنفي، والطرد، والمنع، والاستثناء، والترحيل... وأنت اخرج، لا مكان لك هنا!

لم يعد جوران يحبني، وذلك كان سبب رفضي الذهاب معه إلى اليابان. حدث الأمر بهدوء، وتدريجيا، ومن دون سبب محدد. عمل جوران كل ما في وسعه: فقد فعل كل شيء لينبه قلبه ويجعل نبضه يتسارع؛ فلم يكن يعتقد أن الحب يمكن أن يتوارى هكذا. ولكن، وبالتدريج، كان شعوره نحوي يتحول إلى شعور من تعرض للإهانة. ربما كان لدي الشعور نفسه، ولكنه كان نائما في داخلي. فمن الصعب استكشاف مواقع الضعف والإحساس بالعدوى وهي تلج عروقنا.

كان جـوران مثل بابا تماما. فحالما يحقق نصرا، كان ينسـبه ذهنيا إلى بلدة «ن» التي يعشـقها. وكلما عظمت إنجازاته، كلما ازداد تجاهـل تلك البلدة له. فالشـيء الوحيد الذي كان محط اهتمام تلك البلدة هو إخفاقاته،. ذلك ما كانت البلدة ترغب في سـماعه، لأنها تثبت أنهم كانوا على حق في نظرتهم إليه. لذلك، فبالنسـبة إلى جوران، وبابا، كانت الدولة مقسمة إلى معسكرين متصارعين ومتسـاويين في الحماسة: الضحايا، والجلاّدين. ثم إنني ولأول مرة أدركت أنهما على حق في شيء: لعل تلك الدولة بائـدة الآن لأن من سـكنها في الواقع لم يكن سـوى الضحايا، والجلاّدين. الضحايا والجلادين هم من يتبادلا الأدوار من وقت إلى آخر.

كيف للمرء أن يتحرر من الماضي، كنت أتساءل من دون توقف ... طلبـت من طلبتـي أن يتصالحوا مع الماضـي كخطوة أولى ضرورية. قدمـت لهم الماضي الذي خلا مـن الألم في محاولة لحمايتهـم كمـا يفعل الوالـدان لحماية أطفالهمـا، وكما يفعل أطفالهما في حماية أصدقائهم، وكما فعلت أمي لحمايتي، ووالد جـوران لحماية ابنـه. ولكن، كلا، لا يمكـن التحرر من الماضي، هناك النسـيان فقط. وهذا ما تقوم بـه تلك المحّايات الصغيرة الرائعة فـي أدمغتنا جميعا. كل واحد منا يجر خزانة من ورائه، وكل خزانة لها هيكلها الخاص الذي سـيتهاوى عاجلا أم آجلا، متنكـرة، بطريقة تريحنا تمامـا، مثل الوثائق التـي تهاوت عن رفوف بابا. إن الماضي هو «تركيبتنا» ونحن بلا خبرة، سـوى أنه تركيب بذريعة فنية. بلمسـة فنية هنا وأخرى هناك، هنا لمسـة،

وهناك لمسة، لمسات في كل مكان. إعادة التهذيب والتنقيح هي آداتنا الفنية المفضلة. كل منا قيم على متحفه الخاص. ونحن لا نستطيع التصالح مع الماضي إلا إذا وصلنا إليه، إلا إذا غرسنا إصبعا في سده الصخري مثلما فعل «هانز برينكر»، وهو الصبي الذي أنقذ هولندا من الغرق. اغرس إصبعا في سدك الصخري. املأ شاشتك بالصور. انفض الغبار عن حياتك. قم بالتغييرات من وقت إلى آخر. تخلص من بعض الأشياء. اكشف «أ» واخفِ «ب». امح كل البقع. التزم الصمت، واعتبر لسانك سلاحا. فكر في أمر وصرح بغيره. استعمل العبارات الرنّانة للتعتيم على نواياك. اخفِ ما تؤمن به، وآمن بما تخفيه.

لقد سئمت من التفكير في كل تلك التكرارات، والاستنتاجات، والشكاوى والتبريرات المتجددة، وفيروس البؤس الذي ينتقل بالعدوى، والحبل السري الذي يحيط بنا ويحصرنا، رابطا إيانا معا في حلقة مروعة، ومؤلمة، ودموية تدرسنا درسا من دون توقف - الوالدان، والأطفال، والأحفاد، والشانق والمشنوق، والضحية والجلاد، والحارس والسجين، والقاضي والمتهم.

احتجت استنشاق الهواء الطلق، فرميت بدفتر بابا أرضا وسحبت معطفي وخرجت. مشيت عبر شارع «زيدياك» بعض الوقت، ثم دخلت مقهى «دي فيردوينين مينار»، حيث اعتدت أن أتناول القهوة من وقت إلى آخر. اتخذت مكانا لنفسي على البار وقمت بالطلب. ساعدت همهمة الأصوات البشرية والحرارة التي تنفثها تلك الأجسام على تهدئة أعصابي. كنت بحاجة إلى لحم

بشـــري دافئ يطفئ الألم المتفجر بين أضلاعي كما يطفئ المرء سـيجارة. كان يجلس بجانبي رجل تبادلت معه أطراف الحديث، وتناولنا بعض الشراب، وتبادلنا النظرات، ومسّت أجسادنا بعضها ببعض: فقد كان كلانا يسـعى إلى صفقة هامشـية تنطوي على مصلحـة متبادلة ومزيجا من سـوائل الأبدان. نجحت الصفقة. حصلـت على ما أحتاج إليه - سـلوى امتهـان الذات - وها قد اختفى الألم.

في ضـوء الصباح الباهت القادم عبـر النافذة لمحت عيناي الناعسـتان ورقة نقدية على المنضدة التي بجانب السـرير: لقد ترك الرجل الذي لم يتوافر لي الوقت لرسم صورة له في مخيلتي ورقـة نقدية مـن فئة مائة جيلدر كتذكرة. ارتسـمت ابتسـامة على شـفتيّ. «يا للهـول! مائة جيلدر مقابل البغـاء»، كما يقول الهولنديـون. لقد غاب عن ذهني تماما أنني أسـكن في المنطقة الحمراء من أمستردام!

ذكّرني مجمع محكمة الجزاء الدولية لمجرمي حرب يوغسلافيا السـابقة، بالهندسـة المعماريـة الاشـتراكية في السـتينيات والسبعينيات، التي أفسحت وظائفها المجال لمُثل المستقبل المشرق، والأممية، والعدالة للجميع. كان هذا هو الأسلوب المعماري الذي تبنته الأمم المتحدة في المناطق المتواضعة من هولندا. كان القصد من أسـلوب بناء محكمة الجزاء الدولية أن يشعر الجميع بأنهم في «بيوتهم»، بمن فيهم مجرمو الحرب اليوغسلاف، على الرغم من أنني لن أفاجأ إذا مـا عبر أولئك المجرمون عن خيبة أملهم تجاه التصاميم الداخلية المتواضعة.

بعد إبــراز التذاكر، والخضوع لتفتيش دقيــق وترك حقائب الظهــر في الخزائن الشــخصية، عبرنا أنا وإيجــور آخر نقطة تفتيش، وأخيرا نزلنا من على درج معدني - يشــبه ذلك الموجود في الســفن - إلى قاعة المحكمة. كانت قاعة الجمهور مقسّــمة إلى جزأين، واحد على اليســار للصحافيين، والآخر على اليمين للجمهور. حصلنا على ســماعات للأذن ونحــن في طريقنا إلى القاعة. دلت إشــارة صغيرة في الســماعة على اللغات المتوافرة علــى القنوات المختلقــة. كانت القناة رقم ســت مخصصة للغة تسمى «ســي بي أس»، أو الكرواتية/البوسنية/الصربية. جلسنا مقابل جدار زجاجي مغطى بسلســلة من الستائر الدوارة. كانت هناك شاشــات تلفزيونية معلقة في الزاوية اليمنى، وأخرى في الزاوية اليســرى. في الســاعة التاســعة تماما ارتفعت الستائر ووقفنا عندما دخل القضاة قاعة المحكمة. القضاة الثلاثة، الذين كانــوا يرتدون أروابا باللونين الأحمر والأســود، اتخذوا أماكنهم علــى المنصة في منتصف القاعة. أما مســاعدوهم الثلاثة، في أروابهم الســوداء ذات الياقات البيضاء، فقد جلسوا من تحتهم مباشرة. اتخذ مستشارو الادعاء، والدفاع مكانا أدنى منهم، يقع على جانب. كنا نحن بذلــك قادرين على رؤيتهم جميعا من دون أي عائق. احتفظ كل منهم بجهاز حاسوبه الخاص. جلس المتهم بجانب محاميه. كان رجلا في متوسط العمر، مرتديا بذلة رمادية لتناســب ذلك الموقف، ذا عينين باهتتين وبشــرة حنطية، ووقفة باهتة تشبه انتصاب كيس بطاطس. لقد خاب أملي، وكذلك أمل «إيجور»، كما تخيلت. لقد توقعنا مجرما، ولكن ما شاهدناه كان

رجلا، رجلا يمكن نسـيان ملامح وجهه بسهولة. باستثناء شيء واحد: أن شفتيه نزلتا إلى أسفل، وفكّه كان مضغوطا تماما. كان وجهه نسخة طبق الأصل عن وجه «ميلوسيفتش»، وكذلك نسخة عن وجه «تودمان»، بالأسـنان المطبقة نفسـها، والشـق الرقيق المنحني في الفم على شـكل حدوة مقلوبة، أشبه ما يكون بالوجه المسطح الذي نراه في رسومات الأطفال. وجه شرير.

نـادى المدعي العام على شـاهد للقدوم إلـى المنصة. نزلت السـتائر لبعـض الوقت، ثم ارتفعـت كلها فيما عـدا تلك التي تحجب الشـاهد. بدت صورة الشاهد غير واضحة على الشاشة التلفزيونيـة، ولكن كان في إمكاننا سـماع صوته. من وقت إلى آخر، كانـت الكاميرات توجه نحو الجمهـور، وكنا نرى وجوهنا على الشاشات. كان في مقدورنا أيضا أن نرى انعكاسات وجوهنا على الجدار الزجاجي، وقد ركبـت على وجوه الناس الموجودين من خلفها.

في البداية تابعنا المحاكمة مـن خلال الجدار الزجاجي، مع إلقائنا نظرة بين الفينة والأخرى على الشاشـات، ولكن تدريجيا وجدت عينيّ تتريثان على الشاشـة، وكأني وجدت صورتها أكثر جدارة بالثقة من المشاهد الحية. الكلمات التي سمعناها، ونحن نغير مـن قناة إلى أخرى لنسـمع كيف تبدو تلـك الكلمات في اللغات الإنجليزية، أو الفرنسية، أو الهولندية، لم تكن كاذبة بأي حال. حقيقة أن الجـدار الزجاجي الذي يفصلنا عن الحدث لم يعد بعـد موثوقا في أنه أكثر حقيقة مـن «الواقع». فكلاهما - الأول الذي نتجت عنه الأكاذيب تلو الأكاذيب، والآخر الذي وعد

بأن يكشــف الحقيقة كلها، ولا شيء غير الحقيقة - تساويا في الغرابة، إن كانت تلك الكلمة المناسبة.

ركز الاســتجواب على مزرعة لتربية أســماك الشبوط. كان والد يوروش مديرا لمزرعة أسماك في بلدة صغيرة في البوسنة. كانوا يســتجوبونه حول الإصلاحات التي تم القيام بها في سطح المبنى الرئيسي الراشح، وحول الصفيحة المعدنية التي استخدمت لتغطية الســطح وتكلفتها، وحول من كان المعنــيّ بدفع التكلفة، وحول الشــاحنة والســائق، وما إلى ذلك من أشــياء كثيرة. كان القصــد من جمع تلك التفاصيل المســهبة، والمملة، التي لم نفهم منطقها البتــة، هو معرفة إن كان لدى والد يوروش، وشــريكان آخران وقت فراغ كاف لترك العمل والذهاب إلى كوخ قريب حيث كان يُعتقل فيه مســلمو البلدة، وإجبارهم على القيام بممارسات جنسية مذلة - فقد كانت الممارسة المفضلة عندهم، كما زعموا، تلك التي تضم «الوالد وابنه» - ومن ثم كانوا يضربونهم بأيديهم التي تفوح منها رائحة سمك الشبوط النتنة حتى الموت، ثم يرمون بجثثهم في المستنقعات.

بدا المدعى عليهم في تلك المسرحية كممثلين هواة: فكلامهم أشــبه بكلام الإنســان الآلي منه بكلام البشر، وقد حولوا الشر إلــى مؤامــرة آليــة، بدرجة من الآليــة كغيرها مــن القصص. لم يشــعر أي مــن المتهمين بأدنى درجة مــن الذنب. من بين كل أولئك الذين دمروا الوطن - القادة، والسياســيون، والجنرالات، والجنود، والمحتالون، والمجرمون والمافيات، والكذبة، واللصوص، والأنــذال، والمتطوعون - ولا واحد منهم كان مســتعدا أن يخرج

علينا ويقول: «أنا مذنب» لم أسمع كلمة «مذنب» منهم من قبل قط، ولم أسمعها حين كنت جالسة في قاعة المحكمة مع إيجور، ولا أتوقع أن أسمعها منهم أبدا. هل تشعر بالذنب عندما تدق مسمارا في الجدار؟ كلا. هل تشعر بالذنب عندما تعلق صورة على ذلك المسمار؟ كلا. هل تشعر بالذنب عندما تضرب مائة شخص حتى الموت؟ كلا، بالطبع لا.

تساءلت كيف كانت الأمور مع مئات الآلاف من الناس غير المعروفين الذين قد يكون حماسهم المتقد شكل وقودا داعما لتلك الحرب. هل شعروا بالذنب؟ وماذا عن جمهور السياسيين، والدبلوماسيين، والمبعوثين، والعسكريين الأجانب، الذين التصقوا كالغراء في كل مكان عبر البلاد؟ هم لم يتلقوا الأموال السخية فقط؛ بل إنهم حصلوا على لقب المنقذ، ناهيك عن إطراء الأمم المتحدة، أو أي تدرج مؤسساتي يصادفهم ليمثلوه. (ولم تكن مناصبهم في كرواتيا، والبوسنة بتلك المشقة: فكانت الفنادق تعمل بشكل مقبول، وتوفر الطعام المناسب، وكان الشاطئ الأدرياتيكي يقبع بقربهم.) هل شعروا بالذنب؟ هم أيضا كانوا يقومون بواجبهم، مثلهم مثل القنّاص الذي تمركز فوق التل واقتنص المرأة في شوارع سراييفو. مثلهم مثل المصور الأجنبي الذي أخذ صورة للمرأة (بالرغم من أنه لم يخطر في باله الاتصال بسيارة إسعاف) وفاز بجائزة أفضل صورة حربية في تلك السنة. حتى إن تلك المرأة المسكينة التى كانت تتلوى على الرصيف والدم ينزف منها، كانت هي أيضا، بغض النظر عن عدم إدراكها لذلك، تقوم بواجبها من خلال رسم صورة حقيقية

للحرب. من المسؤول عن موت والد سليم؟ من المسؤول عن موت يوروش؟ من المسـئول عن مسمرتي وإيجور في مقاعد المحكمة، وكلانا ينشد الغفران.

ها أنا وإيجور كنا نشـاهد الشاشـة التلفزيونية! كانت صورة لواقع منحرف كنا فيه جميعا، غير مبالين بالانحراف، شركاء في الجريمة. من حيث المبدأ لم يكن ثمة فرق بيني وأنا مسـمرة في مقعدي أنظر إلى الشاشـة التلفزيونية، وبين والد يوروش الذي تشـبث في كرسـيه خلف الجدار الزجاجي. ففي عالم التوسط - التوسـط للتوفيق بين المتنازعين مـرات ومرات - كان كل منا مذنبا. لم تكن الجريمة واقعية، ولم يكن كل شيء واقعيا. شعرت وكأن الأمر أشبه ما يكون بالضغط على فأرة في جهاز الحاسوب للتخلـص من القضاة والمتهمين، ونحن، الجمهور، ضغطة واحدة سـعيدة تعيـد التوافق من جديـد. كان ثمة شـيء واحد يتصل بالواقـع: هو الألم. كان الألم الشـاهد الصامت، عديم الفائدة، والحقيقة المطلقة. ذلك الألم الذي يتدفق عبر شـرايين سـليم، ويظهـر في أوداجه. ذلك الألم الـذي يتفجر مكبوتا في داخلي، وداخل إيجور. ذلك الألم الأصم، والأخرس، والأعمى الذي يمكن أن يطيح بنا فجأة، كان يشير إلى خلل جذري .

لذلك جلسـت هناك مواجهـة الجدار الزجاجـي متأملة... متسـائلة: ماذا سـيحدث، لو أن كل ذلك الألم تجمع في العقل الواهن «لأوسـكار ماتزيراث» ووقف وفتح فمـه وأطلق صرخة مدويـة؟ تخيّلت الجـدار الزجاجي وقد تناثر فـي آلاف القطع الفضيـة الصغيـرة، وكذلك شاشـات الحواسـيب، واللمبات،

والنظارات، وأغطية أسنان الموجودين البورسلين - تهشمت جميعها وتناثرت إلى قطع صغيرة؛ تخيلت ذلك الصوت النافذ، المدوي وهو يطلق النار على رأس كيس البطاطس الرمادي، رأس والد يوروش ويرسله عاليا في الهواء، ويضرب رؤوس كل أولئك المجرمين الدمويين ويرسلها عاليا في الهواء، مفجرا طبلات آذانهم وقلوبهم القاسية...

ألقيت نظرة باتجاه إيجور. شعر بتلك النظرة على وجهه، فاستدار ملقيا نظرة متسائلة نحوي. نزعت السماعات عن أذنيه، وخاطبته قائلة: «لنخرج من هنا».

كانت مغادرتنا لقاعة المحكمة تشبه مغادرة شخص لجنازة من دون أن يكون متأكدا من هوية الشخص المتوفى.

«إلى أين؟»

أجبت: «إلى المنزل. إلى أمستردام».

استقللنا الترام. منيت زيارتنا لمحاكمة الجزاء بالفشل: فقد ذهبنا لمشاهدة عقاب فوري لوالد يوروش، لكننا عدنا صِفْرَ اليَدَيْن.

قال إيجور، متوقعا ما كان يجول في خاطري: «محكمة لاهاي ليست محكمة نوريمبيرغ».

«هذا مؤكد».

«ولم تكن كمحاكمة إخمان في القدس».

قلت بما يشبه الزمجرة: «لقد أوضحت وجهة نظرك».

«ما الأمر؟ لماذا تتصرفين بهذه الغرابة؟»

«لأنه ينبغي ألا تستخف بمؤسسات العدالة».

«يا إلهي! هيا اسـمعوا ما تقول! مؤسسات العدالة. لم أعرف أنك رومانسية، يا رفيقة».

«وأنا لم أعرف أنك شخص ساخر، وهذا لا يليق بك».

«حسنا، حسنا. لا تعقدي الأمور».

«انظـر إليّ! أولئك الناس يحاولـون تنظيف القمامة التي تركناهـا وراءنا، لأننا لـم نكترث بتنظيفها بأنفسـنا، ولأنها لا تصدر رائحة كريهة بالنسـبة إلينـا. ولكنهم لا يمثلون في أفـلام أمريكية، لذا لم نر والد يوروش يشـنق كما كنا نرغب أن يحدث».

رد قائلا: «ربما أنهم سيطلقون سراحه بعد كل ما فعله».

«الأمر يستحق العناء إذا ما عاقبوا شخصا ما».

«كل هذه الضجة الكبيرة من أجل معاقبة مجرم واحد».

«ما الذي يضيرك؟ أنت لا تدفع من جيبك، أليس كذلك؟».

تذمر قائلا: «حسـنا. خـذي الأمور ببسـاطة، خذي الأمور ببساطة. أنا لست كارادزيتش، أليس كذلك؟ ولا ملاديش».

«أولئـك الناس يحاولون مسـاعدتنا، ونحن نتفـرج من وراء الكواليس، سـاخرين أشـبه ما نكـون بالمغفلين! أنـا، وأنت لم يكـن حتى لدينا الصبر الكافي للجلوس بضع سـاعات في أثناء المحاكمة».

«لكنها محكمة، وليست كنيسة».

«لن يضيرنا شـيء لو اعتبرناها كنيسة، وجلسنا حتى ينتهي الأمر، تواضعا ليس إلا».

«حسنا، لم أكن أنا من أراد الخروج».

احمرّ وجهي. لقد كان محقا. شعرت برغبة في جلده. رماني بنظرة نافذة. شعرت بأنه يقرأ أفكاري. كان المسافرون في الترام ينظرون نحونا.

توقف الترام عند تلك اللحظة وسحبني إيجور من مقعدي.

«هيا. لننزل».

قلت متذمرة ونحن في الشارع: «لماذا أردت أن تنزل؟»

«أولا لأنك أحرجتني بتحدثك بصوت عال، وأيضا لأنني أريد أن أعرفك على صديقتي».

«عندك صديقة في لاهاي؟» سألت مثل طالب في فصل لتدريس اللغة الكرواتية للأجانب.

أجاب قائلا: «ما الأمر الغريب في ذلك. هذا لا يختلف عن القول «عندي صديقة في بيلوفار».

داهمتني نوبة مفاجئة من الغضب علقت ككرة في حلقي، وقد قمت بمحاولات عدة للتنفس بعمق.

قال مازحا: «لا تنفثي أنفاسك في وجهي الآن».

بصقت الكرة غير المرئية من فمي وتمكنت من التنفس أخيرا.

توقف إيجور أمام متحف موريتسهويس».

«تأخذني إلى متحف آخر؟»

رد قائلا: «هذا هو المكان الذي تعمل فيه صديقتي».

«صعدنا درجا خشبيا مغطى بسجادة حمراء سميكة. عند نهاية الدرج انعطف «إيجور» إلى اليسار. علّقت على جدار الغرفة الأولى بجانب الباب لوحة «فيرمير» الشهيرة «فتاة بقرط من اللؤلؤ».

«إذن، تلك صديقتك!».

«أجل، هذه صديقتي».

كنت أعرف تلك الصورة - فقد جئت هذا المتحف من قبل - ولكنني لم أبح بذلك. لقد حبست الصورة أنفاسي. تبدو اللوحة الأصلية تقليدا باهتا للوحات المستنسخة الكثيرة. في أول مرة رأيت اللوحة، اندهشت من إغراق اللون الأزرق الفاتح في عمامة الفتاة واللون الذهبي في ملابسها، كانا فاتحين أكثر بكثير من اللوحات المقلدة اللاحقة.

قال بحذر: «أنت تشبهينها بعض الشيء».

«لم أعد غاضبة منك. فقد حصلت على درجة الامتياز في الفصل، ولا تحتاج إلى أن تتملقني».

«ربما تكونين أختها الكبيرة. لا، ليس هذا. هناك شيء يعبر عنه وجهك. إنه يذكرني بالسمك الإنساني».

«كيف لك أن تقول مثل هذا الشيء! هل سبق أن رأيت السمك الإنساني؟»

أجاب معترفا: رأيت صورته فقط».

«أما أنا فرأيته. عندما كنت طفلة، ذهب تلاميذ المدارس اليوغسلافية الابتدائية في رحلة للكهوف في بوستيانا».

«إذن؟ كيف هو شكلها؟»

«مثل شيء يعيش في كهف. إنها فريدة من نوعها».

«آه، هذا ما أسميه بالوصف العام».

«حسنا، إذن. يبلغ طول السمك الإنساني ما بين عشرة، وخمسة وعشرين سنتيمترا، وهي مخلوقات برمائية منبوذة. هي

حالة فريدة من التحول الفاشــل. تتنفس من خياشــيمها بشكل رئيسي، ولكنها تستطيع استخدام جلدها للتنفس أيضا. عمياء، ولهــا أذرع، وأرجل نوعا ما، يبدو أنها تم التخلص منها مع مرور الزمــن: فالأرجل مجرد جِدعتــين، والأذرع تنتهي بأيد لها ثلاثة أصابع. يبدو أنها تســتطيع البقاء من دون طعام لســنوات عدة، وعمرها طويل بشــكل لافت - فيمكنها العيش لمائة عام أو أكثر. ليــس لها لون معــين، وجلدها الأبيض الباهت شــفاف. يمكنك رؤية الخياشيم المحمرة قليلا والشرايين الدقيقة جدا من خلال جسمها، بالإضافة إلى قلب صغير. باختصار، إنها هجين فاشل ما بين الســحليّة، والسمكة، والجنين البشري. لقد كانت السمك الإنســاني معجزة يوغســلافيا. كان ينبغي علينا أن نضعها على علمنا بدل النجمة الحمراء. إنها «إي. تي». خاص بنا».

قال بالإنجليزية: «رائع جدا، يا رفيقة».

«أوه، هناك شيء آخر. أعتقد أنها توالدت في المرحلة اليرقية، لكنني لست متأكدة».

«من أين لك كل هذه المعلومات؟»

«ليس لدي أدنى فكرة. وهناك شيء آخر ...».

«ما هو؟».

«الســمك الإنساني آكل لحوم البشر. فهناك أوقات تأكل فيه صغارها لسبب ما».

قال إيجور، وقد بدا أن عقله في مكان آخر: «حســنا، حسنا. إذن أنا محق بعد كل هذا».

«ماذا تقصد؟».

«خرجت فتاتي من الكهف فريدة من نوعها، نموذج متوطن».

«أخبرني بالمزيد عنها».

«أكثر ما أحب فيها لون بشـــرتها. إنه بلون أعمدة الرواســـب البلورية الهابطة في المغارات».

«تقصد أعمدة الرواسب الكلسية الصاعدة، أليس كذلك؟».

«توقفي عن ذلك!».

«لكنني أحب الطريقة التي تصفها بها. أخبرني بالمزيد».

«أشعر بأن بشرتها جافة، ولكنها رطبة الملمس. أحب تعبيرها اللطيـــف، المرن البائس. والثغر نصـــف المفتوح، والطبقة الجافة اللامعة على شفتيها، وقطرة الرضاب على جانبه. وتلك النظرة النديـــة، والدمعة التي على وشـــك أن تـــذرف. وتلك الازدواجية الساحرة للغياب، والحضور الدائم في العيون. إذا نظرت إليهما: فســـتبدوان أنهما تتبعانك. وتلك الياقـــة البيضاء التي تحتضن عنقهـــا الرقيق. وذلـــك الوجه الصغيـــر الجميل الـــذي يتلهف للارتماء بين أيد دافئة، واقية - أو تحت المقصلة... هناك شـــيء لم يكتمل عنها بعد. هي تشـــبه أيضا الســـمك الإنســـاني بتلك الطريقة. أتعرفين؟ أنـــه ليس لديها حواجب. فتاتي يرقة جميلة تنتظر التحول».

أخذني «إيجور» الذي كان يقف خلفي من كتفي وحركني ببطء نحو اللوحة.

«انظري الآن بتمعن إلى القرط في أذنها».

«حسنا ...».

«ماذا ترين؟».

«لا شيء. اللؤلؤة فقط».

كان باستطاعتي أن أرى انعكاسنا في الزجاج الذي يقي اللوحة. بقيت يد «إيجور» على كتفي.

«انظري بتمعن أكثر».

«لا أرى شيئا».

«هذا ما ظننته. انتظري لحظة. لدي مكبّر للأشياء».

«لديك مكبّر؟».

«نعم، عندي واحد في جيبي».

«ماذا لديك أيضا في جيبك؟».

رد قائلا: «هذا ليس من شأنكِ. فقط انظري إلى اللوحة من خلال المكبّر».

«أرى اللؤلؤة ...».

«وفي داخلها؟».

«انعكاس».

«محبوبتي، أنت حقا عمياء! انظري مرة أخرى».

«لا أعرف. في مثل هذا النوع من الأشياء، قد تتوقع أن ترى صورة تمثل الموت».

«ليس لديك فكرة. اللؤلؤة تحتوي على صورة لوجه «فيرمير»!

كان وجهه متهللا من السعادة.

سألته: «ما الذي يجعلك تظن ذلك؟».

«أتقصدين أنك لم تريها بعد؟».

«كلا. كفى، قل الحقيقة. أنت تخترع كل هذا».

«أليس ذلك رائعا؟».

«حتى لو افترضنا وجود ذلك الوجه، ألا يمكن أن يكون تقليدا في ذلك العصر؟».

واصل كلامه: «الرسام، هو من أتى بها إلى الحياة، موجود في اللؤلؤة التي في أذنها!».

قلـت: «هناك من يقول إن الفتاة في الصورة هي «ماريا» ابنة «فيرمير»، وفي هذه الحالة يمكن النظر إلى ذلك على أنه التمثيل الرمزي الأول للحامض النووي».

قال إيجور: «وهذا سيجعل الصورة أكثر روعة! الأب والابنة يتّحدان في واحد معا».

«لكن هناك أيضا من يقول إن الصورة لشخص مختلف تماما، أو لشخصية خيالية. لقد رسم «ريمبراندت» صورا لمرتدي العمامة أيضا. يمكنك رؤية واحدة منها هنا في هذا المتحف».

«أولئك الذين يقولون إنها ابنته محقون».

قلت مازحة: «إن كان الأمر كذلك، «ففتاتك» ترتدي «أباها» في أذنها».

قال مقاطعا: «أخبريني، من ترتدين في أذنك؟».

«لا أعرف. تماما مثلما هي لا تعرف أنها ترتدي صورة موجدها، وأباها المفترض في أذنها. ولكن هذا ما ينطبق علينا أيضا. ليس كل من يعيش هذه الحياة يحتفظ في جيبه بعدسة مكبّرة».

«شارلوك هولمز فعل ذلك».

كنت أشعر بثقل يده على كتفي وبنفسه الدافئ الرقيق يداعب

مؤخرة عنقي. اعتدلت في وقفتي. أزحت يده بحذر واستدرت مواجهة إياه.

سألته: «وأنت؟ أين وشمك؟».

رد: «ليس لدي وشم».

«كان ليوروش واحد».

«يوروش؟».

«إنها علامة فارقة، العار الذي ورثه عن أبيه».

«ذلك الرجل مجرم، وليس أبا».

«أتتذكر الاستبيان الذي وزعته في أول يوم في الفصل».

«نعم، أتذكر ذلك الاستبيان الأخرق»، رد مركزا على كلمة «أخرق».

«حسنا، كانت إجابة «يوروش» عن سؤالي حول ما يتوقعه من الفصل الدراسي هي «أن أصحو».

«تبدو مبتذلة بعض الشيء وجهة نظري. مع ذلك لم يكن «يوروش» - كيف أصيغها - لم يكن الأكثر ذكاء في السقيفة».

«ماذا تقصد بذلك؟».

«لم يكن ذكيا بوضوح».

«قولك هذا ينقصه اللباقة».

«آسف».

«لقد أرسل يوروش كثيرا من إشارات الاستغاثة. لكننا لم نلاحظ ذلك، أو أننا لم نكترث بذلك. إنني أتحمل كامل المسؤولية».

«والآن يؤنبك ضميرك، أليس كذلك؟».

«حقائب اللعب تلك... كانت رسالة، رسالة لم نحل رموزها. كانت أمامنا مباشرة، وكان هناك أنواع كثيرة من الإشارات في الهواء. لقد أصابنا العمى. إنها مثل صورة «فيرمير» المفترضة عندك. ربما أن العالم سيبدو مختلفا لو تجولنا وفي جيوبنا عدسات مكبّرة. أو لو امتلكنا الموهبة التي أعطيت للشخوص الخيالية، موهبة فهم لغة النبات والحيوان، أو حتى فهم اللغة البشرية فقط، فهم كيف يتكلم الناس».

قال إيجور: «انسي ذلك يا رفيقة. الناس لا يتكلمون؛ الناس يتكلمون كلاما فارغا. لنوقف النقاش الآن. إنهم يغلقون المتحف. حان وقت الذهاب. هل لي أن أدعوك إلى تناول الشوكولاتة الساخنة؟».

كنا آخر المغادرين، ولكنني تمكنت من شراء تذكار من متجر بيع الكتب في المتحف: مثقلة زجاجية بيضاوية. كان تحت المثقلة صورة مقلدة لفتاة «إيجور».

كان الثلج الخفيف الناعم يتساقط عندما خرجنا من المتحف. عبرنا الساحة الصغيرة ودخلنا إلى الكافتيريا. وجدنا مقعدا بجانب النافذة، وطلبنا الشوكولاتة الساخنة. والآن ما إن بدأت الحديث عن موت «يوروش»، لم يعد يمكنني التوقف.

قلت: «ربما أكون أنا من سحب الزناد».

رد إيجور بسرعة: «أي زناد؟».

«أقصد أنني قد أكون الملامة بالنسبة إلى موت «يوروش». أرسل إليّ إشارة، ولكنني فشلت في حل رموزها».

قال إيجور: «هذا حِمل ثقيل! يجب أن تتوقفي عن إضفاء

الرومانسية على موت «يوروش». ما الحكمة في ذلك؟ هل يجعلك ذلك تشعرين بأي راحة؟ الله وحده يعلم لماذا قتل نفسه. ربما أصابه مس من الجنون. ربما سئم من الرحلة وقفز من القطار. ربما كانت تلك طريقته في وداع من حوله. أخبريني، لماذا اخترتني أنا لتزعجيني بسماع كل هذا؟».

«لأنه لا يوجد أحد آخر يمكنني مضايقته».

«أمسكي أعصابك، هل يمكنك هذا؟ تلك الدموع ستفسد الشوكولاتة الساخنة».

«سأتوقف عن ذلك. أعدك. سأتوقف».

«أتمنى لو أعرف أي فيلم أوقعت نفسي فيه - البكاء عصرا؟ أو ربما تكون رواية «لدانتيل ستيل».

قمت بمسح دموعي.

«أنتِ فتاة طيبة! كنت أخشى أن تتحولي إلى حبّار».

ضحكت، وساعدني الضحك على الارتياح المؤقت.

قلت بحذر: «أخبرني بعض الشيء عن نفسك».

«ماذا تريدين أن تسمعي؟».

«شيئا عن حياتك. هل والداك ما زالا على قيد الحياة؟ أين تسكن؟ مع من؟ هل لديك صديقة؟ من هم أصدقاؤك»؟.

«أنت وأسئلتك الخرقاء من جديد! حسنا، أعرف ما تنشدينه، ولا داع لقلقك. بداية، أنا لست من يقتل نفسه من أجل مجرم مثل الذي رأيناه في المحكمة. والأهم من ذلك أنني لست ممن يفكرون في الانتحار. فأنا موسيقي، وحاد الذكاء».

لم نتحدث كثيرا ونحن في القطار في أثناء عودتنا إلى

أمستردام. كنا مستغرقين تماما داخل أنفسنا في أشياء مختلفة: فكان «إيجور» يقرأ صحيفة هولندية؛ بينما كنت أنا أجري بيدي فوق المثقلة البيضاوية غير الملفوفة، مفكرة في الصور التي كانت أمي قد وضعتها في خزانة الأواني الصينية. لم تحتو تلك الصور على صورة لوالدي. لم أســتطع أن أتذكر والدي. إذ لم يكن في مقــدوري ذلك. كنت في الثالثــة عندما أقدم أبي على الانتحار. رفضــت أمي الحديث عن ذلك. لقد أحرقت جســورها ولم ترد أن تعيد بناءها من أجلي. فأنا لا أعرف أي شــيء عنه، ولا حتى اســمه. وإيغالا في طمس أي أثر له، سمّتني باسمها. ولا عجب أنها لم تحتفظ بأي أثر له في معرض خزانتها للأواني الصينية. كانت متيقنة تماما من أنها «أنقذتني» بإخراج والدي من سيرتي الذاتية. أنقذتني من ماذا - عِلمه عندها فقط. فقد فعلت كل ما في استطاعتها لملء جميع الشقوق التي يمكن أن أمر من خلالها، وأزالت كل الخيوط التي يمكن أن أجمعها. لقد رتبت جزءا كبيرا من ماضيّ، واحتلت مكان أبي أيضا وملأته بوجودها.

كانت اللؤلؤة غير المرئية فــي أذني فارغة. أمعنت النظر في ســطحها الكدر باحثة عن صورة سحرية. لم أستطع التأكد من أن المشهد الذي برز في الصورة من ظلمة عميقة دامسة، كان قد حدث فعلا، أم أن الرجل الذي ظهر في الصورة كان والدي. لكن ربما كان هو. أنا في الثالثة من عمري، وهناك رجل يحملني على ظهره، وأنا متشبثة بشعره. الرجل يمسك بحذائي وكأنه نهايات وشــاح يلفه حول عنقه. نحن نشــق طريقنا عبــر الثلج المتراكم العميق. إنه وقت الشفق، وهناك لمعة سحرية في كل شيء. فجأة

يحــوّل الرجل يده إلى كتفيّ ويســقط في الثلــج بحركة بطيئة. أشعر بسعادة لا يمكن وصفها.

قال إيجور رافعا رأسه عن الصحيفة: «أنت تخربشين أذنك».

«أنا أقوم بذلك؟».

«بماذا تفكرين؟».

«أوه، لا أعرف ... أنا لا أفكر في شيء، حقا».

في المحطة، ذهبنا كل في طريقه. استدرت لأرى قوامه الفارع وقد انحنــى قليلا تحت وطأة حقيبة الظهــر، ويداه في جيبيه. بدا في الظلمة من الخلف وحبات الثلج تنتشــر على ظهره أكثر عنفوانا ورجولة.

صحت: «سأراك في الفصل يوم الإثنين».

لم يستدر ولم يرد؛ إذ اكتفى برفع ذراعه ببطء ليؤكد سماعه لي.

٢٠

أخيرا دعتني إنيس، وسيز إلى المنزل. بصراحة لم تكن إنيس صديقة مقربة إلي بشكل خاص. لقد كان مجيئي إلى أمستردام محض مصادفة. صادف أن كانت صديقة مشتركة لنا في أمستردام، وكانت تلتقي إنيس من وقت لآخر، وبينما كانتا تتحدثان عن معارفهما وعملهما في الماضي، أعطت تلك الصديقة عنواني لإنيس. كنت قد درست وإنيس معا بعض الوقت، وذهبنا في مواعيد غرامية معا لبعض الوقت. كان اسم صديقها فالديك، وكان جوران صديقي. كانت تعرف فالديك من أيام المدرسة، وقد تزوّجا وهما في مرحلة البكالوريوس في الجامعة. لقد اختفيا من «زغرب» بعد تخرجهما، وسرت إشاعة بأنهما ذهبا إلى أمستردام. تدبر فالديك أموره في الجامعة بالمتاجرة بأعمال الفنانين الكرواتيين الهواة، خاصة في إيطاليا. والآن افتتح معرضا له في أمستردام.

كنت آمل أن تدعوني إنيس إلى منزلها حالما وصلت إلى أمستردام. فقد اتصلت بها مرات عدة مقترحة عليها اللقاء، لكنها كانت دائما تعتذر بلباقة بحجة أن لديها الكثير من المشاغل، وأن عليها الاهتمام بالأطفال قائلة: «حسنا، سنلتقي، نحن الاثنتان فقط، لنعيد ذكرى الأيام الخوالي؟». حاولت أن أتذكر إن كنا فعلا أمضينا أي وقت معا من دون وجود جوران وفالديك.

كانت إنيس فتاة زغربية بامتياز، جذّابة، تعتني بنفسها بشكل مفرط، وكان لديها أخصائية تجميل (ينبغي عليك الذهاب

إليها. لن تتعرفي على نفسك!) ومصففة للشعر، وطبيب أسنان، ومصممــة أزياء. اعتادت أن تبتاع ملابســها في لندن («فماركة تريســتي للفلاحــين!»). كان كل من كانت تعرف فــي خدمتها، من المرأة في مكتب التأشــيرات («فيكيكا أنجزت تأشيراتنا في خمــس دقائق!»)، من مجموعة الأطباء إلى مصففة الشــعر إلى القصابين وعامــلات التنظيف («ميلكيكا ممتــازة، فهي تنظف النوافذ جيــدا، ولا أحد يتفوق عليها في كــي الملابس. وعندما تحتاجــين إليها، تجدينها بالانتظار»). كان يزعجني ويدهشــني في الوقت نفســه تأقلمها الحميم مع العالم من حولها، وقدرتها على تطويعه بالكامل لإرادتها، وشعورها بالارتياح المطلق مع من حولها - وكأنها سكين يقطع في الزبد - وعدم اكتراثها التام بمن يختلف معها، ومواكبتها لحياة الراشــدين وهي لم تزل طالبة في الجامعة - وكأنها تتبوأ وظيفة بمرتب عال. كانت تتمتع بصفات «الفتــاة الزغربية»: أنوثة ترثها الفتاة عن أمها، أو تكتســبها من ولــوج الطبقــة الاجتماعية الراقيــة، والنبــرة العالية في بعض الأصوات، وميل للتركيــز على المقطع الأخير في الكلمة، والأداء المنغم بين علو وانخفاض الصوت صُمم ليوضح أنها كانت مهتمة بمحدثها مهما كان. ولكن، بالرغم من أن ذلك الصوت كان مفعما بالعاطفة والتوافق، إلا أنه لا يترتب عليه أي التزامات.

لم أكن مشــتاقة كثيرا لرؤيتها، ولكني تضايقت قليلا من أنها لم تتصل ولو مرة واحدة في الأشــهر الماضيــة منذ عودتي إلى أمستردام. وضعت المساحيق لأول مرة منذ زمن طويل، وارتديت الأقــراط، وحذاء بكعب عالٍ. بينما كنــت أبحث عن منزلها في

شــارع «بلوم»، شــعرت بشــيء من الخجل من رغبتي بالذهاب إليها متبرجة. كنت أريدها أن تراني في أحسن حال، مستخدمة الملبس لإخفاء واقع الحال.

لــم تتغير إنيس قيد أنملة. عانقتني عند الباب، وأخذتني من ذراعي إلى داخل المنزل وهي تثرثر («تانيكا! استديري لكي أراك بشــكل أفضل! يــا إلهي، تبدين رائعة حقا! كفتاة في الخامســة عشــرة! وذلك الفســتان! هل اشــتريته من هنا؟ مازلت أذهب إلى لندن عندما أحتاج شــيئا. ينبغي أن تشــاهدي «سيز» وهو يستشــيط غضبا عندما أذكر لندن! يقول لي: «ما الذي يجعلك تعتقديــن أنك لن تجدي واحدا هنا». لــن تجدي مثله هنا. إنهم يبذلون كل ما في وســعهم في محلات الملابس في أمســتردام، ولكن دون جدوى. فأي فتاة من بلدة «فيروفيتيكا» تلبس بشــكل أفضل مــن المرأة الهولندية العادية. أنتِ لاحظت ذلك أيضا. أنا متأكد من ذلك»).

لو شاهدَنا أي شخص لاعتقد أننا صديقتان قديمتان، التقينا بعــد فراق طويــل، وقد جعلنــي حديثها المتواصــل أعتقد ذلك أيضا. لقد شــعرت بأنني لم أقم بالواجب المطلوب بإهمالي تلك الصداقة.

أخذتني إنيس في جولة بالمنزل قبل أن نجلس لتناول الطعام. أرتنــي أولا غرف الأطفال. («الأطفال الآن مع والدة ســيز. أتمّ «بايت» الســابعة لفوره، وماريكي ثلاث سنوات. هذه صورة لهما، بايت وماريكا، كما أدعوها»). كان المنزل واســعا بأثاث بســيط، بالرغم من أن الجدران مغطاة بلوحات لفنانين كرواتيين سُــذج،

قالت وقد لاحظت نظرتي: («أردت شيئا يذكرني بالوطن». «وشيئا لأري الهولنديين أننا لسنا متسولين، أنت تعرفين ما أقصد؟»). لمحت عيناي أعلام الحداثة الكرواتية على رفوف الكتب - الأعمال الكاملة «لكرليزا»، و«يويفتش» و«ماروش» («أحب أن أقرأ قصيدة لليويفتش قبل أن أخلد إلى النوم. ألا تقومين بذلك؟ أنت تقرئين أكثر مني بكثير، أنا متأكد من ذلك. أنت لا تستطيعين تخيل حجم الإرهاق الذي يسببه الأطفال لي!»). كانت ستائر النوافذ في المطبخ مصنوعة من شريط الزينة السلوفيني، وعلى عتبة النافذة كان يوجد رف خشبي يستقر عليه كعكعة زنجبيل. وهناك وضعت الهدية التي أحضرتها لها، علبة شيكولاتة «الكراش»، العلبة التي على شكل جواز السفر الكرواتي.

سألتني في المطبخ على استحياء: «وهل اختفى فجأة هكذا؟».

«من؟».

«جوران، طبعا».

«لم يختف. إنه في اليابان».

«هل تتواصلين معه؟».

«كلا».

«من كان يتوقع ذلك! الزوجان المثاليان! لا يمكنني تخيل حدوث ذلك لكِ!».

«على كل حال، هذا ما حدث».

قالت مازحة: «من مصلحتك أنك لم تتورطي مع «ميلوسوفيتش» هذا».

لم أرد. كنت مندهشـــة من أنها تذكرت أن جوران كان مصنفا رسميا على أنه صربي.

«لا تغضبي مني! فأنا كنت أمزح فقط. أســـتطيع رؤية ما في داخلك، يا صديقتـــي العزيزة. لقد أغلقتِ عليه قلبك. قال إنكم لن تفترقوا. لكنه حر طليق الآن. والمفتاح لم يعد في حوزتك».

لم يكن باستطاعتي سوى الابتسام من تلك العبارات الهزلية، واختفى التوتر فجأة.

قالـــت: «لو كنـــتِ تزوجت كرواتيـــا كما فعلت أنـــا، لكان أمر التخلص منه أسهل لك. وكنت متزوجة ثانية الآن».

«لقد فقدت فرصتي».

«سقط فالديك في الوحل ساعة وصولنا إلى أمستردام. فقد انخرط في الحشيش وما شابه ذلك. أعني أنه تورط حقا». لقد لفظت كلمة «الحشـــيش» كتلطيف للتعبيـــر، وقالته بهمس وكأن أهلنا ربما كانوا يتنصتون علينا.

«أين فالديك الآن؟».

«حتى الشـــرطة لا تعرف أين هو. لكني لا أكترث بهذا الأمر. لم يعد فالديك يعنيني إطلاقا... حســـنا، لنذهب لتناول الطعام الآن».

كان «سيز» يتكلم بلغة كرواتية لائقة. («أترين ما صنعت منه؟ لقد قمت بوظيفتي على أحســـن وجه، أليس كذلك؟ بالرغم من أن ذلك من فعل والدتي، أليس كذلك يا سيز؟ أوه، على فكرة، ما أخبار عائلتكِ؟ لا أعرف حتى الذين مازالوا موجودين من طرفك فـــي أرض الوطن..»). لم تتوقف إنيس عن الكلام طوال وجودي

هنـــاك. كانت مضيفة مثالية، إذ وضعت على المائدة أحســـن ما لديها مـــن الأواني الفضية («لقد أخرجتهـــا من أجلك، لأذكرك بالطريقة التي اعتدنا أن نعيشـــها، وقـــد أتتني من جدتي»). إنه نبيذنـــا وزيت زيتوننا. («نذهب إلى الوطن كل صيف. لدينا مكان صغير مناســـب في جزيرة كورشـــولا. لا بد أن تأتي لرؤيته يوما ما. ثم نعود من هناك محملين مثل الغجر بالنبيذ، وزيت الزيتون، ولحـــم الخنزيـــر المجفف، وكل ما يمكن أن تتخيّليه. يحب ســـيز الذهـــاب إلى هناك كثيـــرا، وكذلك الأطفـــال. ويهمني جدا أن يتحـــدث الأطفال اللغة الكرواتية. وكذلـــك يهم أمي، طبعا. هي تقضي شهرين كاملين كل عام مع الأطفال»). استمرت بالحديث مـــن دون توقف عن الشـــاطئ، والأطفال، ووالدتها، وأم ســـيز، الهولندية. كان من غير المحتمل أن أتحدث وسط هذا الصخب.

كان من الممكن أن يصيبني الملل في مناســـبات أخرى، ولكنني وجدت الحديث مريحا للأعصاب في ذلك المساء. كانت الثرثرة الخجولة بغنّتها المميزة أشـــبه ما تكون بالبلســـم. لأول مرة منذ وقت طويل بدت الحياة «عادية» بالنســـبة إلـــي. عاد الزمن كله مـــرة واحدة، وداوى الجراح. كنت أقف على أرضية صلبة أخيرا، مســـتمتعة بالدفء الحاني في كلمات إنيس. للحظة تخيلت أننا في «زغرب». صحيح أننا تقدمنا في العمر بعض الشـــيء، وأننا بصحبة ســـيز وليس فالديك، ولكن جوران سيعود مباشرة، فقد ذهب للتو لإحضار زجاجة أخرى من النبيذ...

«يجـــب أن تجربي كعكة بذور الخشـــخاش. لقد صنعتها لك خصيصا. شـــكرا لله على الحكم الملكي للســـلالة النمســـاوية/

المجرية، إذ مــن دونهم ما كنا عرفنا ماهيــة الحلوى الحقيقية، إن كنت تعرفين ما أعني. كان علي أن أحضر بذور الخشــخاش مــن «زغرب» أيضا. لم يعد ممكنا الحصول عليها هنا، ولا حتى من – ماذا ندعوهم؟ – آه، الأتراك». من الواضح أنها أرادتني أن أفهم إشارتها العنصرية الخفيفة، وأن أومئ بقبولها.

غردت: «فطائر، وبقلاوة، وكعكة الخشخاش».

قالت متذمرة: «أنتِ والحنين إلى يوغسلافيا». فاجأتني تلك الملاحظة. قالتها بنبرة وكأني لم أتوقف عن الحديث عن الوطن.

بدأت إنيس باستخدام ضمير الجمع عند تناولنا القهوة.

«نحن سعداء أننا اســتطعنا أن نساعدك. من النادر جدا أن يساعد الناس بعضهم بعضا هذه الأيام. لقد كنتِ دائما الأفضل في صفنا في المدرســة، لذلك قلت لســيز أنكِ الشــخص الذي يســتحق الدعوة. وقد ســمعنا كثيرا عن طلبتك هنا. وعن ذلك الفتى. إنه لأمر مرعب!».

لقد فوجئت مرة أخرى. أحسســت أن الحديث ســيقود إلى مكان ما.

رددت قائلة: «كان اسم ذلك الفتى يوروش».

قالت: «لكل جيل انتحاره».

«ماذا تقصدين؟»

«أقــدم واحد على الانتحار ونحن فــي الجامعة، هل تذكرين ذلك؟ ماذا كان اسمه؟»

«نيناد».

«هــذا صحيح. ذهب إلى الهند وعاد ليقتل نفســه. يا إلهي!

هل تذكرين كل الناس الذين ذهبوا للحج في الهند؟ أما نحن، أنا وأنت، فلم ترق لنا تلك الأفكار الهندوسية قط، أليس كذلك؟».

سألني سيز مقاطعا إنيس، وقد أسعدني ذلك: «هل اكتشفتِ أي شيء بخصوص ذلك الطالب؟».

أخبرته بكل ما أعرف.

ثم وجه الكلام إلي: «يؤسفني أن أخبرك هذا. لدي بعض شكاوى الطلبة منك».

نزلت عليّ تلك الكلمات كالصاعقة.

«أي نوع من الشكاوى؟».

«للطلبة الحق في تقديم الشكاوى إن شعروا بأن الأستاذ لا يقوم بواجبه، وينبغي علينا أخذ شكاواهم بجدية. المسألة أن الطلبة غير راضين عن الطريقة التي تدرسين بها الفصل الدراسي».

خرجت كلماتي بصعوبة: «هذا ليس صحيحا».

«أظن ذلك صحيحا».

«مم يشتكون؟»

«يقولون إنهم لا يقومون بأي شيء له علاقة بالتخصص. يقولون إن الأمر مضيعة للوقت».

«هم يقولون ذلك؟»

«يقولون إنه ليس لديك برنامج واضح، وأن محاضراتك تتسم بالفوضى. فهم لا يذهبون معك إلى المقاهي فحسب، بل إنك تلزمينهم بفعل ذلك».

«من يقول ذلك؟».

قال سيز بوضوح: «ليس لي الحرية لإخبارك بذلك».

«لا يمكنك القول إن الجميع اشتكوا مني!».

لم يجب سيز عن سؤالي.

حاولت إنيس أن تواسيني. قالت إنني كنت عمياء، لأنني رفضت أن أرى أن الأمور قد تغيرت. الناس هنا في هولندا لم ينحازوا إلى طرف معين، إذ رأوا أن المسألة بالنسبة إليهم هي «واحد زائد واحد يساوي اثنين»، أليس كذلك؟ قالت إنني كنت طيبة أكثر من اللزوم، وأفرطت في الاقتراب من الطلبة. «وأنت تعرفين المثل القائل: من يلعب بالنار، يكوى بها». «ارتعدت من سماع عبارة «يكوى بها». أخبرتني بأن هناك مقترحا قد تم تقديمه إلى وزارة التربية الهولندية، وقد حضّره سيز بنفسه، يقضي بفصل اللغة الكرواتية عن اللغة الصربية في جميع الجامعات الهولندية، وهو أمر قد «تأخر كثيرا في ضوء الواقع السياسي الجديد». وإذا ما قبل مقترح سيز، فإنه، اعتبارا من الخريف المقبل، ستبدأ جامعة أمستردام بتدريس اللغة الكرواتية وآدابها، بينما ستبدأ جامعة «جرونينجن» بتدريس اللغة الصربية، وهو أمر طبيعي لأن تلك الجامعة تدرس اللغة البلغارية. وهذا يعني أن لدي فرصة كبيرة بالحصول على وظيفة دائمة في شهر سبتمبر. كلا، لم يكن لديهم أي مرشح آخر، لا أحد إطلاقا. لم يكن بإمكانها الحصول على تلك الوظيفة بسبب الأطفال، ولأن القوانين لم تسمح بأن يعمل الرجل، وزوجته في القسم نفسه، خاصة إذا كان أحدهم رئيسا للقسم. هذا بالإضافة إلى أنها لم تضع اللمسات الأخيرة على أطروحتها قط. قالت إنه ينبغي

علـيّ أن أفكر بنفسـي، فقد بدأت أتقدم فـي العمر، ولا يعقل أن تراودني العودة إلـى زغرب. لن يكون بإمكاني الحصول على وظيفة هناك، وأنا أعرف طبيعة «أهلنا». «عندما ترحلين، فأنت تعتبريـن رحلت للأبد. وهم محقون بطريقتهم. وتسـقطين بين مقعدين، ولن يشـفع لك أن لديك ردفا كبيرا». أجل، ردف. كانت تلك الكلمة التي اسـتعملتها، ومجددا شعرت بتغير مفاجئ. كان سـيز معي تماما، ولكن سيز ليس وحده. وحساسية الطلبة أكبر بكثير مما كنت أدرك فيما يتعلق «بالقضايا القومية». هكذا كانت إنيس مندهشـة من سـذاجتي في هذا الأمر وعدم قدرتي على رؤية الأشياء على حقيقتها في ضوء «الواقع السياسي» الجديد. ثم كانت مسـألة ذلك الصربي المسكين يوروش الذي أقدم على الانتحـار. انظري إلـى تلك الأمور المرعبة التـي واجهها أولئك الشباب حتى بعد أن ظنوا أنهم قد فروا بجلدهم.

قال سيز: «نحن لم ندعُك إلى هنا لإعطاء جلسات في العلاج النفسي».

«أنا لا أعطي جلسات في العلاج النفسي! أنت تعرف المستويات الثقافية المختلفة لديهم. كان عليّ أن أجد قاسـما مشتركا بينهم في الفصل. لقد سـلبوهم كل شـيء، ألا ترى ذلك؟ كيف لي أن أفرض الكوميديا على من نجا للتو من الجحيم؟».

تمتمت إنيس قائلة: «ألم يسـلبوك كل شيء. لقد فعلوا ذلك، طبعا. اشكري الله أن يوغسلافيا ذهبت إلى غير رجعة!».

«أنتِ لسـت مدربة لعمل ذلك، ولا تتقاضين الراتب من أجل هـذا العمل. نحن لدينا الخبراء لمثـل ذلك العمل في هذا البلد.

إنهم المعالجون النفسيون. وظيفتك هي أن تقومي بما طلبناه منك هنا، وندفع لك راتبا من أجله».

«أصغي إلى «سيز» يا عزيزتي. إنه يراعي مصلحتك الحقيقية بصدق».

«لقد أعطيت الجميع درجات عالية من دون وجه حق. وقد لاحظ كل من في القسم ذلك. لا يمكنك القول إن الجميع كانوا متفوقين إلى هذا الحد».

تمتمت: «لقد كانوا فعلا».

«هذا أنتِ! «تانيا» صاحبة القلب الكبير! لقد كانت صاحبة القلب الكبير دائما يا سيز. أتذكّر أنها مرة خلعت «بروشها» وأعطته لي عندما عبرت عن إعجابي به».

لم أتذكر شيئا من هذا القبيل، وتساءلت إن كانت قد اخترعت تلك القصة، أم أنني قد نسيتها.

«حسنا، الآن تعرفين أن رشوتهم بالدرجات المرتفعة لا تجدي نفعا. هم يصرون على وجود منهاج دراسي. أعتقد أنك استهنت بقدراتهم. إنهم يأخذون الأمور بجدية في دراستهم، وهذا يسعدني».

بدا عليها الخجل من جديد، وكأنها كانت تخاطب طفلا: «أصغي إلى سيز يا عزيزتي. إنه يعي ما يقول».

«أنا لم أرشهم! كيف يفوتك أن ترى أنهم في مرحلة تعاف! نحن جميعا في مرحلة تعاف! وأنا لا أشك إطلاقا بأن ما فعلته معهم أهم بكثير من أي منهاج أكاديمي». ولكن على الرغم من أني تكلمت معبرة عن رأيي، كنت أعرف أن كلماتي لن تجد آذانا صاغية.

هزّ سيز كتفيه.

«إن كانوا يعتقدون أن ما تقولينه أكثر أهمية، فلماذا اشتكوا من غياب المنهاج الدراسي؟».

بالنسبة إلى سيز، فإن موقفي ليس إلا مجرد عذر واهن لفشلي في القيام بواجبي الأكاديمي. دفق شيء في حنجرتي وجعلت أنتحب بتشنج. شعرت بأنني خدعت من جميع الأطراف: فقد خدعني طلبتي، وخدعت نفسي بالصياح في حضرة سيز وإنيس. لم أصدق، لم أصدق حقا أن أحد طلبتي ذهب ووشى لسيز بما كنا نفعله في حجرة الدراسة. أم هل كان هناك أكثر من واحد فعل ذلك؟ لقد استخدم سيز صيغة الجمع. هل يمكن أن يكون الطلبة جميعهم ذهبوا إليه؟ شعرت بالخجل، والنبذ، والحرقة، والغضب. لم أعد أعرف لماذا أستمر بالبكاء، ولكنني لم أستطع إيقاف دموعي. وكنت في درجة من الفزع لحد أنني، برغم ما يبدو عليه الأمر من غرابة، وبدل أن أغادر ذلك المنزل مباشرة، فإنني لم أرد شيئا سوى الانكماش على الأريكة، والبقاء هناك حتى الصباح. إن فكرة العودة إلى شقتي في الدور الأرضي ملأتني باليأس.

وفي خطوة تنم عن رغبة صادقة للمساعدة، جرت إنيس إلى الهاتف لطلب سيارة أجرة، معتبرة إياها بمنزلة سيارة إسعاف. («لن أجعلك تنتقلين من ترام إلى آخر وأنت في هذه الحالة!»)، عندما وصلت سيارة الأجرة، مدّ سيز يده ليوصلني إليها.

قال متلعثما: «آمل أنني كنت واضحا تماما. سأراك الأسبوع المقبل في القسم».

قامت إنيس بمعانقتي.

همست قائلة: «سيكون كل شيء على ما يرام. صدّقيني يا تانيا. فقط نفذي ما يقول سيز. أنت تعرفين أننا نحبك ولا نريد شيئا سوى الخير لك».

وبينما كنت أخرج من الباب، دسّت علبة صغيرة في يدي.

«قسمت لك قطعة من كعكة الخشخاش إلى شرائح. يمكنك تناولها غدا صباحا على الإفطار».

عندما بدأت السيارة بالابتعاد، رمتني بقبلة في الهواء، وتوارت إلى داخل المنزل.

في الصباح التالي لاحظت خدشا طويلا على ظاهر يدي اليسرى. كان الجلد أحمر، وكان الخدش يزداد عمقا. شعرت بالخوف في البداية، غير مدركة كيف حصل ذلك. ولكن سرعان ما تذكرت بغموض أنني جلست لفترة طويلة في الكرسي ذي المسندين، وكنت أحرك يدي من الخلف جيئة وذهابا على روافد المدفأة. تساءلت كم من الوقت استغرق إحداث مثل هذا الجرح في يدي.

٢١

توقفت أمام الباب. قبل أسـبوعين فقط كنت أسارع للدخول بكل حمـاس؛ والآن أبدو أفتقر إلى القوة لعبـور العتبة. أخذت نفسا عميقا وأمسكت بالحقيبة كترس ودخلت القاعة.

«أهلا وسهلا يا رفيقة. كيف كانت زغرب؟».

«هل أحضرت لنا الشوكولاتة التي وعدتنا بها؟».

«يسرنا عودتك. لقد كنا ننتظرك بفارغ الصبر؟».

أربكنـي ذلك الترحيب الحار والصادق. لم أعرف ماذا أقول. انتظرت حتى هدأ الترحيب، ومن ثم وزعت المنهاج الذي حضّرته في عطلة نهاية الأسـبوع. ضم المنهـاج قائمة بالمحاضرات التي سـألقيها حتى نهاية الفصل الدراسـي. وحملـت كل محاضرة تاريخا، وملخصا مقتضبا عن الموضوع الذي سـتتم تغطيته. بعد ذلك وزّعت قائمة بالقـراءات المطلوبة، والتي ضمت نحو مائتي صفحة كل أسـبوع. أخبرتهم أنني سـألتزم بالبرنامج بصرامة، وأنه يتعـين عليهم أن يكونوا قد قرأوا النصوص قبل أن أتحدث عنها. وأعلنت أنه مطلوب منهم بحثان، وامتحان نهائي شـفوي. وقلت إنني لن أتسـامح مع الغياب مستقبلا، وأن الغياب المتكرر سينعكس على الدرجة النهائية.

صاحت ميليهـا ضاحكة: «ما الذي يحدث هنـا؟ أثمة نظام جديد في الحكم؟».

تجاهلت تلك الملاحظة.

تذمر ماريو قائلا، وعيناه تسـتعرضان القائمة: «كيف لنا أن

نقــرأ كل هذه الكتب إن كانت المكتبة لا تملك إلا نســخة واحدة فقط؟».

أجبتهم: «يتعين عليكم تقاسمها فيما بينكم، أو تصويرها. لقد أمضيت أنا نفسي جزءا كبيرا من عطلة نهاية الأسبوع في مكتبة القسم لتصوير الكتب التي تظهر في أول القائمة.

سأل سليم: «هل من المؤكد أن جميع الكتب في قائمة القراءات متوافرة في المكتبة؟».

«إن جميع الكتب في قائمة القراءات موجودة في المكتبة. وإلا لما أدرجتها في القائمة».

أعطيت نسخة خطة المنهاج إلى «سيز» أيضا.

«مائتــا صفحة في الأســبوع؟ أليس هذا مبالغــا فيه بعض الشيء؟».

«لا، إطلاقــا. الطلبــة الأمريكيون يقرأون حوالــي أربعمائة صفحــة في الأســبوع. عدا ذلــك، أنت من طلبت هــذا، أليس كذلــك؟» بدا ما ذكرته عن الطلبة الأمريكيين، وهو ما قرأته في مكان ما، قد فعل فعله. كان رد «سيز» هز كتفيه فقط.

كانــت المحاضــرات مخصصة لمســح مقارن موجــز لتاريخ الآداب السلوفينية والكرواتية، والبوسنية، والصربية، والمقدونية، التي شــكلت رحلة شــاقة عبر حقل زاخر بالحقائق، والأسماء، والتواريخ، على الرغــم من أنني خصصت بعض الوقت في آخر الفصل الدراسي لتحليل مواضيع العديد من الروايات الكرواتية.

عــدم التصديق علق علــى وجوههم لبعض الوقــت. حاولوا إرجــاع تصرفي على أنه نزوة، وســامحوني، علــى أمل أن تكون

النـــزوة مؤقتة فقط، وفي المرة القادمة ســتعود الأمور كما كانت من قبل. من طرفي اســتمررت فـــي تفحص وجوههم باحثة عن الشـــخص الذي اتهمني. في بعض الأحيان ظننـــت أنها ميليها، ثـــم نيفينـــا، أو إيجور، أو بوبان... قمت بعمل شـــاق في محاولة لمعرفـــة إن كان واحد منهم فقـــط، أو اثنان اتفقـــا معا. تخيلت ميليهـــا، وإيجور وهمـــا يقدمان تقارير منتظمـــة عما يجري في حجرة الدراســـة إلى سيز. أو سليم وهو يجري إلى سيز ليخبره عن الأشـــياء المجنونة التي كانت تحدث، متمثلة ببعث بلد دمرها مواطنوها باســـم الضرورة التاريخية. لكن أليس من الممكن أنها كانت جوهانكي؟ أو آنا؟

كنت أغادر مباشرة بعد انتهاء المحاضرة. لم أذهب إلى مكتبي قـــط. فعلت كل ما أســـتطيع لتقليل التواصل معهـــم. وتدريجيا تحولـــت الصدمة على وجوههـــم إلى حيرة، وأخيـــرا إلى خيبة أمل. ومع ذلك، كانـــوا يأتون إليّ بعد المحاضرات منتظرين مني أن أدعوهـــم لتناول القهوة. لقـــد حاولت ميليها مرة، ومن بعدها نيفينا.

«مرحبا يا رفيقة. ما رأيك بفنجان من القهوة؟ على حسابي».

جاء ردي في المرتين: «شكرا، فأنا مشغولة في هذا الوقت».

كنت أراهم منغمســـين في الحديث في المقهى المقابل للقسم. أشبه ما يكون باجتماع مشترك لقادة القوات المسلحة. كنت أدرك أنهم يتحدثون عني. «العاهرة. لقد تحولت إلى «لوســـيفتش» إلى عاهـــرة حقيقية». تخيلـــت أحدهم، المخبر، وهـــو يجلس ضاما شفتيه وعابس الوجه. حاولت أن أحدس من سيتوقف عن المجيء

إلى الفصل أولا. إيجور؟ آنتي؟ نيفينا؟

فقط مرة واحدة فقدت السيطرة على نفسي. لقد طلبت منهم أن يحفظوا عن ظهر قلب قصيدة «الرثاء اليومي» للشاعر يوجفتش. طلبت منهم أن يكونوا مستعدين لإلقائها من البداية حتى النهاية، ومن النهاية حتى البداية. كانت تلك خدعة سخيفة تعلمتها من أستاذ جامعي للشعر الكرواتي كان مكروها جدا، وكان يتلذذ بتعذيبنا بمثل هذه الواجبات. أتذكر أنني أقسمت في ذلك الوقت أنني لن أطلب أبدا شيئا مرهقا من هذا القبيل من طلبتي في المستقبل.

رفضت «نيفينا» أن تحفظ القصيدة في كلا الاتجاهين. طلبت منها أن تقرأها بصوت عال. كانت قراءتها مشوشة جدا. ثم طلبت منها أن تقرأها في الاتجاه المعاكس. وقفت هناك هكذا، وقد غاب عنها كل شيء. لقد كان مشهدا مؤلما ومهينا. وأخيرا أنقذ إيجور الموقف عندما وقف وألقى القصيدة بشكل رائع.

قلت: «شكرا، يا إيجور. وأنت يا نيفينا، يمكنك العودة بعد أن تكوني قد حفظت القصيدة».

لمّت نيفينا أشياءها، وأسنانها تفشي لفظ «العاهرة!»، وخرجت من غرفة الصف. أظن أنني سمعتها تنفجر بالبكاء وهي تدفع الباب من خلفها. شعرت بالتعاطف معها، ولكن كان قد فات الأوان. لم يكن لدي أدنى فكرة عن كيفية الخروج من الدور الذي رسمته لنفسي.

كنت أحس بأن تذمرهم يتزايد. كنت أحسه كلما دخلت حجرة الدراسة، أحسه ماديا تقريبا، وكأنه تغير في درجة الحرارة.

أحيانا كان ذلك الإحساس يملأ الغرفة لدرجة عالية جعلتني أخاف من أن يحطم النوافذ. ومع ذلك لم ينبسوا ببنت شفة. كنت أتساءل متى سيفقدون القدرة على التحمل ويثوروا، أو على الأقل، إن كان أي منهم سيأتي أخيرا ليواجهني، ويسألني لماذا كنت أتصرف بتلك الطريقة. لكنهم لم ينبسوا ببنت شفة. كان إيجور الوحيد الذي لم يتأثر بكل ما جرى. كان يحملق فيّ وكأنه يستكشف روحي، وكان أحيانا يضع سماعات الأذن التي لم تغادر عنقه قط.

«أغلق جهاز الموسيقى يا إيجور. هذا فصل دراسي وليس حفلا لموسيقى الروك».

«أنا لا أستخدم هذا الجهاز عندما أحضر حفلات الروك».

«كيف لك أن تسمع ما أقول عندما تكون..»..

«لا تقلقي. أسمعك بشكل أفضل عندما يكون الجهاز مفتوحا».

قلت: «سنرى ما سيحدث عند الامتحان».

كان الأمر مرهقا حقا. كنت أتفوه بأشياء ليست من طبعي، وكرهت نفسي بسبب ذلك. وما استمراري بذلك إلا لأنني لم أستطع التخلص من فكرة أن أحدهم كان قد ذهب إلى سيز وأخبره بكل ما كان يجري في الفصل الدراسي الأول.

على الرغم من ذلك، فإن التعود على روتين النظام الجديد قد قلل من حجم تلك العداوة لحد أنني في مرحلة معينة بدأت أشعر ببعض المتعة في إعطاء محاضرات «حقيقية». وكانت ردة فعل الطلبة متناغمة مع ذلك. فقد لعبت ميليها دور الطالبة المجدة، ولم يغب إيجور عن محاضرة قط، وكانت آنا تدون كل

ما أقوله، وأبدت جوهانكي حماسة عالية جعلتني أشك لبعض الوقت بأنها هي من وشت بي لسيز. ولكن في ذلك الوقت كان الفصل قد تقلص إلى هؤلاء فقط. فنيفينا لم تعد قط، وتوقف ماريو، وسليم، وبوبان، ودراكو عن الحضور واحدا تلو الآخر.

أكملنا المقدمة التاريخية دون مشاكل تذكر. لقد كان للجولة عبر العصور والمدارس الأدبية، والمؤلفين، والعناوين، أثرا مخدرا إلى حد ما. تركت موضوع العودة لنهاية الفصل. لم يكن أحد منهم يعرف إن كان يريد البقاء، أم العودة، ولكن الجميع كان يشعر بأن بقاءهم هنا «مؤقتا فقط»، وصبوا جهدهم على إنهاء الأبحاث المطلوبة منهم. وعندما ينتهون منها، رأوا أنه سيكون بمقدورهم اتخاذ القرار المناسب. لم يزل «الوطن» يلمع في مكان ما في داخلهم، مشيرا إلى طريق عودة محتمل.

إذن، ها أنا هنا أحشو حقائب طلبتي اللاجئين مرة أخرى. وهذا ما فعلته خلال الفصل الأول مع فارق واحد: لم تحتو الحقيبة هذه المرة بضاعة مهربة. لقد كنت أعرّفهم بعائلتهم الأدبية، بأسلافهم. كانت النماذج التي اخترتها تمثل سيرة ذاتية للبطل الروائي. عادة ما كانت القصة تبدأ بضمير الغائب، وتنتهي بضمير المتكلم، على شكل مذكرات لبطل الرواية، أو رسائل إلى صديق. على رغم أن أبطال الروايات كانت من «تربة الوطن»، فإنها جميعا - خاصة التنويعات الكرواتية - كانت تحمل تشابها عائليا متميزا لشخوص «كالفتى ويرثر» و«تشايلد هارولد»، فضلا عن الشخوص الروسية التي نعتها النقّاد «بالرجال الزائدين عن الحاجة»: كشخوص مثل «تشاتسكي» للروائي «جريبودوف»،

و«يوجين أونيجين» للروائي «بوشكين»، و«بيتشورين» للروائي «ليرمنتوف»، و«رودين» و«لافريتسكي» و«كيرسانوف» للروائي «تورجينيف»، و«أوبلوموف» للروائي «جونتشاروف»، و«إفانوف» للروائي «تشيكوف»، و«كافاليروف» للروائي «أوليشا»؛ كانوا جميعهم يدورون في فلك الآداب السلافية الأخرى مثلهم مثل الكثير من الأشخاص النزقين. هذا بالنسبة للروائيين من الرجال. أما الخط النسائي، فقد احتوى على ثلاثة أنماط بشكل أساسي: الفتاة الوطنية الجميلة، التي عادة ما يتخلى عنها البطل؛ والمرأة المشؤومة، التي تسخر من البطل لكنها أيضا تلهمه، والضحية الصامتة، التي تبقى وفية للبطل حتى النهاية.

لقد أدهشني تكرار ظهور الملامح الشائعة لأبطال الرواية. شعرت وكأنني أقرأ في علم الوراثة وليس الأدب. بدا الأمر وكأنه اكتشاف الواحد منا لشيء طالما أدركناه من دون أن نعيره أي أهمية، مثل اكتشاف شامة في جسمك في نفس المكان الذي توجد فيه في جسم والديك، أو جسم أطفالك، أوجسم أحفادك. كثيرا ما شعرت بأنني أشاهد تركيبة مسلسل تم إنتاجه لأكثر من عصور (بالرغم من أنني لم يكن من الممكن أن أعترف بذلك علنا).

قرأنا روايتين للكاتب ك. ش. جالسكي هما «جانكو بوريسلانفتش» و«رادميلوفتش»؛ وفيهما جن بطلا الروايتين وأقدما على الانتحار؛ وقرأنا روايتين لفينسييللاف نوفاك: رواية «عالمان»، ورواية «تيتو دورشيك»، كما قرأنا رواية «الهروب» للكاتب م. س. نيهايف، وكان مصير الأبطال الثلاثة الانتحار. كذلك

قرأنا رواية «عودة فليب لاتينوفيس» الذائعة الصيت لكرليسا، والتي مثلها مثل الأخريات، كانت تتناول موضوع المنفى. وبينما شعر أبطال جميع هذه الأعمال بالوحدة خارج الوطن، كان سبب موتهم المأساوي عدم قدرتهم على التكيف مع العودة إلى الوطن.

قالت ميليها: «ولكن ما يمكن أن يشد انتباهنا حقيقة، هو الرواية عن العمال، التي تحكي عن آبائنا، وأجدادنا، الذين ذهبوا إلى ألمانيا، والسويد، وفرنسا وهولندا، وخدموا كالعبيد لسنوات، فقط لكي يعودوا إلى الوطن ويضعوا ما جنوه بشق الأنفس في بناء منازل ضخمة - شيء ملموس يتركونه وراءهم، ويجعلهم يستقبلون الموت بصدر رحب - والتي من ثم وقفت خالية أشبه ما تكون بنصب تذكاري ليوتوبيا مرحلة التقاعد النهائي، تشبه الأهرام، تشبه الأضرحة. فقد جاءت الحرب وذهب كل شيء أدراج الرياح».

قالت آنا بتوتر: «ربما. ولكن هل هذه حكايتنا حقا؟».

«يا أختي، أراهنك أنها حكايتنا، إن كان والداك قضيا نصف حياتهما في ألمانيا وأنت الآن تعيشين في الخارج، ولا يوجد قرش واحد باسمك. اسألي صديقتي «آلدا» وستخبرك. لقد تقاعد والداها بعد ثلاثين عاما من العمل. أودعوا كل قرش وفروه في مصرف في سراييفو، معتقدين أنهم سيبنون منزلا ويستقرون فيه. فأين هم الآن؟ لقد عادوا إلى مدينة كولونيا الألمانية! هكذا تجري الأمور معنا: فكل جيل يبدأ من لاشيء وينتهي بلاشيء. لقد بدأت جدتي وجدي - ووالداي من بعدهما - حياتهما من الصفر بعد الحرب العالمية الثانية، ثم جاءت هذه

الحرب الجديدة لتعيدهم من حيث بدأوا مرة أخرى. وها أنا هنا أبدأ من نقطة الصفر، ولا أملك شيئا».

لم ينبس أحد ببنت شفة. فقد حام صفر ميليها فوق رؤوسنا كحبل المشنقة.

استعار علماء الأنثروبولوجيا مصطلح «النائم» من روايات الجاسوسية الشهيرة. «النائمون» هم مهاجرون يعيشون حياة «طبيعية» في بيئتهم الجديدة: يتعلمون لغتها ويتكيفون مع أساليب الحياة فيها، ويبدون مندمجين فيها - وفجأة يشعرون بصحوة. ويستحوذ عليهم حلم «العودة إلى الوطن» بقوة محولا إياهم إلى أناس آليين. فيبيعون كل ما يملكونه ويعودون إلى الوطن. عندما يدركون الخطأ الذي ارتكبوه (كما يفعل معظمهم) يعودون إلى البلاد التي كانوا قد «ناموا» فيها لمدة عشرين سنة أو مهما كان من سنوات كثيرة، ويجبرون على العيش مرة ثانية (كما يفعل المرء وهو مستلق على أريكة الطبيب النفسي) مرحلة التكيف لسنوات مرة أخرى - بعد الانكسار مرتين، ومع التأهيل مرتين - إلى أن يتصالحوا مع مصيرهم الجديد. الكثير منهم يعيشون حياة موازية: فهم يسقطون صورة الوطن على جدران البلاد التي يقيمون فيها «مؤقتا فقط»، ويعيشون الصورة المسقطة علي أنها حياتهم «الحقيقية».

كان طلبتي يبعدون كل البعد عن كونهم من «النائمين»، ولا يمكنهم حتى أن يحلموا بأن يصبحوا منهم. فهم لا ينتمون إلى هنا ولا إلى هناك. كانوا منهمكين في بناء قصور في الهواء، ويحدقون إلى أسفل لكي يقرروا أي مكان سيناسبهم ويحسن

أوضاعهــم. كنت بالطبع واحدة منهــم، فأنا أيضا كنت لا أنتمي إلــى هنا ولا إلى هناك. الفارق الوحيــد هو أنني لم أكن أتحمل التحديق إلى أسفل، إذ كنت مصابة بالدوار.

٢٢

لم أعرف بالضبط ما السبب الكامن وراء ذلك، ولكنني كنت أجد نفسي أحيانا متوقفة في منتصف الشارع، وقد نسيت إلى أين كنت ذاهبة. كنت أقف هكذا مثل طفل خائف من أن يطرد من اللعب إذا حرك ساكنا. تأتي الصرخة 'أنتِ أخرجي!' قد يكون سبب الارتباك هو أنني لم يعنني حقا إلى أين كنت ذاهبة، أو أنه كان من الممكن أن أكون واقفة في أحد شوارع مدينة أخرى، وأن وجودي في هذه المدينة كان مجرد مصادفة، كذلك، كان كل ما قيل وحدث، كل شيء كان محض مصادفة. لقد انتهى الكثيرون منا في أماكن لم يحلموا بأن يروها قط، فضلا عن أن يعيشوا فيها. ويستمر ذلك بالحدوث من يوم لآخر. كان الأمر مثل الذهاب للنوم في حياة والاستيقاظ في حياة أخرى.

في بعض الأحيان كان يقطع نومي ألم قهري عصيّ على الوصف، ألم يخلو من الألم. كنت أنهض من الفراش وأتوجه إلى الحمام، أشعل الضوء، وأفتح صنبور الماء لفترة، ثم أرتشف جرعات صغيرة، محاولة إطفاء ظمأ بدا كأنني عانيت منه منذ زمن بعيد. بعد ذلك أتكئ بجبهتي على مرآة خزانة الدواء، وأراقب رذاذ أنفاسي ينتشر بنعومة على سطح المرآة.

«آه يا جرحي، آه يا روحي. لقد أتى الخريف. أنا الويل. آه يا جرحي، جرحي المتقيح..». الجراح حميمة في وطني؛ إنها أبناؤنا، وبناتنا، وأحباؤنا. الجراح هي الحب؛ والحب يعني الألم. مرة سمعت أنا وجوران لحنا صربيا لعبارة «آه يا جرحي»يدوي

في أحد شوارع برلين. أرانا البائع المتجول شريطا رخيصا للموسيقى مكتوب على غطائه «آه يا جرحي». عندما ناوله جوران النقود، قال لي مبتسما، «جراحنا هي أشهر صادراتنا».

«آه يا ألمانيا، آه أيتها البلد الغريبة. لقد منحتك حبيبي. ومنحتك شقيقي»؛ إنهم ينوحون، ويندبون، ويصرخون لعقود على العمال المهاجرين، واللاجئين، والمهاجرين، والمنفيين، والمغامرين، واللصوص، والمحتالين، والهاربين من الجندية... «آه يا أستراليا، آه أيتها البلد الغريب». «آه يا كندا، آه أيتها البلد الغريب».

لم أستطع أن أفهم مغزي مقاطع الفيديو الوطنية الرخيصة، التي انقسمت مناصفة بين الترويج السياحي، والدعاية السياسية – حيث يعود رجال بشوارب داكنة حديثا من مهمات في الخارج وهم يتحدثون عن القوة المغناطيسية الجاذبة للعودة للوطن. يتسلقون الجبال ويعبرون الوديان في طريقهم إلى قراهم، حيث تنتظرهم العجائز بشوارب باللباس الأسود بجانب المدافئ – يعودون وهم يحملون الحقائب المحشوة بأيديهم، ويرتدون العقود الذهبية والصلبان على صدورهم المشعرة. «يا وطني! أيتها الأرض الحبيبة!» يترنم مواطنونا العائدون بصوت عال، وهم يحملقون في الأفق الجميل، وهو الشيء الجميل الوحيد الذي سيحملقون فيه. ربما يكون كل المهاجرين ممثلون أُعطوا أدوارا في مسلسلات لا نهاية لها، ربما تكون طبيعة المنفى هي التي تمنعهم من مسخ ما يفعلونه وما يشعرون به.

كلما وجدت نفسي في حضرة أرق الهجرة، رحت أفكر مليا كيف ستكون الأمور مستقبلا لو لم تكن كما هي عليه الآن، آملة

فـــي أن أجد مكانا دافئا لنفســـي. أقوم بخلـــط كل من أعرفهم معـــا وكأنهم رزم مـــن أوراق اللعب. أفكر بجـــوران وهو يحتضن زوجتـــه هيتو. لديهما طريقة منتظمة فـــي النوم بينما كل منهما يضم الآخر. يئن، فتصحو. تســـأله: «هل أنـــت بخير؟». يتوقف الأنين ويعود التنفس إلى طبيعته. تنام هيتو من جديد. كنت أفكر بوالدة جوران وهي ذاهبـــة إلى المطبخ لتناول كأس من الحليب. تأخذ بســـكويتة من علبة البســـكويت الدنماركية، ثم تغير رأيها وتأخـــذ اثنتين أخريين. ثم واحدة أخرى. تغمس البســـكويت في الحليـــب وتدفعه إلى قعر الكأس بإصبعهـــا، ثم تتناولها بملعقة. يريـــح الخليط الحلو أعصابها. تندب حظهـــا: «لا أفهم ذلك. لا أستطيع التوقف عن تناول الطعام. خاصة في الليل». كنت أفكر في نفسي وجسدي ملتف في السرير في «غرفة ضيوف» والدتي، وأنـــا أصغي إلى وقع الخُف، وصرير الباب، وصوت تبول والدتي فـــي الحمام المحاذي لغرفتي. تمتلئ الغرفة بالأصوات المجلجلة. ثم تتوقف الأصوات، وتنسحب عائدة إلى سريرها. وعندما تغفو، تزيّن ماضيها مثلما تُزين بيض عيد الميلاد، بترو ورضا.

في مثل هذه الأوقات فقط، وأنا مســـتلقية على ســـريري في ملجئي بأمســـتردام، كنت أستطيع الحصول على صورة واضحة لنفسي. أتصور نفســـي وأنا أرتدي بنطلون الجينز وألبس سترة فـــوق قميص البيجاما وأخرج من «البـــدروم». أحاول أخذ نفس عميق، لكن الهواء فاتر ولزج، مثل حلوى غزل البنات. الرياح شبه الاســـتوائية تكنس الفضلات المبعثرة بطول الشارع. يَعلق كيسان بلاســـتيكيان بين أغصان إحدى الأشـــجار القريبـــة ويصدران

فرقعة، ووهجا باهتا في الظلمة وكأنهما رسائل من عالم آخر.

أرى امرأة قصيرة، وبدينة، من البلدة نفسها بمشية مرحة. كان معها امرأة طويلة، شيباء، في رعايتها. تستخدم المرأة العجوز عكازين لمساعدتها على المشي. تأمرها المرأة الفتية بصوت اخترق طبلة أذني كإبرة: «تحركي يا ماما». جميع «أهلنا» يعرفون هذه المرأة. يقولون: «إنها امرأة عبقرية». تتباهى أحيانا باصطحاب مجموعة حقيقية من أقارب متخيلين، وأحيانا بأنها حامل بجنين عمره ثمانية أشهر ونصف، وأحيانا بأنها امرأة معاقة متخيلة، كما هي اليوم، أم متخيلة، ولكنها دائما ما تكون بصحبة رجل شديد البأس يتبعها كالظل، ويداه مدسوستان في جيبيّ سترته القصيرة. يدعون أنها تستطيع سرقة أي شيء يريد «أهلنا» شراءه من لباس، ومجوهرات، وأجهزة فيديو... تقبع قائلة: «لنذهب يا ماما. تحركي».

تلكزني امرأة إنجليزية ثملة في مقتبل العمر وتسأل «ألديك كبريت؟».

أقول: «لا، آسفة».

ترد قائلة: «تبا لك»، وتمضي في طريقها.

أقف أمام ستوديو للوشم. الاستوديو مغلق، لكن التلفاز في شباك العرض يبث فيلما وثائقيا. يقول رجل ياباني في مقتبل العمر، وقد استدار ليعرض ظهره المرصع بالأوشمة للكاميرا: «بدأت أشِم نفسي لأتعلم معنى الألم. كل نموذج من هذه النماذج يشكل لحظة من الألم». ويومئ رجل ياباني آخر في مقتبل العمر، وهو مغطى بالأوشمة، بحيوية قائلا: «الألم مفتاح النجاح!».

يدور الماء السميك الأسود في القناة بشؤم. تظهر فجأة أوزة من داخل الظلمة وتتجمد مثل شبح. في تلك اللحظة يتوقف التلفاز في شباك العرض عن العمل، وتختفي الصورة عن الشاشة. أظل واقفة لبعض الوقت. مازال الكيسان البلاستيكيان يفرقعان بين الأغصان كطائرات الأطفال الورقية. تمس الريح شبه الاستوائية وجهي. يسيل العرق على ظهري. وتأتي الصرخة «أنتِ اخرجي».

ثم أعدو إلى داخل جُحري كفأر مذعور.

٢٣

وصلنا إلى نهاية المرحلة التمهيدية. تعلمنا كل الحروف. يمكننا قراءة الخط المطبوع والمكتوب باليد. الآن يمكننا قراءة جميع أنواع كتب الأطفال الجميلة. الآن يمكننا قراءة كل شيء. ونعرف كيف نكتب أيضا. نعرف أن نكتب كل شيء نراه. الآن يمكننا أن نقرأ ونكتب بأنفسنا. كلما ازددنا معرفة، تحسنت حالنا.

طالب أول تمهيدي

من ثم جاء الامتحان. كان أربعتهم موجودين: جوهانكي، وميليها، وآنا، وإيجور في الممر خارج مكتبي. دخلت «جوهانكي» أولا. طرحت عليها أسئلة كثيرة أجابت عليها جميعا بشكل صحيح، وأعطيتها درجة «ممتاز». لقد كانت مُجدة أكثر من الآخرين بكثير، وأثبتت أنها مراقب رصين لما يدور. في تلك اللحظة فقط أدركت أنني لم أتبادل معها حديثا جديا من قبل. لقد تبنيناها وكانت «لنا». ويبدو أن ذلك كان كافيا.

قالت: «آمل أنك سوف تبقين هنا».

قلت محاولة أن أبدو مرحة: «قد أبقى».

وقفت ومشيت إلى الباب معها ومددت يدي مودعة. بدت مضطربة.

«تمنياتي لك بالتوفيق». قلتها كبلهاء، مدركة أنني من يحتاج

إلى تلك الدعوة أكثر منها.

عندما دخلت «ميليها» كنت أدرك أنني لا أستطيع الاستمرار في ذلك الدور.

قلت لها: «لا تكترثي بالامتحان يا ميليها».

«ماذا تقصدين؟».

قلت بصدق: «لا يمكنني أن أمتحنك. بامتحان أو بدون امتحان، أنت تستحقين درجة ممتاز».«تقولين لي هذا الآن! بعد أن راجعت حفظ المادة طوال الليل، مثلما كنت أفعل عندما كنت طالبة. بالمناسبة، لقد كان أمرا رائعا حقا! إذن ستعودين في السنة القادمة؟».

«ربما».

قالت بمرح: «حسنا، إن كنت ستعودين، سأعود أنا أيضا».

تحدثنا قليلا عن والديها وعن خططها وعن وضع دراستها.

قالت فجأة: «لا أعرف ماذا سأفعل. لقد وقعت في الحب».

«من هو؟».

«رجل هولندي!».

ثم تحدثنا قليلا عن حبيبها الهولندي، فهو شخص رائع، ومغرم بالبوسنة. ويعمل في منظمة غير حكومية، تعنى بمنع العنف أو شيء من هذا القبيل. يقضي وقتا في سراييفو أكثر مما يقضيه هنا. ويعرف اللغة. ربما سينتهي بها الأمر بالذهاب معه إلى هناك. من كان يتخيل أن شخصا هولنديا هو من سيجعلها تعود إلى الوطن. «وهناك أيضا... أبي. إنه يتدهور. كل ما يستطيع قوله هو «الحياة مجرد نكتة كبيرة». إنه مثل الببغاء. تسألينه إن

كان يريـــد البيض مقليا أم مخلوطا، فيجيب: «الحياة مجرد نكتة كبيرة». برغم ذلك، ربما عليّ تعلم بعض الدروس منه».

وقفـــت ميليها، وأنا وقفت مباشـــرة، وتصافحنـــا. كانت على وشـــك أن تفتح الباب عندما توقفت وارتسم طيف على وجهها، جعلها تبدو أكبر سنا بعشر سنوات.

«ما الأمر يا ميليها؟».

«لا شـــيء. أحيانا أظـــن أنني أصبت بالجنون. أكون ماشـــية وفجأة أتوقف لأقوم بجمـــع أجزائي: ذراعيَّ ورجليَّ. أفٍّ، هناك أيضا رأســـي المجنون. أنتِ لا تعرفين مدى سعادتي عندما أجد تلـــك الأجزاء. لـــذا على أي حال، ألصقها معـــا، وتصمد لبعض الوقت. أظـــن أن ذلك اللصق سيســـتمر إلى الأبـــد، وبعد ذلك تتســـاقط أجزائي مرة أخـــرى. ومرة أخـــرى أجمّعها من جديد وألملم نفسي ثانية مثل قطع لعبة اللغز منتظرة المرة القادمة..».

فتحـــت الباب ثم أضافت: «لقد تبلـــل وجهي الآن، وصديقي الهولندي ينتظرني في الطابق الأرضي». رسمت ابتسامة مفتعلة على وجهها، وانسلت خارجة.

جاء دور آنا.

قالت أثناء دخولها الغرفة: «أريدك أن تعرفي أنني لم آتِ من أجل الامتحان».

«ماذا تقصدين؟».

«لا فائدة من ذلك، فأنا لن أستمر في الدراسة».

«ما سبب هذا القرار المفاجئ؟».

ردت قائلة: «سأعود إلى بلجراد».

«مهلا. اشــرحي لي بعض الشــيء. ما الــذي جعلك تقررين العودة؟».

«لطالما فضل جيرت بلجراد، وهذا المكان يثير أعصابي».

«ألن تفتقدي أي شيء هنا؟».

«كلا».

«لكنك أمضيت سنوات عدة هنا، أليس كذلك؟».

«كان يمكن أن تكون في أي مكان آخر».

«هل أنت متأكدة بأنك لا تريدينني أن أعطيك درجة؟».

تظاهرت بعدم سماع السؤال.

قالت: «جئت فقط لأودعك»، ثم أضافت من دون تفكير: «هل أنت وحيدة؟»

«لماذا تسألين؟».

«العيش في بلد أجنبي أصعب بكثير عندما تكونين وحيدة».

قلت: «الأمر يعتمد على عوامل أخرى». ولم أرد أن أتابع ذلك الحديث.

قالــت: «أنت تعرفين... إن ما حدث كان من الممكن أن يحدث بغض النظر عن الظروف».

«ماذا تقصدين بذلك؟».

«لــم تدركي ذلك، ولكنك كنت الســبب الأول والأخير لبقائنا معا. كانت الأمور ستنهار بدونك».

«لماذا؟».

«لأن الأمور تسير هكذا. في البداية كانت معنوياتنا عالية، إذ كنا نريد الاستمتاع بالحياة. كانت الحياة انفجارا، حفلة لا نهاية

لها. ثم صحونا في صباح أحد الأيام لنجد فراغا يلفنا».

«فراغا؟ ماذا تقصدين بذلك؟».

«لا أعـرف. أفترض أنـه يعني ذلك الشـعور المرعب بأنه لا يوجد أحد خلفك، ولا أمامك».

«لكن لديك جيرت».

«يكون الهولنديون أحسن في الخارج منهم في الداخل».

«ماذا يفترض أن يعني ذلك؟».

«إنهم يتأقلمون مع الحياة في الخارج، ولكنهم كالسمك خارج الماء عندما يكونون في هولندا».

«ماذا تتوقعين أن تجدي عندما تعودين إلى أرض «الوطن»؟».

«الرعب تلو الرعب».

«وماذا تجدين هنا؟»

«غياب الرعب».

«هذا سبب كاف للكثيرين للبقاء هنا».

قالت بسكينة: «لكن هولندا صعبة أيضا بطريقتها».

ثم أخرجت ظرفا من حقيبتها ووضعته على مكتبي.

«ما هذا؟».

«مفتاح الشقة».

«شقة من؟».

«لم نعد نحتاج إليها، وقد تبقين هنا».

«لم أتخذ قرارا بعد».

«ولكن ربما تقررين البقاء».

«هل هي شقتك؟».

«لا. إنها شقة «جيرت»، وهي من الشقق التي توفرها الدولة. كل مــا عليك فعله دفــع فاتورة الغاز والكهربــاء، وهي لا تكلف شــيئا تقريبا. آه، عليّ أن أخبرك، فهي ليست في مركز المدينة. العنــوان، ورقم الهاتف، وكل ما تحتاجين إلى معرفته موجود في الظــرف. الأثاث قديم جدا، لكن يمكنــك التخلص منه. يمكنك عمل كل مــا تريدين من تغييرات. ســنغادر أنا و«جيرت» خلال أســبوع. أخبريني بقــرارك. اذهبي وألقي نظــرة عليها. اتركي المفتاح في الصندوق إن لم ترق لك».

كنت مندهشــة من آنا، وفي لحظة شــعرت بالغيرة منها. بدا أنها تعرف شيئا محددا لا أعرفه. حملقت في الظرف لفترة بعد ذهابها، ثم وضعتــه في حقيبتي. فتح مفتاح «آنا»، لفترة وجيزة، الباب الذي كان يكبح كل مخاوفي.

بقــي إيجور فقــط، ولكنني لم أقوَ على الحركة. اســتمررت بالتفكير بآنا، وميليها، والحياة التي عاشــتاها، تلك الحياة التي لم أعرف عنها شيئا البتة.

كان بحــث إيجــور أمامي، وكنت أقلب صفحاته وأنا شــاردة الذهن، بالرغــم من أنني قرأته من قبل. فــي معالجته لموضوع «العــودة» فــي الأدب الكرواتي، اختار إيجور عمــلا غير متوقع إطلاقا، حكايات الجنيات الخرافية: كيف التمس بوتييه الحقيقة لكاتبة أدب الأطفال المشهورة إيفانا برلتش - ماتزورانتش.

كان ثمــة رجــل عجوز يدعى «فيســت»، وثلاثة مــن أحفاده يعيشون في بقعة فارغة في غابة شاطئية قديمة. في أحد الأيام ظهر الإله «سفاروســيتش» - الذي يســميه إيجور «بالسوبرمان

السلافي» – للصبية الثلاثة:

وعندما تحدث، حرك «سفاروسيتش» طرف معطفه، ثم رفع «ليوتيشا» و«ماورون» و«بوتييه» على ذلك الطرف. ثم حرك طرف المعطف من جديد محدثا التفافة فيه. وقد التف الأشقاء الثلاثة مع التفاف المعطف، وفجأة بدأ العالم يمر من أمامهم. بداية شاهدوا كل الخزائن، والحقول والأملاك، والثروات الموجودة في العالم في ذلك الوقت. ثم، بينما هم يلتفون، ويدورون من دون توقف، شاهدوا الجيوش، والرماح، والسهام، وجنرالات الجيش، والغنائم الموجودة في العالم في ذلك الوقت. وبعد مزيد من الالتفاف والدوران، رأوا فجأة كل النجوم، والقمر، والأخوات السبع، والرياح والغيوم. وقد أدهشت هذه المشاهد الصبيان الثلاثة، ولم يزل طرف المعطف يرفرف ويحفّ ويهسهس كبساط من الذهب. وفي تلك اللحظة وجد الأشقاء الثلاثة أنفسهم في مأواهم في الغابة من جديد، والرجل الذهبي «سفاروسيتش» يقف أمامهم مرة أخرى. وهنا خاطبهم قائلا: «هذا ما ستفعلونه. ستبقون هنا في هذه البقعة، ولن تتركوا جدكم العجوز حتى يترككم هو، ولن تدخلوا العالم لخير أو لشر حتى تعيدوا له الحب الذي منحكم إياه.

وعندما يسأل الجد أحفاده عما شاهدوا في العالم والنصائح التي تلقوها من الإله «سفاروسيتش»، لا يتذكر «بوتييه» أي شيء، فيغادر مأواه إلى داخل الغابة بحثا عن ذاكرته، وعن نصائح «سفاروسيتش»، حيث تهاجمه عفاريت الغابة، التي يسميها «إيجور» بمعاوني الشيطان الأكبر.

أومـأت لإيجور، فدخـل وجلس. رأيت انعكاسـي في وجهه. كان الأمـر كمن ينظر فـي مرآة. بدا وكأنـه دوّن كل كلمة قلتها خلال الفصل الثاني، وبدأ الآن يشـغل الشـريط. استهل بتلاوة تلك القائمة الجافة من الأسـماء، والتواريخ التي لقنتها لهم، ثم راح يتظاهر تظاهرا متكلفا لإخفاء ازدرائه لي. قمت بمقاطعته.

قلت: «اندهشت بعض الشيء من بحثك».

«إنه يتناول عملا محيّرا».

«ماذا تقصد؟».

«مـا الحقيقة المهمة التي لا يتمكـن بوتييه من تذكرها؟ أهي الرسالة التي تلقاها من سفاروسيتش؟ كل ما قال له سفاروسيتش هو البقاء في مأواه، وهو شيء بسيط يخلو من التعقيد».

«إذن؟».

«إذن يظهر سفاروسـيتش مرة أخرى لبوتييه ويخبره بالشيء نفسـه: عد إلى مأواك. ولكن ماذا يحدث الآن عندما يسـتعيد الذاكرة؟ إنه يموت. يقول وهو ينحني إلى البئر: «غطسة سريعة ثم أطير إلى جدي العزيز»، ثم يسقط فيه ويغرق».

«حسنا، كيف تفسر ذلك؟».

«إذا مـا أخذنـا قواعد النمـط الأدبي التي تقـول «لا مكان يوازي مكانة المنـزل» بعين الاعتبار، فالكل يفترض أن يعيشـوا في سـعادة إلى الأبد. يجد أبطـال القصص الخرافية الحكمة، والثروة، والأميرات في أسفارهم، وهم لا يسقطون في الآبار. لا بد أن شـيئا ما دار في ذهن ماتزورانيتش جعلها لا تنهي القصة بالطريقة التقليدية».

«لكن ينتهي أمر بوتييه في بلاط سفاروسيتش».

«يضع سفاروسيتش بوتييه في الجنة، وهي الموت مضافا إليه النهاية السعيدة، ولكنها نهاية يعوزها الالتزام لأننا جميعا نضمن الجنة أو الجحيم بطريقة أو بأخرى. لذلك، فالعمل مجرد هراء من خلال منظار فني، ولكنه عمل عبقري صرف من خلال منظار التحليل النفسي».

«لماذا؟».

«الرسالة جلية: «النفي» يعادل الهزيمة، حيث يتيه بوتييه في الأدغال في ضباب كثيف وهو فاقد الذاكرة، أما العودة لمأواه فتعادل عودة الذاكرة. ولكن تلك العودة تعادل الموت أيضا، فما أن عادت إليه الذاكرة حتى سقط في البئر. من هنا، فالنصر الوحيد لحرية الإنسان يكمن في رحيلنا الساخر في جزء من الثانية في هذه الوجهة، أو تلك، أو وجهة ثالثة ما. ومن أجل تلك الحقيقة الكامنة، انحرفت ماتزورانيتش عن ذلك النمط الأدبي وخرجت بقصة خرافية «سيئة».

رفع نظره إليّ، وعيناه السوداوان المائلتان تزنان روحي.

لقد هزمني: إذ أراني شيئا ما كان يمكن أن أراه بنفسي. العمل يمكن أن يتحمل تفسيرات عدة، لكن قراءته صدمتني فكلاهما صحيح ومفزع. ماذا لو كان كل ما قاله صحيحا؟ ماذا لو كانت العودة تمثل الموت - رمزا أو حقيقة - والنفي يمثل الهزيمة، ولحظة الرحيل هي لحظة الحرية الحقيقية الوحيدة التي منحت لنا؟ وإن كان هذا صحيحا، ماذا سنفعل بها؟ ومن هم «نحن» على أي حال؟ ألسنا جميعا ممزقين إربا ومجبرين على

التيــه في الأرض، نلتقط أجزاءنا كما تفعل ميليها، ونجمّعها معا كقطع اللغز، التي نلصقها معا برضابنا؟».

«ما الأمر يا رفيقة؟ أعني دكتورة لوســيتش». قالها ســاخرا، وكأنه كان يقرأ ما يدور في ذهني.

هــذا دفعني من جديد إلى دوري. فالحديــث الذي دار بيننا لفورنــا كان خطــوة باتجاه الوفــاق. مددت يــدي أولا، ولكنني سحبتها الآن.

«شكرا يا إيجور. هذا يكفي. سأسلم الدرجات إلى السكرتيرة غدا أو بعد غد، وستخبرك السكرتيرة بدرجتك».

في اللحظة التي قلت له ذلك، كرهت نفسي أكثر مما كرهتها في أي وقت مضى في حياتي».

نهض مستهجنا، ثم حمل حقيبة الظهر واتجه نحو الباب. لكنه ما لبث أن اســتدار وقال: «ثمة ملاحظة بســيطة يا دكتورة. في الأدب، الرجــال هم من يخرجون إلى العالم. يخرجون، ويعودون ليذرفوا «الدمع الغزير». أين النسوة من كل هذا؟».

لــم أرد. حولت نظري عــن اتجاهه، صماء وبكمــاء. بالكاد اســتطعت أن أميــز ملامحه. لقــد دفنت جــذوري في الأرض واكتسبت لون محيطي. شعرت بالســمكة الإنسانية التي علقت أثناء عملية التحول تتحرك في داخلي: الخياشيم تتنفس، والدم يجري عبر أدق الشــرايين، والقلب الصغير ينبض بســكينة دون صوت البتة. ســاعدني واجعل القلب ينبض. المســني وسأتحول إلى سيدة جميلة؛ اتركني وسأبقى سجينة ظلمتي إلى الأبد.

بعد أن غادر إيجور، انبريت لتحديد الدرجات للطلبة. قررت

أن أنجّح نيفينا، وسـليم، وماريو، وبوبـان، وآمرا، وأعطيت كلا مـن ميليها، وجوهانكي، وآنا درجة «ممتاز». ولكن ماذا أنا فاعلة بإيجور؟

لا أعرف لماذا فعلت ما فعلت. كنت مثل «برلتش - ماتزورانتش» التي لـم تعرف لماذا تلاعبت بنمط أدبـي كان قد أثبت جدارته مـرات عدة. لا بد أن شـيئا قد وقع بطريق الخطأ، شـيء في داخلهـا، هو الذي منعها أن تنهي تلـك القصة بالطريقة المتبعة، تلك الطريقة التي أنهت بها بأريحية قصصا أخرى كثيرة. كل ما أعرف هو أنني لم أكن قادرة على السـيطرة على الاندفاع لأدير قصتي بالاتجاه الخطأ، وعندما أعطيته درجة «راسـب» أخيرا، مشفوعة بتفسـير خادع مقتضب بعد فترة من التردد - شعرت باشمئزاز عضوي ممزوجا بالخزي، والخزي ممزوجا بشعور من الراحة.

الآن كل ما عليّ فعله هو تسـليم الدرجات إلى أنيكي وإعادة مفتاح مكتبي ورؤية سيز. جلت بنظري في الغرفة. لقد كنت في مساحة مكشوفة من حجرة. كنت في أرض قاحلة من خلفي، ولا شيء أمامي سوى المفتاح في الظرف القابع في قاع حقيبتي.

بعد ذلك سـحبت درج مكتبي للتأكد من أنني لم أنس شـيئا، وعندها رأيت ورقـة طويت إلى نصفين. كانت رسـالة مجهولة وضعت في صندوق بريدي في القسـم قبل بضعة أشـهر. وقد وضعتها في ذلك الدرج ونسـيتها بالكامل. والآن أقرؤها وكأنني لم أرها من قبل.

أيتها العاهرة اليوغسلافية، تبا لك! عندما أفكر بالناس الذين قتلوا وهم يحاولون النجاة من ذلك النظام الشيوعي الفاسد، وأنت مازلت تروجين لمبدأ الأخوة، والوحدة الفارغ. كفي عن هذا الهراء، أتسمعينني؟! الموت للجماهير، ولتحيَ الفاشية!

كابتن ليشي

ملاحظة: انعمي بهذا الهراء.

لم تكن هناك كلمة واحدة تشير على هوية المُرسل: إن كان صربيا، أو كرواتيا، أو بوسنيا. من المؤكد أن ذلك كان سيحبط جهود أكثر المحققين اللغويين خبرة. وقد أدركت أن تلك الخبرة الواسعة التي اكتسبتها أخيرا ستجعلني، أردت أم لم أرد، خبيرة في نصوص الكراهية. وأنه من الصعوبة بمكان أن تشرح محتوى ذلك النص لأي شخص، شخص هولندي، على سبيل المثال. فكيف لي أن أوصل السجع في كلمات وعبارات النص؟ وكيف لي أن أشرح ما يكمن وراء شعار «الموت للجماهير، ولتحيَ الفاشية!» أو الإحالة إلى البطل اليوغسلافي الخيالي في الخمسينيات، «كابتن ليشي»؟

كانت تلك الرسالة المستترة ما تبقى من شظايا إحدى القنابل. وبالرغم من أنها وجدت طريقها إلى درج مكتبي، إلا أنني لم أبدِ أي اهتمام في اكتشاف مصدرها. أخذت قلم حبر أحمر وصححت الأخطاء الإملائية في النص بنوع من اللامبالاة الحنونة. ثم مزّقت الورقة إلى قطع صغيرة، ونثرتها في الهواء كما تنثر الحلوى. لقد انتهت الحرب.

٢٤

سرتُ بروِيَّة نازلةً درجات السلم الخمس لأقابل في الطابق الأرضي بالمصادفة، لاكي، عالم اللغة، الذي كان قد حضر بعض الحصص الدراسية في الفصل الأول قبل أن يتوارى عن الأنظار. توقف للحظة وكأنه في شك مما سيفعله. ثم رفع عينيه، ونظر جانبا، وقال متشدقا ببطء: «كيف حالك سيدة لوسيتش؟»

«أنا بخير، الحمد لله. وأنت؟».

«أموري عادية. فمازلت أتردد على القسم، كما ترين».

«هذا صحيح. ولولا ذلك لما تصادفنا هنا».

«وابتداء من سبتمبر سآتي إلى هنا يوميا».

«حقا؟».

«لقد أعطيت مكتبا. لذا سأتمكن من إكمال المعجم».

«هذا خبر جيد».

«إلى حد ما، وستكون الأمور بشكل أفضل عندما ينشرون المعجم».

«أنا متأكدة من أنهم سينشرونه».

«لم نكن لنحلم بمثل هذا إطلاقا عندما كان الرفاق في السلطة».

قلت: «هذا مؤكد»، وقد بدا واضحا أن نبرة التهكم في صوتي تكررت في رأس لاكي.

«حصلت على دعم مالي من وزارة السياحة في كرواتيا. هذا يخدم مصلحتهم على كل حال. ذلك سيساعد في تسويق

السياحة الهولندية. استطعت أيضا أن أحصل على بعض الدعم من وزارة الثقافة. قدم القسم هنا مساهمته البسيطة بإعطائي مكتبا. ليس بالأمر المهم بالطبع، ولكنهم ربما أيضا سيسمحون لي بالتدريس لبعض الشعب التدريبية».

«هذا رائع».

«إلى حد ما... بالمناسبة، هل أنت ذاهبة إلى الوطن في الصيف؟». لقد استخدم كلمة «الوطن» كبديل محايد للبلد، الذي حين كان لا يزال قائما، كان العمال في الخارج يدعونه «يوغا»، مترنمين في لفظ حروف المد فيه.

«قد أذهب».

«إنني في غاية الاشتياق. يملك والداي منزلا رائعا في جزيرة هفار، حيث أقضي شهرين كل عام هناك».

«حسنا... إلى اللقاء».

رد قائلا: «بالتوفيق يا سيدة لوسيتش».

العيون التي ترفض أن تطيل النظر لعينيك أكثر من ثانية، وذلك الموقف الرافض للشيوعية الذي أصبح موضة بعد تغيير الحرس القديم (بالرغم من أن لاكي لم تكن له أي علاقة بالشيوعية من قريب أو من بعيد)، وذلك الكلام الحضري (للوقت الحاضر) المختلط المهروس، واللهجة، والنزوع الأدبي(كان الأمر أشبه ما يكون بالجد والحفيد وهما يتكلمان من الفم نفسه)، وذلك التصنع في مخاطبتي «بالسيدة لوسيتش» «كل ذلك كان مقززا بشكل مبهم، كتحذير مسبق بشيء غير سار.

بدلا من أن أخرج من المبنى، عدت إلى الطابق العلوي وطرقت على باب سيز، الذي كان بمفرده.

«تفضلي يا تانيا. تسرني رؤيتك. كنت سأبحث عنك».

لم يحاول هو أو إنيس إطلاقا - البحث عني «منذ أن كنت في منزلهما في ذلك المساء. في الحقيقة، اتصلت بهما مرة أو مرتين، واستقبلت بكلمات إنيس الودية تشرح لي عن مدى انشغالهما وعدم وجود أي وقت فراغ عندهما، وكيف أنني لم أغب عن بالهما، وأنهما كانا يسمعان أخباري الطيبة من طلبتي، وأنه لا بد أن نلتقي ونتبادل أطراف الحديث الممتع. لقد كان تلفظها بعبارة «الحديث الممتع» على وجه الخصوص منفرا.

والآن بدأ سيز يشرح لي أنه على الرغم من التقارير الممتازة التي وصلته عني في ذلك الفصل الدراسي (هل عنى «التقارير» حرفيا، أم كان ذلك على سبيل المجاملة؟)، فلن يكون بإمكانه منحي الوظيفة في سبتمبر، لأنه لم يستطع إيجاد الدعم المالي الضروري. فقد قامت وزارة التعليم الهولندية بتخفيض الميزانية المخصصة للدراسات العليا عبر السنوات القليلة الماضية، وأنه حتى يأتي الوقت الذي يتمكن فيه من إيجاد الدعم لشاغل وظيفة في تدريس اللغة الكرواتية وآدابها، وهو يفعل كل ما يستطيع بهذا الخصوص، فإنيس ستتطوع للقيام بتلك الوظيفة مجانا. كانت تلك تضحية كبيرة من جانبها، ولكنها الطريقة الوحيدة لإبقاء البرنامج حيا. كان القسم يواجه مشاكل كبيرة، فحتى اللغة الروسية، وهي

المصدر المالي الرئيسي، كانت تفقد زبائنها. لم يكن بمقدوره أن يطلب مني التدريس مجانا. كلا، لم يكن ليحلم بذلك، وهو يعرف الظروف التي كنت فيها، وأنه لن يريد أن يستغلني. سأتمكن من إيجاد وظيفة ما، لم يساوره الشك في ذلك، فأنا، كما قال، أحمل شهادة الدكتوراه، ولدي خبرة في التدريس، وأملك «قلبا كبيرا». والأهم من ذلك كله هو أن «السلافيون معلمون بالفطرة، أليسوا كذلك؟» أبلغني تحيات إنيس وأنها تعتذر عن عدم تمكنها من رؤيتي. لقد غادرت لفورها إلى جزيرة «كورشولا» مع الأطفال، وأنه سيلحق بها قريبا أيضا، حالما ينتهي من تسليم الدرجات. وطلب مني أن أرى آنكي في الأيام القليلة القادمة بخصوص إجراءات إخلاء الشقة التي استأجرتها عن طريقها، وبخصوص المفاتيح والتأمين وما إلى ذلك.

كان سيز صادقا في حديثه. لم يكن هناك أي إشارة توحي بسوء النية. مع ذلك لم يتطرق إلى موضوع المكان الذي سأذهب إليه بعد أمستردام، فأولئك الذين يتوخون الحذر لا يسألون أسئلة قد تتم إجاباتها عن التزامات من طرفهم – لكن طوال الوقت كان تفكيري مشغولا خلال حديثه بشيء واحد.

قاطعته وقد أصابني الفزع: «سيز، إن تأشيرة إقامتي هنا أوشكت على الانتهاء».

«لا أعرف كيف يمكنني المساعدة».

«يمكنك أن تكتب رسالة بصفتك رئيسا للقسم تؤكد فيها أنني سأدرّس هنا في العام القادم».

«ولكن ذلك ينقصه الصدق. لا أستطيع المجازفة بذلك».

«لا تكترث السلطات بالحقيقة، فهم يهتمون بالوثائق فقط. لا يوجد مجازفة إطلاقا».

«لا أعرف ما..».

قلت بصوت كدت لا أميزه: «سأحضر غدا لأخذ الرسالة. يمكنك تركها عند آنكي».

تركت المكتب مطمئنة بأن الرسالة التي تحمل ختم القسم، وكل ما تحتاج إليه ستكون بانتظاري في اليوم التالي. ثم هرولت نازلة الدرج وذهبت إلى المقهى في الجهة المقابلة من الشارع. وصلت الحمام في اللحظة الحرجة، ورحت أتقيأ بشكل لم أعهده في حياتي.

فيما بعد، سألت نفسي عما سأجنيه من الرسالة، ولماذا أذللت نفسي لأحصل عليها. ما قيمة التمديد إذا لم يكن هناك شاغر للوظيفة؟ لقد شاهدت أعراض حمى المهجّرين عند الآخرين، عند «جوران»، على سبيل المثال، ولكنني اعتقدت أن لدي حصانة منها. كان هناك كل ذلك الحديث عن «الأوراق»، والاستعداد للذهاب إلى آخر مدى من أجل الحصول على «الأوراق» المناسبة. ثم ماذا؟ «ثم سندرس الأمر». لقد شاهدت الوجوه تغير تعبيراتها بشكل متلاحق، أو تدمج المكر والتذلل والخوف معا، وشاهدت النظرة المتوترة، والحزينة، ونصف الإجرامية تلاحق التزاحم من أجل الحصول على آخر جحر متوافر. سمعت أحاديث مفعمة تتوقف فجأة بسبب سيطرة جو من اليأس غير المرئي، ولكن الناس ينفضون ذلك اليأس ويستأنفون أحاديثهم بالحيوية نفسها.

أنا لســت مهجّرة، فأنا أملك جواز ســفر في جيبي. لماذا أذللت نفسي أمام سيز، فضلا عن إنيس، التي من المؤكد أنها ستسمع عما حدث مباشرة. («أعني أننا عملنا كل ما نستطيع فعله لها. ينبغي على المرء أن يتولى أمره في النهاية. الســفر إلــى الخارج يلفه الغمــوض..»). آه يا إنيــس! تلك الحلاوة، والخفــة، والأبهــة، ودفء الجنوب، والرضا الــذي يلج منزلا جدرانه تتألق من الغنائم، غنائم الزواج الأول. («شــيء لنري الهولنديين أننا لسنا متسولين، تعرفين ما أعني؟»). كانوا يرون أنفسهم في حصن برجوازي منيع، بينما كنت أراهم يتأرجحون على طوف جليدي، وهما يبتســمان ويثرثــران طوال الوقت، وهمــا يخرجان أواني الجدة الفضيــة. الفضيات، واللوحات الساذجة هي سلاحهم الوحيد أمام القدر، وأمام الشر، فهي الإشارات الأكيدة بأنهم ينتمون إلى طبقة محصّنة من الأذى. أما بالنسبة إليَّ، فسأجد شيئا. أملك شهادة الدكتوراه، وقلبا ســلافيا كبيرا. الســلافيون معلمون بالفطرة، أليسوا كذلك؟ ســأحصل على تصريح الإقامة وبعــض الفتات عن الطاولة، ومن ثم ماذا؟ ثم سندرس الأمر.

بعد أن هدأت قليلا، أدركت أن ســيز لم يعِد بأي شــيء، ولم يكن ليلام على أي شيء. كنت أفتقد إلى الموارد الداخلية والخارجيــة معا. لقد كنت مكشــوفة لمن يريد. يســتطيع أي شخص أن يأخذني ويركلني ويفعل بيَ كل ما يريد، ثم يتركني مجروحة مهيضة الجناح. بسبب هذا كنت صيدا سهلا لثرثرة إنيس وكلماتها المعســولة. واللوم لم يكن ليقع عليها مثلها مثل

سيز. لقد فقدت كرامتي، وارتديت قناعا محاولة الدفاع عن نفســـي، واندمج القناع مع وجهي، وحفر طرقا داخلية عميقة في كينونتي. لم أعد أعرف نفسي.

مررت بإيجور وأنا خارجة من المقهى. كان يرتدي ســماعات الأذن ويقرأ في كتاب كعادته. لم يرني. فجأة فكرت بالأمريكيين الذين كنت أعتني بأطفالهم في برلين، أولئك الذين طالما عرّفوني على أصدقائهم. «هذه تانيا. راعية أطفالنا. أنها من يوغسلافيا السابقة. إن تانيا رائعة مع الأطفال. تعرف كيف تعاملهم حقا».

٢٥

«أنت واحدة منا؟»، يســأل بنظرة فطنة وابتسامة تكشف عن سن من الذهب. تتدلى من زاوية فم صاحبه سيجارة مبللة.

أرد قائلة: «نعم، أنا واحدة منا. من أين أنتما؟».

«أنا من سميديريفو، وهذا الرجل من كومانوفو. وأنتِ؟».

أقول: «أنا؟ أنا من المريخ».

الآن يبتسم كلاهما.

قال الغجري: «لا يوجد فيها ما يشــبه أهلنا. الشــفة هي ما تميزهم». ثم استدار نحوي. «أتريدينا أن نعزف لك شيئا؟».

«لم لا».

«إذن، شيء من الوطن. من المريخ».

«رائع».

التقط مزمــاره. ألقي صاحبه «بالأكورديــون» على كتفيه ثم ألقى السيجارة أرضا.

أخرجت ورقة نقدية من فئة مائة جيلدر وأسقطتها في القبعة.

نظــر عازف الأكورديون إلى الورقــة النقدية وأعول «الرحمة يــا أختي. هل أصابك الجنون أو شــيء ما لتلقي بالنقود هكذا؟ احتفظــي بها للظروف القاهرة، ليوم من أيام الشــدة. حســنا، أتركــي لنــا جيلدرا أو جيلدريــن، لكن هذا المبلــغ؟ «يا إلهي! لا تفقدي صوابك يا امرأة. النقود لا تنمو على الأشجار!».

طمأنت قلقــه ولوحت إليه بيدي وتحركــت بعيدا إلى داخل الحشــد، شاعرة بقنبلة الفتى الغجري المؤلمة - «اغربي، آه، أيتها

الشمس الذهبية، اهبطي. اجعلي السماء مظلمة للقمر..».، «تفجري في قلبي، واسكني فيه. وفجأة كان قلبي يسبح في الدماء، والجليد الذي يغطي جدرانه راح يذوب، ورحت أترنح عبر السوق والدم يقطر مني.

يعد سوق «ألبرت كايب» أكبر الأسواق وأشهرها في أمستردام. يقع في منطقة «بيب»، وهي منطقة كانت تقطنها الطبقة الكادحة. وتأتي منصّات السوق، التي يقال إنها تنوف على الثلاثمائة منصة، تنُصب كل صباح ولا يتم إنزالها إلا في وقت متأخر عصرا. كانت مسألة شراء السمك، أو الفاكهة، أو الخضار مجرد غطاء مقنع للقوة المغناطيسية الغامضة التي كانت تجذبني إلى ذلك السوق الذي يلفه غبار اللقاح والعبق القوي للتوابل الآتية من وراء البحار، مدفوعة بالرياح والملح – الينسون، والقرنفل وجوزة الطيب. كان الهواء يتلألأ مع الحرير البديع، والمنسوجات السميكة، والمجوهرات الغريبة، والذهب، والخرز، والأصداف المفتوحة، واللون الفضي اللامع للسمك الطازج. كان للتفاح في سوقي لمعته الخاصة به، إذ توهجت كل حبة عنبة كمصباح، وكان الحليب دسما وناصع البياض، أشبه ما يكون ببشرة امرأة الرسام «فيرمير».

لكن أحيانا كانت المغناطيسية تفقد قوتها عندما تقبع سمكة ميتة بثقلها على المنصة، ويفقد التفاح، بالرغم من احتفاظه بحمرته، والخس، بالرغم من احتفاظه بخضرته، لمعانه. وهناك أيضا بائعو الملابس الرخيصة ومحيطهم الذي يعبق بروائح القماش الاصطناعي، أولئك الذين يبيعون أقمشة

ما أنزل الله بها من سلطان - أقمشة من الألياف الصناعية، ومساحات بلاستيكية من مختلف الأشكال والأحجام، وعقدا مصنوعة من النايلون بجميع الألوان، وأدوات خشبية بأصابع بلاستيكية لهرش الظهر، وأطعمة خفيفة ملفوفة في أكياس؛ وثمة بائعو الصابون، والشامبو، وكريمات الوجه، والحقائب اليدوية، والأزهار الاصطناعية، ووسائد الكتف، وقطع القماش، والإبر والخيوط، والمخدّات والبطانيات، والمطبوعات والإطارات، والمطارق والمسامير، والنقانق والجبن، والدجاج وطيور الدراج، والأوشحة البالية.

بينما كنت أتجول بين المنصّات وقلبي ممتلئ بالشظايا الغجرية، صادفت شيئا جذب نظري مباشرة - إنها حقيبة بلاستيكية بخطوط حمراء، وبيضاء، وزرقاء. لقد كانت «آنا» محقة، فقد اشتريتها بجيلدرين فقط. ثم إنني أشبه ما أكون بلعبة ميكانيكية معبأة، توجهت إلى الجزار الذي يدعى «زويد»، وجنوب، هي الشفرة لليوغسلاف المحليين الذين كانوا زبائنه الرئيسيين. كانت واجهة عرض اللحوم تزخر بمفاصل لحم الخنزير، وكانت الرفوف تضم مجموعة متواضعة من المقبلات التي تثير الحنين إلى يوغسلافيا: من بهارات مقدونية، ونقانق من مدينة سريم، وزيت زيتون، وبسكويت البلازما (الذي جعله اسمه المضحك سلعة رائجة حالما ظهر في الأسواق)، وقهوة ميناس (التي كان مصدرها تركيا طبعا)، وحلوى المدخنة الزنجية (التي راجت أيضا بسبب اسمها). اشتريت علبة من البهارات وبعض الحلوى. كان ذلك على سبيل المجاملة، رمزيا ليس إلا،

فقد كنت أكره تلك البهارات، وكان طعم الحلوى مُرّا.

فيما كنت أفكر بالألوف المؤلفة من المهجّرين الذين يتركون دولهم للمجيء إلى دول كهذه الدولة، والذين يشترون بهارات يكرهونها وحلوى يعرفون مرارتها، وحقائب لن يستخدموها قط، وأدوات مضحكة بأصابع بلاستيكية لهرش الظهر، وعقدا من النايلون؛ في تلك الأثناء تابعت رحلتي الآلية متجهة نحو الشارع الفرعي بجانب متنزه «آوستر» حيث يوجد مقهى بوسني يسمى «بيلا». وجدت في المكان مجموعة من الرجال بوجوه متجهمة وشفاه مشدودة يلعبون الورق. كانت نظراتهم إلي مطولة ولكنها خلت من العاطفة تماما، حتى إنه لم يفاجئهم أن تلج امرأة عالمهم الذكوري. اتخذت مجلسا في الزاوية، وطلبت «قهوتنا»، وجلست في المكان نادِمة، إذا جاز التعبير. وسرعان ما بدأت أشعر بالصفعة غير المرئية على وجهي، ولاحظت أنني احدودبت كالرجال الموجودين في المكان.

بعد أن أنهيت شرب القهوة، أخذت الآثار التي جمعتها في رحلة الحج - علبة البهارات المقدونية، وحلوى المدخنة الزنجية التي تقبع في الحقيبة البلاستيكية ذات الخطوط الحمراء، والبيضاء، والزرقاء - وبدأت رحلة العودة إلى المنزل. لقد تلاشت الشظايا الغجرية في قلبي أثناء الفترة الفاصلة، ولم أعد أنزف دما، ولكنني لم أستطع تحديد ما إذا كنت قد ودّعت شيئا لفوري، أم أنني امتلأت باستمارة تقديم غير مرئية. «بحق الله يا أختاه. أأنت مجنونة أو شيء؟».

الجزء الرابع

٢٦

أنا مثل شفرة تمشي على قدمين

ألا ترى حجمي

أنا خطير

عاملني بشكل جيد

إن أردت أن تعيش

من الأفضل لك أن تعاملني جيدا.

بيترتوش

عرفت أنه إيجور لحظة قرع جرس الباب. عرفت أنه سيأتي من أجل معرفة السبب. دخل، وتجول في الغرفة وكأن حجمها لا يتسع له وأنه لم يكن قرر بعد ما إن كان سيبقى أم لا، ولكن بعد ذلك وضع حقيبة الظهر على الأرضية، وقال: «إذن هذه شقتك».

«نعم، هذه شقتي».

قال بسخرية: «غرفة معيشـــة ونوم معا، ومطبخ بمستلزماته وحمام».، ثم قال مقتبسا إعلانا تجاريا من التلفزيون اليوغسلافي: «مساكن صغيرة، متران في ثلاثة أمتار».

«آمل أن يكون مسكنك أفضل من هذا».

«إذن، قمت ببناء عشك الصغير تحت الأرض».

«لنقل إنه الطابق الأرضي».

قـــال وهو يجول بنظـــره في الغرفة: «ليـــس لديك الكثير من الكتب، أليس كذلك. بالنظر إلي مهنتك، ليس إلا».

سألته متجاهلة تلك الملاحظة : «هل تود أن تشرب شيئا؟»
«بعض القهوة. لا أرى أنك اختزنت أي شيئ آخر هنا».
بينما كنت أصنع القهوة، فكرت فيما سأقوله له. وبالرغم من أن الأكــواب كانت نظيفة، إلا أنني غســلتها مرة أخرى. أمضيت وقتا طويلا في البحث عن علبة السكر. فعلت كل ما أستطيع في سبيل كسب الوقت.

هي من زغــرب،. تُعتبر، نتاجا حقيقيا لهــذه المدينة وامرأة شابة رائعة حقا. وبالرغم من أنها في عهد الغرارة والطيش، ألا أن لديها إرادة حديدية وثابتة وجسورة. لا أحتاج إلى القول إنها متمكنة من شؤون البيت بالمقاييس التقليدية، لكنها أيضا تعرف الفرنســية والإيطالية، وتســتطيع أن تغني وترســم، وتملك يدا بارعة في التطريز. وهي تعشق أن يقال لها إنها تقوم بواجباتها بتفان كبير، وإن هناك مســحة مثالية في طبيعتها، وهذا جعلها تعتبر الإصلاح وتشريف الأرواح المودعة لديها مهمة مقدسة.

كان هذا اقتباســا مــن «برانكا» للكاتب شــينوا، ذلك العمل الشهير في النثر الرومانسي، حيث تغادر معلمة في مقتبل العمر، مشــحونة بمثاليات الحركة الإحيائيــة الوطنية الكرواتية، تغادر زغرب متوجهة إلى قرية «يالشيفو» النائية لتعليم أطفال القرية. وبينما كنت أصب القهوة مديرة له ظهري، كنت أســتمع له يقرأ من النسخة التي كنت قد استعرتها من المكتبة. كنت أشعر بذقني ترتجــف، وخفت من أن انفجر في البكاء. كانت طريقة صبيانية لإثارتــي، ولكنني أحسســت بأن ذلك كان مجرد مقدمة لشــيء غريب كان قد أعد له.

قال وهــو ينزل الكتاب ويومــئ باتجاه النافــذة: «إذن، كنت تقضين كل هذا الوقت تتفرجين على أرجل المارة».

قلت بصوت هادئ قدر المستطاع: «يمكنك أن تتحمل شيئا إن عرفت أنه لفترة مؤقتة. يضاف إلى هذا أنني سأرحل في غضون بضعة أيام».

ســـأل، غير مكترث بالمكان الذي سأذهب إليه، أو أنه تظاهر بعدم الاكتراث: «ما الذي يجعلك متأكدة أن ذلك مؤقت؟»

قدمـــت له القهوة على صينية. كنـــت أعرف لماذا جاء وقررت الذهاب إلي الموضوع مباشرة بغض النظر عن النتائج.

«انظر يا إيجور. أنا آســفة جــدا ...»، وبدأت أضع الصينية على الطاولة.

«عظيم. أنتِ آسفة».

«اجلس» قلت، وقد جلســت أنا. بقي واقفا. أدار ظهره لي من جديد، وجعل يحملق عبر النافذة.

«أعلم أنك هنا بسبب الدرجة التي أعطيتها لك».

استدار وحملق فيّ بعينيه السوداوين المائلتين.

«وإن كان الأمر كذلك؟»

«لا أعرف» أجبته. شعرت بصوتي يتكسر وبذقني يرتجف من جديد.

اســتدار مرة أخرى وعبر الغرفة متجها إلى السلة التي كنت أضع فيها أشــياء مختلفة، بما فيهــا الهدايا التي قدمت لي في عيد ميلادي. بدأ إيجور يتفحص الهدايا.

قال وهو يخرج زوجا من القيود: «كانت الأمور جيدة جدا في

البداية، أليس كذلك؟»

قلت بحذر: «أجل ...».

«بالمناسبة يا رفيقة، هل سبق أن جربت هذا القيد؟».

«لماذا أجربه؟».

«أوه، من قبيل حب الاستطلاع. ألم تتساءلي حتى كيف يُفتح؟»

«كلا».

قــال: «وكنت أظــن أنه يفتــرض بالعلمــاء أن يتميزوا بحب الاستطلاع».

احمر وجهي خجلا بسبب التهكم في صوته، ومرة أخرى كنت على حافة البكاء.

تقدم إيجور نحــوي وأخذ كوب القهوة من يديّ، ووضعه على الصينية.

«ما قولك في أن نجربه؟» سألني، وقد أخذ يدي ووضع شفتيه على معصمي. كانت شفتاه باردتين وجافتين.

ثم رفع معصمي وبمهارة قيّده بذراع الكرسي.

قال بلطف: «في هذا الوضع، أنت الآن عبدة لي».

نطقــت بكلمات لم يكن لها وقع كلماتــي: «أي نوع من الهزل هذا؟».

سحب إيجور كرسيه إلى مكان قريب مني وأخذ يدي الأخرى. «كان ذلك ســريعا، أليس كذلك؟ أراهن أنك أعجبت بذلك. لقد تمرّنت عليه لساعات طويلة».

سحبت يدي منه. «كفى الآن. انزع القيد من فضلك. لن يكون هذا صعبا بعد كل ذلك التمرين الذي تمرنته». وكنت أفعل كل ما

أستطيع لرسم ابتسامة على شفتيّ.

أخذ يدي الأخرى من جديد، ووضعها على خده ومسّد عليها مرات عدة.

قال: «آه، يا بروفيسورة. إنك تملكين يدا من القرن التاسع عشر».

«أملك ماذا؟»

«يدك تشبه أوصاف الأيدي في روايات القرن التاسع عشر، يد بيضاء رقيقة».

وضع يدي على يده وقلبها كما يقلب القفاز.

«ما عليك إلا أن تقضمي أصابعك. مثل طفلة صغيرة». وبدون سابق إنذار دفن رأسه في حضني وقال: «ساعدي طالبا مسكينا، ألا يمكنك ذلك؟».

اعتدلت، وسحبت يدي منه، وجعلت أمسّد شعره. بقي في مكانه لبعض الوقت، ثم رفع رأسه وأخذ يدي ولحس راحتها قبل أن يضع معصمي بالقيد الثاني ويربطه بذراع الكرسي الآخر.

قال لي: «حسنا. الآن أنتِ ملكي، بكل ما تعني الكلمة من معنى».

قلت وقد احمررت خجلا من جديد: «لننهي هذه اللعبة الخرقاء، من فضلك؟»

قال ساخرا: «إذن، ما زلت تأملين أنها مزحة».

«توقف عن تصرفاتك الغريبة تلك يا إيجور. إن كنت تعتقد أنك عدت من أجل تقديمي للعدالة ...».

«العدالة! أنت واهمة، يا رفيقة. أنا لا أكترث بالعدالة إطلاقا».

«كان سبب إعطائي إياك درجة «راسب» هو أنك وشيت بي لسيز دراسيما».

«أنا؟!»

«بعد الفصل الأول وشى أحد الطلبة لسيز بأننا لم نفعل شيئا في حجرة الدراسة، وأن الأمر كان مضيعة للوقت، وأنني كنت أجبركم على الذهاب معي إلى المقاهي».

قال هازئا، بالإنجليزية التي هي لغة سخريته،: «لا تقولي ذلك!»

تولد لدي شعور بأنه لم يفاجأ البتة.

«لقد أخبرني سيز بكل شيء».

«واعتقدتِ أن ذلك الشخص هو أنا؟».

«إنه واحد منكم. أنت أو شخص آخر».

«ثم ماذا؟»

«ثم ماذا؟ لقد روّجتم الأكاذيب عني، ووشيتم بي، ولم تكن لديكم الجرأة أن تتحدثوا معي مباشرة. كلا، لقد هرولتم إلى سيز وأخبرتموه بذلك من وراء ظهري!».

«لذلك قررتِ أن تنتقمي منا».

«لم أكن أنتقم منكم. كنت أقوم بعملي»

«لكن ماذا لو لم يكن هناك أحد اشتكاك؟ ماذا لو كانت القصة برمتها من نسج خيال درايسما؟»

«ما الذي يجعله يفعل شيئا كهذا؟»

«من قبيل الهزل، ليس إلا. أو ليري قدرته على التلاعب بك وبنا جميعا بسهولة».

«لم يراودني ذلك الشك، إذ بدا صادقا فيما قاله. بدا وكأنه يمتلك تقارير عن كل المحاضرات».

«أتعرفين رأيي يا رفيقة؟ لا أعتقد أن سيز هو المشكلة، ولا أعتقد أن المشكلة هي نحن؛ إن المشكلة هي أنتِ بالذات. أنتِ من كان يبحث عن ذلك. حتى لو أننا كنا شكوناك إليه، كان بإمكانك تجاهل ذلك ونسيانه. أو كان بإمكانك معالجة ذلك. فنحن جميعا نواجه هذه المشكلة. كان بإمكانك أن تصفحي عنا. كان بإمكانك أن ترأفي بأغبياء مثلنا. كان بإمكانك أن تتحدثي معنا لحل المشكلة. كان لديك الكثير من الخيارات. أترين هذا؟ ولكن الحل الذي اخترته هو أن تشني حربا ضد الفصل بأكمله».

«ما الذي تتحدث عنه؟ أنا لا أفهم ما تقول».

«أخبريني، لماذا أعطيتني درجة راسب؟».

أجبته: «لا أعرف»، وكانت تلك أصدق إجابة يمكن أن آتي بها.

قال بهدوء وهو يلمس ركبتي: «أنت تعرفين السبب حق المعرفة، أيتها السافلة. أنت فقط محرجة من الاعتراف بذلك».

«كيف لك أن تخاطبني بمثل هذه اللغة! قم بفك هذه القيود، وإلا اتصلت بالشرطة».

«أنت مثيرة للشفقة يا رفيقة».

«مثيرة للشفقة؟»

«كيف تقترحين أن تضربي الرقم؟»

لم يكن لدي إجابة.

«ماذا تريد مني على أي حال؟»

«يبـــدو أنكِ تعلمت هذا التعبير من أحد الأفلام التجارية. ماذا أريد منك؟ لا أعرف ماذا أريد منكِ بنفس الطريقة التي لا تعرفين لماذا أعطيتني درجة «راسب». لنقل إنني أريدك أن تتشنجي بعض الشيء. أريد أن أسمع الطريقة التي تتحدثين بها عندما تضغطين على جرس الإنذار. أريد أن أعرف ماذا يجري حقا».

«ماذا يجري حقا؟»

«أوه، إنـــي أقرأك جيدا. أعرف كم أنت مرعوبة. ولكن هناك شـــيئا يمنعك من خلع قناع المعلم الذي ترتدينه. أشعر وكأني في دورة سخيفة تتعلق بالدفاع التافه عن حدود سيادة الذات».

«كفانـــي من هذا. ســـأبدأ بالصراخ». لم أصـــدق حماقة ما تلفظت به.

«اصرخي وسأصفعك صفعة ...».

رددت عليه: «لن تجرؤ على ذلك».

«أتراهنين؟»

وقبـــل أن أفتح فمي، صفعني على وجهي صفعة قوية. فقدت قدرتي على التنفس.

تمكنت من قول: «أنت مجنون!»

«وأنتِ»

قلت وأنا ألتقط أنفاسي: «كيف تجرؤ على هذا؟».

«إني شـــخص يمتلك الجـــرأة. يمكنك التخلـــص من تباهيك الفارغ».

«انظر يا إيجور. كل ما عليّ فعله هو الاتصال بالقسم وتغيير الدرجة».

«أنت تثيرين الشفقة مرة أخرى يا رفيقة. أنا طالب الامتياز، ولن تغيّر درجتك من الأمر شيئا».

لقد أفحمني. لم أجد طريقة للدفاع بها عن نفسي. ولم تكن لدي الإرادة كذلك. أخذت نفسا عميقا وقلت بحذر: «سامحني يا إيجور. سامحني. أرجوك».

قال بهدوء: «لا يبدو أنني سأنتزع ما أريد من صدرك».

«تنتزع من صدري ماذا؟»

«ما ينبغي قوله».

«لن تستطيع الآن ولا مستقبلا، لأني لا أملك ما تريد! فأنا أحاول ذلك منذ شهور».

كنت أرتجف من الغضب. مرة أخرى سمعت نفسي أتحدث مثل طالب أجنبي في دورة لتعلم اللغة الكرواتية. حاولت أن أخرج يدي من القيد، ولكنني كنت أئن من الألم.

تعامل إيجور مع احتجاجي وكأنه يشاهد عملا مسرحيا رديئا. ثم مدّ يده في جيبه وأخرج لفة من الشريط اللاصق.

«أين تحتفظين بمقصك؟»

قلت من خلال دموعي: «على الرف».

قطع «إيجور» قطعة من الشريط ووضعها على فمي بمهارة محترف.

«ها أنتِ هنا! لقد حصلت على ما تسعين إليه: فيلم الأسبوع. أنت فخورة بنفسك، أليس كذلك. لديك رأي عالٍ في نفسك؛ فأنت تعرفين أنك في مأزق حقيقي، ولكنك متأكدة من أن لديك سبل النجاة. أنت متأكدة من أن لديك مرتبة عالية وممتلكات

ورجل (بالرغم من أنه رحل إلى اليابان) وشقة (بالرغم من أنها مأهولة بالغرباء) ومكتبة (رغم أن الكتب لم تعد ملكا لك)، وشهادة دكتوراه (بكل ما تقدمه لك من ميزات). وفي زاوية دفينة في عقلك، أنت متيقنة من أن الحياة ستعود كما كانت من قبل، وأن الحياة التي تعيشينها الآن ما هي إلا نزهة قصيرة تقومين بها. كل ما عليك فعله هو أن تطقطقي أصابعك وتصيحين بأعلى صوتك بأن الأمور عادت إلى طبيعتها. ألست على حق؟ وبالرغم من أنك أمضيت شهورا وأنت تعدين أرجل المارة عبر النافذة، وبالرغم من أنك شاهدت الأفلام التجارية بوفرة، إلا أنك لم تتخيلي نفسك في سيناريو آخر: كأن تقفي في واجهة عرض زجاجية في المنطقة الحمراء تحاولين إغراء المارة إلى مضجعك الحقير، أو ملاطفة الرجال المسنين السذج مثل ميليها، أو القيام بتنظيف الحمامات مثل سليم.

هل فكرت يوما أن طلبتك قد يكونون أفضل منك؟ أناس أفضل؟ هل حدث ذلك؟ أنت لست شخصا غير حساس يا رفيقة. ربما يكون راودك شيء من هذا القبيل. ولكن هل راودتك إمكانية أن يكون طلبتك يعرفون أكثر منك؟ إلا أنهم تعودوا على الذل، وألا يتباهوا بمعرفتهم. لقد علّمتهم التجربة أن الأمور نسبية. والأمور نسبية حقا. حتى البارحة كانت المسافات تقاس بالسنتيمترات، إذ كان يمكن أن تصيبك قنبلة ما. من المؤكد أنك تتعاطفين مع أولئك الذين عانوا، من أصابتهم تلك القنابل. ولكنك لن تعترفي بذلك لنفسك أبدا - ففي الأماكن الدفينة من عقلك أنت تظنين أن القنبلة تختار هدفها. وإن كان الأمر كذلك،

فلا بد من وجود سبب لذلك. هناك ما يمنعك من الخروج باستنتاجات وجيهة، من فهم أن كونك معلمتنا هو محض صدفة لا غير. كان من الممكن ببساطة أن يكون الأمر عكسيا تماما، أن تكوني أنتِ جالسة معنا، وكان من الممكن على سبيل المثال، أن تكون ميليها هي المعلمة. لقد دمّرتنا تلك القنبلة وحولتنا إلى أشباه بشر، ولكن يبدو أنك تظنين أنك أحسن حالا منا، ورفعت شعور الاستعلاء جاعلة منه قانونا من قوانين الطبيعة.

أخبريني، هل خطر ببالك أنه ربما كنت تعذبيننا طوال ذلك الوقت؟ هل خطر ببالك أن الطلبة الذين كنت تجبرينهم على الاستذكار كانوا يتوقون للنسيان؟ إنهم كانوا يخترعون الذكريات لتسليتك بنفس الطريقة التي كانت قبائل «بابوا» غينيا الجديدة تخترع أساطير آكلي لحوم البشر لتسلية علماء الأنثروبولوجيا؟ طلبتك ليسوا مثلك، فهم يحبون هذا البلد. وبالرغم من أراضيها المنبسطة وأمطارها المستمرة وصعوبة وصفها، إلا أن لهولندا ميزة فريدة - إنها بلد النسيان، والبلد الذي يخلو من الألم. يتحول الناس إلى برمائيين هنا، طوعا دون إكراه. يحوّلون لون الرمال، ويمتزجون فيها قبل أن يتواروا، أشبه ما يكون بالأحياء البرمائية. هذا كل ما ينشدونه - التواري. السهل الهولندي عبارة عن نشافة ضخمة تمتص كل شيء - الذكريات والألم وكل ذلك الهراء...».

توقف إيجور عن الحديث. بدا مرهقا. أخذ كتاب «شينوا» مرة أخرى عن الرف وجعل يتصفحه وهو شارد الذهن.

شعرت بالدموع تسيل على خديّ. لم أستطع أن أحدد سبب

تلــك الدموع. الإذلال؟ رثاء الذات؟ الطبيعة المأســاوية للموقف الذي وجدت نفســي فيــه؟ أو طبيعته الهزلية؟ يــا إلهي! جعلت أفكر. أشــعر بأنني أقرب من هذا الرجل في هذه اللحظة أكثر من شعوري بالقرب من أي رجل آخر في حياتي في الماضي، ولا أجد ســبيلا لأبوح له بذلك. ولم أكن أشــير إلى أن شفتيّ كانتا مغلقتــين بالشــريط، ؛ ولكنهما كانتا مغلقتــين تماما دون وجود الشريط.

لا بــد أن إيجــور قد قــرأ مــا دار بذهني. عندما اســتدار ليواجهنــي، قرأ بصوت عال النص التالــي: «بدأ مقياس ضغط قلبك بالهبوط، وبدأت عيناك تغرورقان بالدموع».

كنت في الجهــة الأخرى. كان يفصلنا جــدار غير مرئي من الجليد. هل من الممكــن أن يقول إنه كانت لدي رغبة واحدة في تلك اللحظة، وهي أن أضرب رأسي فى عرض الجدار؟ احتجت إلى المســاعدة. عانى قلبي من خطأ ما، ولكنني لم أســتطع أن أحــدد مدى خطورته. لقد كنت بحاجة ماســة إلــى ملجأ، إلى حضن ألف نفســي فيه، إلى مكان انتظر فيه للتخلص من الألم، مكان آتي إليه، أعود فيه إلى نفسي.

«أرجــوك أن تخبريني يا دكتورة»، قالها ملقيا الكتاب بشــكل درامي على الأرضية، «ماذا أنا فاعل بك؟ إن أدبا هامشيا كأدبنا لا يســتحق الجدل حولــه. كلا، كلا، لا تقلقي. إنني آســف من أجلك، فأنت مدرســة لآداب هامشية، آداب صغيرة، والأسوأ أن هــذه الآداب تقلصت في الآونة الأخيرة. ولكنك ما زلت تجرينها مــن خلفك حيثما ذهبت. الوقت يمر وقــد أصبح متعذرا تغيير

حقل التخصص، إذ لا يمكنك التخلي عن تلك الآداب هكذا، أليس كذلك؟ إذن، ماذا أنت فاعلة؟ أن تنقذي ما يمكن إنقاذه. لقد ذهب كل شيء إلى الجحيم - الفتيان والفتيات، ولكن لنجمع القطع من بين الحطام كعلماء الآثار».

هل فكرت فيما ذهب إلى الجحيم؟ أكوام من الكتب باللغتين الكرواتية والصربية، وباللغتين السلوفينية والمقدونية، وبلغات لا يحتاجها أحد. وعن ماذا؟ تعليم «الناس»، «الأهل» القراءة. الأدب الحقيقي لا يُعلم الناس القراءة؛ إنه يفترض أنهم يستطيعون القراءة. في السنة التي نشرت فيها رواية «مدام بوفاري»، كانت زغرب قرية عدد سكانها ١٦٦٧٥، ستة عشر ألفا وستمائة وخمسة وسبعين شخصا! عندما استل مثقفونا المحليون أقلامهم للكتابة، كان جميع العمالقة الأوربيين أمثال «جويث» و«ستندال» و«بلزاك» و«جوجول» و«ديكنز» و«دوستوفيسكي» و«فلوبيرت»، و«موبسان» - يملأون الحياة الأدبية. في السنة التي ظهرت فيها رواية «الجريمة والعقاب»، كان ثمانون بالمائة من الكرواتيين أميين.

لذا، كوني واقعية يا رفيقة. انظري من حولك. لقد غدا فصلك خاويا، فقد تخلى عنك طلبتك. خرجوا ليروا العالم الفسيح، فهم يملكون منظومات قيمية خاصة بهم، ويقرأون لغات مختلفة (إن كانوا يقرأون فليكن ذلك، هذا إن كانت القراءة ما زالت تعني لهم شيئا)، بينما أنتِ ما زلت تعيشين في العصر الذي لم يعرف «مهمة أنبل من نشر النور والثقافة والمعرفة بين الناس». إن القلب الذي ينبض في صدرك هو ذلك القلب الذي كان ينبض

في صدر معلمة القرية «برانكا» في رواية «شينوا» قبل مائة عام. مـــاذا تعرفين غير ذلـــك؟ أنتِ لم تتعلمي حتـــى اللغة الهولندية! وهذا وضعك خلف طلبتك بخطوة عملاقة.

ولعبـــة الذاكرة تلك التي فرضتها علينا! خلال بضع ســـنوات ســـيتحول ذلك الهراء من الحنين إلى سيل من الأموال المتدفقة. كان السلوفينيون أول المســـتفيدين من ذلك، فقد طرحوا قرصا مضغوطا في الأســـواق يضم خطابات «تيتـــو». وهنا تذكري ما أقول. ســـتختفي فكرة الحنين إلى يوغسلافيا من أسماعنا. وإن أردت أن تعرفـــي أكثر ما أتذكره عن الوطن البائد، ما أتذكره هو أن أولئك الســـفلة المحليين أرادوا تجنيدي وإرسالي إلى الجبهة! مـــن أجل الحفاظ على إنجـــازات بلدهم. بلدهم؟ كل المكان ملك لي. أنت تعرفين الأغنية: «من فاردار في الجنوب إلى تريجلاف في الشمال ...».

كان «إيجور» في حالة انهيار - مناقضا لنفسه، ويلهث ليلتقط أنفاســـه، ولكن تلـــك كانت حالتي أيضا، ولم أر ســـبيلا لتجميع نفسي من جديد.

«لم أجد أحدا يقف بجانبي. لا أحد إطلاقا. لو لم أنج بجلدي لكنت جثمانا اليوم. لم تقفي معي أنتِ أيضا. لكننا لم نكن بحاجة إلـــى درجاتك، ولا إلى أدبك التافـــه أيضا. ما كنا نحتاج إليه هو إنســـان عاقل لمعالجة الأمور. في البداية بدا وكأنك في الطريق الصحيح، إذ كنت متلعثمة وقلقة. ولكن ســـرعان ما استسلمت. لقد توقفت في منتصف الطريق. كان موضوعك يدور حول ثقافة فقـــدت جوهرها بالكامـــل، وقد غاب عنك ذكـــر تلك الحقيقة.

ثم إنك لم تتحدثي إلا عن الماضي، فعندما ناقشتِ الكاتب «أندريتش»، لم تذكري أن مجموعة قصابي الثقافة الحاليين قد جزأوه إلى ثلاثة في الوقت الحاضر: أندريتش الكرواتي، وأندريتش البوسني، وأندريتش الصربي. وعندما ناقشتِ تاريخ الأدب، نسيت أن تذكري أن مكتبة جامعة سراييفو قد قصفت ومحيت من الوجود، وأن كتبها الآن تستخدم حتى في المواقد وتلقى في المزابل. في هذه الأمكنة تجدين التاريخ الأدبي الحقيقي للأمة اليوغسلافية. لقد حرقت الممتلكات عمدا. لم تتحدثي عن إحصاءات وأماكن الدمار. كلا، لقد التزمتِ بمنهاجك. لم تقفي بجانب ما كنت تعتقدين به، ولا حتى هنا حيث تتمتعين بقول كل ما تريدين. لقد أسأت إلى نفسك حقا.

في البداية، كما قلت سابقا، بدا وكأنك استوعبت الأمر. قلتِ إننا جميعا مرضى، وإنك أنت مريضة أيضا. ولكن سرعان ما أصابك الرعب، وقررت النجاة بجلدك. ويشبه هذا اعتقادك بأن الشيء الوحيد الذي له أهمية هو حقلك، لأن راتبك يأتي من التدريس في ذلك الحقل. لكن يا له من حقل بائس ومليء بالهراء. ومع ذلك اعتقدتِ إن كنت فتاة طيبة، فسيعطونك الوظيفة وتستقيم أمورك. لقد كنت مخطئة حقا. أنتِ لم تعولي على دراسيما، شخصوية أخرى مثيرة للشفقة. ولكن عنده ميزة تفتقرين إليها، وهي أنه هولندي. إنه زائد عن الحاجة مثلك، وهو يعرف ذلك، ولكنه، على عكسك، يمتلك السلطة. لذا، أعطى الوظيفة لأناس تحت إمرته (زوجته)، أو لشخص يتفوق هو عليه (لاكي).

إني أشــفق عليك يا رفيقة. تمســكي بأول هولندي تقابلينه. لأن هذا البلد طيب، ولن يخذلك. وشــيء آخــر أريد أن أقوله. أنــت امرأة محظوظة، محظوظة لأنني أقول لك كل هذا. فهناك شيء من ثلاثة يحدث عندما تمرين بما مررنا به جميعا: إما أن تصبحي شــخصا أفضل، وإما أن تصبحي شخصا أسوأ، وإما، كما فعل يوروش، تطلقين رصاصة على رأسك».

توقف إيجور عن الحديث فجأة، وســاد الغرفة صمت يشــبه البلسم الشافي. لم تزل عيناه تحملقان فيّ.

«حســنا، لقد نزلت علــيّ اللعنة! وأنت تســتمتعين بكل هذا! إنك امرأة متوحشــة وجميلة، حقا إنك كذلك». مر بأصبعه على ملامحي، وكأنه يكتب رســالة: «أيا معلمتي الكرواتية الحلوة، أيا معلمتي الصربية الحلوة، أيا معلمتي البوسنية الحلوة ...».

حبست أنفاسي.

«مــا أنا فاعل بك يــا رفيقة؟ أخبريني. لقد انســحبتِ. أنت تختبئين. أنت ســلحفاة تحت صدفتك. لا أحد يستطيع الوصول إليك. أنت تستطلعين من خلال برقع غير مرئي».

توقف من جديــد. وضع يده في جيبه وأخرج شــفرة حادة. تجمــدت. انحنى فوقي، وأخذ يدي اليمنــى، وضغط كفها على ذراع الكرســي وقــام بجرح معصمي بهدوء وحــذر. كان الجرح قصيرا وضحلا. جرحني مرة ثانية، وثالثة بالطريقة نفسها.

لم أشعر بأي ألم، لكن الدموع انهمرت من على خديّ. من بين دموعي استطعت أن أرى تدفقا رقيقا للدم على طول يدي. بدت الجروح المغطاة بالدم في معصمي كسوار طبيعي.

«شيء تتذكرينني به. ساعتك في المعصم الأيسر وفي المعصم الأيمــن - إيجور، طالــب المعلمة المدلل ... حســنا، ســأرحل. وبالمناسبة، رقم الشرطة هو واحد واحد اثنان».

رفــع حقيبة الظهر عــن الأرضية واتجه نحــو الباب. ولكنه عندئذ استدار نحوي، وبحركة سريعة بيده نزع الشريط من على فمي. صرخت.

«اهدئي!» قال بحنو، واضعا يده على شــفتيّ. ثم سحب يده، وانحنى من فوقي، وقبّلني قبلة رقيقة طفولية، وقد جمعت شفتاه الدموع في طريقها. «الآن لديك فرصة أخرى لتبوحي بسرّك يا دكتورة».

ربطت لساني عن الكلام معاندة.

قال بصوت هادئ يشبه الهمس، وهو يحملق في عينيّ «ماذا لو كنت ذلك الشخص الذي وشى بك لدرايسما؟ قد أكون أنا من فعل ذلك. لقد كرهت ثقتك الزائدة بنفســك، وشــعورك بالنقمة، وشــكوكك المصطنعة، وغياب الصدق في مشاركتك لنا في حياتنا. نعم، كان يمكن بكل بســاطة أن أكون أنا. فقد تحولت أنا أيضا إلى بطل فيلم «الناهى»، إلى «شــوارزنيجر». جمعينــا شــوازنيجر الذي يثرثــر - المجرمــون، والمحتالون، والأبرياء والضحايا، والناجون، واللاجئون، والأهل في الوطن، والأهــل هنا- لقد تغيرنا جميعا. والحرب هي المســؤولة عن ذلك، إنهــا الحرب. لا أحد يخرج من الحرب دون خســائر. لا أحد ســليم العقل. لكنك تبدين في غاية الإشراق والتألق، مثــل كوب من البورســلين. بالطــبع، كنت أريد أن أكسّــرك،

وأهشّمك، وأنتزع شيئا من داخلك، شيئا من الحنو، ومضة عطف، أي شيء...».

حملق إيجور في بعينيه السوداوين المائلتين وكأنه يقيس روحي. أمسكت لساني عن الكلام.

بعد أن رحل وأغلق الباب من خلفه، ساد الغرفة صمت جديد مطبق. بقيت جالسة هناك لفترة من الوقت دون حراك مصغية؛ ثم فجأة تشنجت وبصقت رصاصة غير مرئية، تلك الرصاصة التي كنت أطبق عليها بين أسناني منذ البداية. خرجت من حنجرتي صرخة مدوية، الصرخة التي لا بد أن إيجور كان يحاول انتزاعها مني طوال الوقت. ولكن عندئذ كان إيجور قد ابتعد لدرجة لا يمكنه سماعها.

٢٧

بعد مغادرة «إيجور» ومضت في ذهني صورة لأول سنة لي في المدرسة. لم تكن الطريقة التي كانت المعلمة تعاقب فيها التلاميذ بإيقافهم في الركن، وإنما بإيقافهم خلف السبورة، والسبورة في ذلك الوقت كانت توضع على حامل خشبي. وبالتالي كانت عبارة - خلف السبورة - رمزا للعار والإذلال.

في تلك الصورة وقفت تلميذة خلف السـبورة كعقاب لها من المعلمة. كل ما استطعنا رؤيته من جسمها هو رجلاها في جوربين أبيضين يمتدان حتى الركبتين وقدمان في حذاء من الجلد الأسود. وكنا سننسـاها بالكامل لولا أننا سمعنا فجأة صوتا ضعيفا بدأ يعلو تدريجيا عندما توقفنا عن الكلام وحبسـنا أنفاسنا. عندها بـدا جدول رقيق من البول يقطر على الأرضية. جلسـنا وجعلنا نحملق بالسـيل الذهبي الذي يتزايد من بين رجليها، وقد شـق طريقة من على الأرضية نحو مقاعدنا.

بحجم مكبّر وبحركة بطيئة عرض المشـهد نفسـه الآن أمام عينـيّ. لم يزل جسـم التلميذة متواريا خلف السـبورة، فكل ما اسـتطعت رؤيته هو جدول البول يتدفق في تشـكيلة واسعة من القطـرات اللامعة. ثـم أدركت أنني أبول. كنت أحس بالسـائل الدافئ يقطر من على رجليّ. بقيت جالسة لفترة من الوقت، وأنا في حالة فقدان للوعي، أصغي إلى دقات قلبي. حبست أنفاسي، ورحت أتابع إيقاعه.

ثـم جاءت صور أخرى، بطيئة متثاقلة من أماكن بعيدة. بعيدة

جدا. كان أول ما طفا على السطح مشهد مألوف، وهو صورة بالأبيض والأسود من ألبوم أمي. لا بد أنني كنت في الرابعة أو الخامسة عندما التقطت تلك الصورة. أقف في قطعة أرض جرداء، ناظرة مباشرة إلى الكاميرا. إنه وقت الشتاء، ولكن ليس ثمة ثلج. كنت أرتدي معطفا رسميا بصدرية مزدوجة مصنوعة من الصوف الخشن، وبياقة وأطراف مزينة بالمخمل. إحدى اليدين في جيب (كان طرف المعطف مرتفعا بعض الشيء)، والأخرى على الجنب. يرتسم أثر لابتسامة على وجهي. لا يوجد شيء أمامي أو إلى جانبيّ. أنا الشيء الوحيد في الصورة. جسم بشري صغير قذف بيَ إلى بقعة خالية في مكان ما. وبالرغم من ألفة تلك الصورة، صعقت لأول مرة كم كان واضحا وبشكل مطلق أنني وحيدة.

أخرجتني قشعريرة مفاجئة من غيبوبتي، واندفعت في طريقي نحو الهاتف. لكن ما إن وصلت هناك حتى انهرت مرة أخرى، وتجمدت لبرهة. ثم تمكنت بطريقة ما من رفع سماعة الهاتف وضغطت الأرقام ١١٢، وأعطيت عنواني عبر السماعة. عندما ظهر شرطي عند الباب فيما بعد، ورآني مقيدة اليدين مع الكرسي، ورأى خطوط الدم المتخثرة على معصمي الأيمن، واشتم رائحة البول، قرأت شيئا استطعت أن أحدده في نظرته. شيء جاء متزامنا مع شيء آخر في تلك اللحظة، وأخيرا اكتشفت الصلة: لقد كان الشرطي يراقبني بنفس النظرة التي كنت أراقب بها الفتاة في البقعة الجرداء.

لقد كان إيجور محقا. لن أنساه. وهو لن ينساني؛ أنا متيقنة

من ذلك. لأنه كان بإمكاني أن أمتنع عن ذكر اسـمه للشـرطي، لكنني لم أفعل. والأكثر من ذلك، أنني اتهمته بالاغتصاب، والاقتحام، والتهجم، وعن الاغتصاب، سـينال كما أعتقد، عدة سنوات في السجن، وسيحتفظ بسجل إجرامي سيلاحقه مدى الحياة. لو لم أفعل ذلك، لم يكن له أن يتذكرني. فعلتها من أجل ذلك. كنت قد نثرت بذوري. كنت معلمة، ألم أكن كذلك؟

ليس ثمة شـيء اسمه الرحمة، ليس ثمة شيء اسمه الشفقة؛ هناك فقط فقدان السـيطرة؛ هناك فقط الذكريات التي لا نهاية لها للإهانة والألم. ذلك هو الدرس الذي جلبناه معنا من البلد الذي جئنا منه، وهو درس لن ننساه. الصراخ والصياح بمثابة جرس بافلوف بالنسـبة لنا؛ فنحن صُم عن كل شيء آخر. الإمساك برائحة الرعب هو لعب أطفال بالنسـبة لنا؛ لا شيء يدغدغ أنوفنا أكثر منه.

السوار الطبيعي من الجروح الصغيرة الثلاثة في معصمي الأيمن، ورائحة البول، كانا القيود غير المرئية التي تربطنا، أنا وتلميذي. رأيت ذاتي المستقبلية تقوم علي بإيماءة مكتسبة حديثا، نوع من التقلص اللاإرادي الذي لن أتخلص منه لوقت طويل. تكونت من طبع الفم على المعصم، وضغط الشـفتين ببطء على الخطوط الرقيقة الثلاثة وتقبيلها، ذلك هو ختم إيجور، علامة إيجور - ثم المرور عليها برأس اللسان للتأكد من أنها ما زالت هناك، وأخيرا تحريك المعصم ببطء ورفعه عاليا نحو الضوء، حتي أن الخطوط الآن رطبة من الرضاب وتشبه عرق اللؤلؤ.

الجزء الخامس

٢٨

همتي دمتي قعد على الجدار
همتي دمتي سقط سقطة مهولة
كل خيول الملك وفرسانه
لم تستطع جمع أشلاء همتي دمتي معا.

لقد داهمتني الكوابيس في بداية الحرب، ثم عادت مرة أخرى عندما غادرت أنا وجوران زغرب. اتسمت بالبنية نفسها، وكانت تدور حول أحد المنازل. كان لذلك المنزل جانبان: واجهة أمامية وجانب آخر. كنت أعرف الواجهة الأمامية، لكني لم أعرف الجانب الآخر إلا في أحلامي. قفزت الواجهة الجانبية في وجهي مثل لعبة مشدودة بزنبرك في صندوق عند فتحه. في الحلم كنت أصادف بابا ودرجا وممرا يؤدي إلى جزء مواز من المنزل الذي لم أشك في وجوده قط، أو بطريقة أخرى كنت سأكتشف أن المنزل كان عائما إلى حد ما، مثل القلاع الموجودة في الهواء وفق الأمثال السائرة. كنت أزحزح بعيدا رفا عن الجدار لأجد حفرة تهب من خلالها رياح قوية، أو لا أجد جدارا البتة، ثم كنت أنظر إلى الخارج فأرى المنزل متدليا بسلك نحيل، بال.

كانت المساحات الموازية في أحلامي تدل على تحذيرات وحشية، وتشوهات ملامح الوجه، والمكر. كانت الأحلام تأتي مثل هبات مفاجئة من الريح، يعقبها فترات من الهدوء، ومن ثم

تهب من جديد بقوة متزايدة. ولكنها في النهاية تضعف وتتوقف تماما.

مع مرور الأيام، كانت تلك الأحلام تلف كشلة خيط واحدة، وكنت أضعها جانبا. كلها فيما عدا حلم واحد، الذي جعلت شغلي الشاغل أن أتذكره. ذلك المنزل في الحلم كان أشبه بالتيه. كان ذا مستويات عدة ومصنوعا من عدد من المواد المتنافرة. كان السقف عاليا جدا وبدا أكثر ملاءمة لكنيسة. فجأة لاحظت أن السقف كان ينتفخ مكونا شكلا لشيء يشبه الأنبوب، وقبل أن أميزه، انفجر السقف ولم ينزل عبر الأنبوب سوى جدول من الكتب. بدأ القطر بحجم حبة قمح لكنه انتهى بحجم كتلة جليدية، والصفحات تتساقط عبر هواء يعج بغبار الكتب. لم يكن جوران موجودا، لكنني كنت أرى أمي واقفة في الجهة الأخرى من الغرفة، وهي تحملق في السقف مندهشة. جريت إليها وأخذتها من يدها، وجرينا إلى الشارع قبيل انهيار السقف، وكأن المنزل كان من الكرتون.

صرخت أمي: «المفتاح! هل لديك المفتاح؟».

«كلا»، رددت شاعرة بالذنب، علما بأنني كنت مدركة تماما سخافة ذلك القلق: فما الفائدة من وجود مفتاح من دون وجود المنزل؟

قالت يائسة: «إذن، لا يوجد معنا الآن حتى مفتاح».

تكونت شقة جيرت، وآنا من غرفة للمعيشة، وغرفة للنوم، ومطبخ صغير جدا بشرفة، وممر ضيق وحمام صغير. كان يوجد جهاز تلفاز، ومجموعة من أفلام الفيديو على منضدة منخفضة

في غرفة المعيشــة، ونبتة من شــجر المطاط نصف ميتة بجانب جهاز التلفاز. وكان هناك رف يتكئ على أحد الجدران به بضعة كتــب، وأريكة قديمة عليها غطاء متســخ باهــت تقابل الجدار الآخر. زين الجدار فوق الأريكة بملصق متآكل للمصور دوســان بيتريتشــيك وخارطة لبلغــراد حين كانت يوغســلافية ذروتها. وجدت قائمة إرشــادات لآنا على المنضدة التي تعلوها أشــرطة الفيديو: في القائمة أرقام تلفونات شركتي الهاتف والغاز، وموقع محبس الصنبور، وما إلى ذلك. كان الســجاد في غرفة المعيشة ملطخا بالبقع الترابية ومنفوش الخيوط، وورق الجدران أسمال بالية، والنوافذ من دون ســتائر وغائمة. كانت الســتائر المعدنية مكسوة بطبقة سميكة من الغبار.

من دون إعطاء المسألة تفكيرا كثيرا، خرجت واشتريت أنواعا مختلفة من المنظفات، وفرشــات الحك، والإسفنج. بدأت بغرفة النوم حيث كل الأشــياء التي يمكــن أن تقلب فيها قلبتها. نظفت النوافذ والباب. مســحت خزانة الملابــس بالكحول للتخلص من الرائحة النتنة. ومسحت الستائر المعدنية بالكحول أيضا. نظفت كل شيء بالمكنسة الكهربائية بما فيها الجدران. ثم علقت ملابسي في الخزانة، ورتبت الأسرة مستخدمة الشراشف الجديدة التي اشتريتها. أصبحت غرفة النوم قابلة للاستخدام. وهكذا انتهيت من إحدى الغرف.

بعد ذلك جمعــت القمامة. وتخلصت من كومة من الصحف، والطعام الذي ترك في الشــقة، وبعض الأطباق المكسورة. نزعت الملصق عن حائط غرفة المعيشــة وأفرغت الحمام من كل شيء

يمكن تحريكه. وضعت هذه الأشياء جميعا في أكياس بلاستيكية سوداء وتركتها بجانب الباب الأمامي. سأجرها إلى الأسفل في الصباح. ثم ألقيت نظرة شاملة على الحمام، وملأت خزانة الأدوية بمساحيقي الخاصة، وزينت المغسلة بإناء للصابون من البورسلين كنت قد اشتريته من قبل. بعد أن أصبح الحمام مقبولا إلى حد ما، أخذت دشا، واستلقيت على السرير في غاية التعب، ونمت طوال تلك الليلة.

في اليوم التالي انتقلت إلى تنظيف المطبخ. أمضيت الكثير من الوقت، وبذلت الكثير من الجهد في إزالة البقع عن الخزائن، والثلاجة، والفرن، والبلاط، والنوافذ، والباب. وعلى الرغم من الألم في معصمي، انتقلت إلى غرفة المعيشة حيث نظفت الجدران، والسجادة، والأريكة بالمكنسة الكهربائية، وعملت كل ما أستطيع للتخلص من الرائحة الكريهة المنبعثة من السجادة، والأريكة قبل أن أنقض عليهما بالفرشاة السلكية ووسائل التنظيف. وبما أن ورق الجدران متسخ جدا، خرجت واشتريت بعض فرش الصبغ، وعلبة من الدهان وسلما. أمضيت اليومين التاليين وأنا أغطي ورق الجدران، الذي كان لحسن الحظ من النوع الذي يمكن الدهان فوقه، بطبقة رقيقة من الطلاء الأبيض. بدا المكان بشكل أفضل الآن، ولكن الجدران التي دهنت للتو لم تظهر سوى شكل الأعمال الخشبية الرمادية. لذا، قمت بصنفرتها ثم طلائها بالطلاء النفطي الأبيض. قد استغرق ذلك يومين أو ثلاثة أيام أخرى.

ثم بدأت عندي حمى التسوق. وجدت شرشفا أنيقا بلونه

الأبيض المائل للزرقة، وبعد أن نشرته على الأريكة، ووضعت مصباحا كنت قد اشتريته من قبل على المنضدة، وملأت المزهرية بالورود اليانعة، وعلقت ملصقا بإطار قوي للمصور لويس هاين بالأبيض والأسود لمجموعة من العمال وهم يدخنون من فوق عارضة في مبنى «إمبايرستيت» في الولايات المتحدة الأمريكية، أصبحت غرفة المعيشة في وضع يمكن من استخدامها. صحيح أن المكان لم يزل «شقة طلابية» إلى حد كبير، بيد أن ذلك لم يزعجني البتة.

زودت خزائن المطبخ بما تحتاج إليه من الأشياء الضرورية، واشتريت إبريقا للشاي وكوبا صينيا أنيقا. لم أغفل عن نبتة المطاط، فأخذتها إلى الشرفة، وأعدت زراعتها في إناء أوسع، وأضفت السماد للتربة، وقلمت الفروع الميتة، وأزلت الغبار عن الأوراق، ثم أعدتها إلى غرفة المعيشة. تفحصت مجموعة أشرطة الفيديو التي تركها جيرت وآنا، وأزلت الغبار عنها، ثم رتبتها بشكل أنيق على الرف. ومسحت أغلفة الكتب الموجودة بالكحول، ووضعتها على الرفوف من جديد بجانب الكتب التي كنت قد اشتريتها.

بينما كنت ألقي نظرة شاملة على الشقة لأرى إن كان هناك أي شيء يحتاج إلى تصليح، لاحظت أن ورق الجدران الواقع مباشرة فوق الباب الذي يؤدي إلى غرفة المعيشة قد انتفخ بعض الشيء. أحضرت السلم من المستودع حيث عدادي الغاز والكهرباء، وصعدت عليه لفحص المكان المنتفخ بإصبعي. انفجر الانتفاخ وكأنه بالون، ناشرا قطع الورق على الأرضية وكاشفا

جدارا أسمنتيا مغطى بالكرتون وصور المجلات، وقد أصبح مصفرا بالكامل. عندما نزعت قطعة لألقي نظرة أفضل، ظهرت عدة طبقات من الدهان، وسقطت بقوة على الأرض. وقفت مواجهة مجموعة من صور إباحية مثلية قد يكون رسمها على الأرجح المستأجر الذي سكن الشقة قبل جيرت وآنا.

نزلت عن السلم وجلست على الأريكة، غير قادرة على الحركة، مصغية للصمت. فجأة سمعت صوت فرقعة ونظرت إلى أعلى، حابسة أنفاسي، فرأيت ورق الجدران ينفتح على طول الجدران صانعا سلسلة التموجات، وفي آخر الأمر تنضم في طرق. راقبتها تتشقق، وتتقشر، وتتمايل، وتتلوى، مثل الزنبركات حتى انفصلت وسقطت محدثة صوتا مكتوما هشا، وجافا. كنت محاطة بجدار من الغبار أقامته ريح غير مرئية. ألقيت نظرة على الباب الأمامي، لكن، كلا، كان المفتاح يقبع في القفل. في أثناء ذلك، ساد الصمت من جديد. نظرت إلى يدي. لقد احمرتا وانتفختا، فالمنظفات فعلت فعلها: فكانت يداي عبارة عن جرح كبير، وقد تقشر الجلد في رقائق دقيقة، كاشفا عن الخطوط الثلاثة بلون الدم.

ظهر لي أنني لم أنظر إلى الخارج عبر النافذة حتى ولو مرة واحدة في الأيام القليلة الماضية. لم أعرف كيف كان الجو، أو كم كانت الساعة. كنت قد فقدت كل الاتجاهات. كنت أجلس هناك هكذا، حاملة تأشيرة غير مرئية لحياة متواضعة، وأنا أتقشر في الداخل.

أدركت أنه كان علي أن أستجمع قواي وأفعل شيئا، أي شيء. كان علي أن أجابه اليأس الذي تمكن مني مؤقتا. وقفت، وأخذت

أول شريط فيديو صادفته، وأدخلته في جهاز الفيديو. ثم عدت إلى الأريكة، ونفضت الشرشـف للتخلص مـن قطع الورق التي سقطت عليه، ثم تمددت على الأريكة.

فـي وقت ما أثناء الليل، أيقظنـي طنين جهاز التلفاز. بدا أن الثلج الظاهر على الشاشـة قد تسـلل إلى داخل الغرفة. فتحت النافذة، فدخل هواء شـهر يوليو. كان الميدان مضاء بنور القمر وأضواء النيون لمتجر «بيسس». إلى اليمين بالكاد كنت أرى إحدى زوايا القبة الفيروزية المتواضعة للجامع المحلي. كان في الساحة بعض أشـجار الكسـتناء الصغيرة المتوجة، وبعض المقاعد. كان هناك رجل يجلس على مقعد تحت إحدى الأشجار، وكان يرتدي عمامة. بدا أنه نائم.

كانت شـقة جيرت، وآنا تقـع في واحد من تلـك المجمعات السكنية الرمادية المزدحمة، الرخيصة سابقة التجهيز التي كانت تحيط بمركز المدينة مثـل مفاتيح في حلقة لآمر إحدى القلاع. كان البعـض يطلق على هذه المجمعات اسـم «الجيتو». أما هذا فأطلـق عليه «الـدار البيضاء الصغيرة»، لكننـي لم أعرف هذه التسمية إلا فيما بعد.

نحن همجيون. يحمل أفراد قبيلتنا علامة كولومبوس غير المرئية على جباههم. نسافر غربا وينتهي بنا المطاف شرقا، حقا، إننا كلما مضينا إلى أقصى الغرب فإننا نبلغ أقصى الشرق. إن قبيلتنا ملعونة.

نحن نستقر في ضواحي المدن. نختارها لكي يكون في إمكاننا جمع خيمنا عندما يأتي الوقت لنرحل من جديد، نتحرك غربا لنبلغ الشرق. نعيش في مجمعات سكنية سابقة التجهيز، رمادية، مزدحمة، رخيصة، تحيط بمركز المدينة مثل المفاتيح في حلقة لآمر إحدى القلاع، ويسميها البعض بالجيتو.

جميع تلك المجمعات السكنية متشابهة. يمكن تمييزنا من خلال أطباق «الستلايت» التي تبرز من شرفاتنا، تلك الأجهزة التي تمكننا من الإحساس بنبض الناس الذين تركناهم خلفنا. نحن، الفاشلون، ما زلنا نستنشق هواء الوطن الذي تركناه «نحن» وراءنا. «هم» لا يملكون أطباق «الستلايت»، «هم» لديهم كلاب. «نحن» نخاف من الكلاب. في الشفق تخرج كلابهم إلى الشرفات وتنبح برسائلها بعضها لبعض. يرتد النباح جيئة وذهابا من المباني الأسمنتية مثل ارتداد كرات تنس الطاولة في أثناء اللعب. يثير الصدى الكلاب إلى حد الجنون، مما يجعلها تنبح بصوت أعلى.

نحن لدينا أطفال. نحن نتكاثر بصورة خطيرة. يقال إن حيوانات الكنغر تتكاثر في مراحل متتالية، فمع الكنغر اليافع، ثمة آخر في الجيب، وثالث في الرحم أوشك على الخروج، ورابع

على شـكل بيضة مخصبة حديثة تنتظر أخذ مكانها. ونسـاؤنا مثـل حيوانات الكنغر تلد فـي مراحل متتابعة، أشـبه ما تكون بالمفاتيح التي في حلقة زوجة آمر لإحدى القلاع. لأطفالنا أعناق مسـتقيمة، وبشرة سمراء، وشـعر داكن، وعيون سوداء، أطفالنا مستنسـخون، فالذكور رجال مقزمون، وهم نسخة طبق الأصل عن آبائهم، والإناث نسـاء مقزمات، وهن نسخة طبق الأصل عن أمهاتهن.

هنا نحـن نحضر إلى منازلنـا الأغذية الملفوفـة بأناقة من محلات «بيسـس»، و«آلدي» و«ليـدل»، و«ديرك فان دي بروك»، حيث نشـتريها بأسـعار الجملة. أسـواق سـمكنا تفوح بروائح السـمك الكريهة. محال الجـزارة تفوح بروائح الـدم. متاجرنا قذرة: نحن نشـتري اللحـوم الموضوعة في براميل بلاسـتيكية ضخمـة مملوءة بالماء المالح. نحن نتفحص بأصابعنا كل شـيء، ننتقيه، ونجسه، ونقلبه، ونصغي إليه، ونجره من كشك إلى آخر. إن السوق الشرقي يشكل جوهر وجودنا.

مجمعاتنا أشـبه ما تكون بالواحـات: فهي تلبي كل ما نحتاج إليه. تتوافر فيها مدارس الروضة، والمدارس الابتدائية، ومدارس تعليم القيادة، ويوجد فيها مكاتب بريد ومحطات وقود، وشركات هواتف توفر مكالمات إلى الوطن بأسـعار رخيصة، وكذلك فيها محال لكي الملابـس، وأماكن عامة لغسـيل الملابس وصالونات للحلاقة، حيث يقص مواطنونا شعر مواطنينا، وفيها أيضا مقاه، حيث يحصل الشباب على الحشيش، والمراكز الشبابية الأخرى. الفطائـر تركية، وفيهـا كذلك مكان للعبـادة، وحانتان أو ثلاث

للرجال. نحن لدينا حاناتنا، ولديهم هم حاناتهم. فأماكن الوجود محـــددة بدقة. لا يدخـــل أماكننا أي من الســـياح، إلا إذا ضلوا الطريق. أما أفراد الطبقة الراقية، «سكان القناة»، فيقولون إنهم يحتاجون إلى تأشيرة لولوج الأحياء الفقيرة. وماذا سيفعلون هنا على أي حـــال؟ لذا، هم يبقون في أماكـــن وجودهم في المدينة، ونحـــن نبقى في أماكننا. الكل يشـــعر بأمان أكثر بهذه الطريقة، وبمزيد من الارتياح.

نحـــن همجيون. نحن الوجـــه الآخر للمجتمـــع المثالي، نحن عفريت العلبة عند طرف إبهامه، ونصف عالمه، وجانبه الســـفلي القبيح - عالمه الموازي. نحن نخوض في قاذوراته، كلابا وآدميين، نحن نواجه جرذانه في الصبـــاح الباكر، وعندما نعود متأخرين ليـــلا. تأتي الريـــاح لنا لتنتشـــر القمامة في الهـــواء - الأكياس البلاســـتيكية التي خلفناها من ورائنا، وأكياس الحلوى «مارس»، و«كيت - كات»، و«ســـنيكرز»، التي يرميها أطفالنا. في كل مساء تأتي طيـــور النورس لتتغذى على بقايا الطعـــام الرديء المتعفن، والغربان لتنقر بقايا الفطائر التركية.

شـــبابنا جامحـــون، عابســـون يملؤهـــم الغضب. فـــي الليل يتجمعون في الســـاحات الأســـمنتية المهجورة مثـــل مجموعات من الكلاب الضالة، وينفســـون عن مشـــكلاتهم حتى الســـاعات الأولى من الصباح. يطارد بعضهم البعض في الملاعب المهجورة، ويتأرجحـــون على الأراجيـــح، ويقفزون ويصرخـــون، وينتزعون الســـماعات مـــن أكشـــاك الهواتف العامـــة، ويرمون شـــبابيك الســـيارات بالحجارة، ويسرقون كل ما تقع عليه أيديهم، ويلعبون

كرة القدم بعلب البيرة الفارغة التي تطلق أصواتا تشبه أصوات الرشاشات الأوتوماتيكية، ويقودون الدراجات النارية مثل المجانين عبر المجمعات السكنية. الليل هو وقتهم المفضل. نحن نختبئ ونرتجف كالفئران: فمواؤهم ينشف الدم في عروقنا. تفصل مساحات واسعة بين نقاط الشرطة في منطقتنا، مما يفسح المجال للصرخات أن تأكل في أجسادنا كالحمض. شبابنا سريعون في استخدام السكاكين: فسكاكينهم امتداد لأياديهم. شبابنا أبطال في البصق: فبصاقهم يحدد مناطقهم كما يحدد بول الكلاب مناطقها. ودائما ما يتجولون معا، في زمرة، مثل أوغاد القرية.

شاباتنا يتسمن بالهدوء. هن ترين أن مجرد وجودهن سبب للإحراج لهن، ويرى ذلك في وجوههن. يتسللن عبر المدينة كأستار، يغطين شعورهن بالأوشحة، وعيونهن تحملق في الأرض. إن صادف ورأيت إحداهن في الترام، فستكون منحنية فوق كتاب الصلوات، تقضم المقاطع المقدسة كأنها بذور نبات عباد الشمس. سرعان ما تترجل، من دون أن تنظر يمينا ولا يسارا، وتعدو، وهي لم تزل تلوك النص، وشفتيها في حركة مستمرة، كشفتي جمل.

يتجمع رجالنا ذوو الحواجب السوداء الكثة حول القبة الفيروزية الأسمنتية للمسجد الذي يشبه دار حضانة أكثر منه بمكان للعبادة. في الصيف، يقرفصون متكئين على حائط جامعهم، يحكون ظهورهم بجدرانه ويبحثون عن ملجأ من الحرارة (على الرغم من عدم وجود شمس). يطوفون هائمين، وهم يشمون بعضهم البعض، ويدورون حول المسجد، وأيديهم مشبكة

خلف ظهورهم، ثم يتوقفون، ويحولون ثقل أجسامهم من قدم إلى أخــرى، ويربت بعضهم على ظهور البعض، ويعانق بعضهم بعضا البعض يتقابلون وعندما يفترقون، وفي بعض المناســبات عندما يكون المسجد ممتلئا، يفيضون خارجين إلى الأسفلت، ويسجدون في مواجهة الشــرق. يمكث رجالنا في المســجد من الفجر حتى حلول الظلام.

عندما تهبط الشــمس إلــى انخفاض كبيــر وكأنها تلامس رؤوســنا، وعندما يهوي مقيــاس الضغط ويصبــح الهواء رطبا ونصبح نتنفس عبر خياشــيمنا، عندئذ تثقل أجســامنا وتسقط إلــى القاع حيث لا توجد مناطق محددة، وحيث نزحف على أربع بغير هدى، مرهقين مثل الأسماك بعد وضعها للبيض. وفي ذلك المكان فقط، في القاع الصخري، تمس حراشفنا بعضها البعض، وتتقابــل زعانفنا عند مرورنا، وتضغط خياشــيمنا بعضها على بعض.

نحــن همجيــون. ليــس لدينا طريقــة للكتابة، نحــن نترك توقيعاتنــا في الهــواء: فنحن نصــدر أصواتا، ونبلغ بإشــارات نداءاتنا، وصيحاتنا، وصرخاتنا، وبصاقنا. وبهذه الطريقة نحدد منطقتنا. تطبل أصابعنا على كل شــيء تلمسه: سلال القمامة، وزجــاج النوافــذ، والأنابيب. نحن نطبــل، إذن، نحن موجودون. نحن نحدث جلبة، والجلبة مؤلمة مثل وجع الأسنان. نحن نجعجع في الأعراس، وننتدب في الجنائز، حيث تضرب أصوات نســائنا المتشنجة الواجهات الأسمنتية كالزوابع. نكسر الكؤوس، ونذهب لممارسة الجنس: فالمفرقعات النارية هي ألعابنا المفضلة. الصوت

هـــو أبجديتنا، الجلبة التـــي نصدرها هي الدليـــل الوحيد على وجودنا، والأثر الوحيد الذي نتركه وراءنا. نحن نشـــبه الكلاب: نحـــن ننبح. ننبح باتجاه الســـماء الرمادية التي تهبط ثقيلة على رؤوسنا.

نحن النائمـــون. نحن همجيون. يحمل أفـــراد قبيلتنا علامة كولومبوس غيـــر المرئية على جباههم. نســـافر غربا وينتهي بنا المطاف شـــرقا، حقا، إننا كلما مضينا إلـــى أقصى الغرب فإننا نبلغ أقصى الشـــرق. إن قبيلتنـــا ملعونة. العودة إلى الأرض التي أتينـــا منها تعني الموت، والبقـــاء في الأرض التي أتينا إليها تعني الهزيمـــة. وهكذا يســـتمر التكرار الأبدي في أحلامنا لمسلســـل الرحيـــل، فلحظـــة الرحيل هي لحظـــة الانتصـــار الوحيدة في حياتنـــا. أحيانا، ونحن في طريق عودتنا إلى المنزل من المســـجد يســـيطر علينا النعاس ونلوذ إلى مقعد تحت شجرة تجهد للنمو. الهواء رطب ودافئ، والقمر بدر، وسماء الليل زرقاء داكنة. هكذا ننام في الواحة الأســـمنتية، تحت الشجرة الأسمنتية، ونعود إلى مسلسل الرحيل الذي يلازمنا. نأخذ خيمنا، ونربط حقائبنا على ظهورنـــا، وتأتي ريح عاتية وتنثر رمـــال الصحراء، وتبدأ صورنا بالتلاشي، ثم نتوارى تماما في ستارة الرمال السميكة.

٣٠

وقفت، ثم تناولت أول شريط فيديو وقعت عليه يدي، وأدخلته في جهاز الفيديو. ثم عدت إلى الأريكة، ونفضت الشرشف للتخلص من قطع الورق التي سقطت عليه، ثم تمددت على الأريكة.

كان الفيلم لفيليب كاوفمان عن رواية «خفة الوجود التي لا تحتمل» لكونديرا. سبق أن قرأت تلك الرواية مرتين. كان لدي شكوك حول الإنتاج السينمائي للأعمال الأدبية، فحتى أفضل تلك الأفلام بدت غير جديرة بنماذجها. لقد وضعتني الصور السينمائية الأولى على أهبة الاستعداد: فكل من دانيل دي – لويس وجولييت بينوش كانا يبدوان أكثر تشيكية من العديد من التشيكيين، لكن بينوش كانت تحاول التحدث بالإنجليزية بلكنة تشيكية، وكان الشيء الوحيد الذي لفظته بشكل صحيح هو اسم آنا كارنينا. كذلك نفرت من طريقة الفيلم في إضفاء الشاعرية عند عرض الحياة اليومية في ظل الحكم الشيوعي: كاللقطات الحقيقية لأجساد قبيحة عارية يلفها البخار، أو لرجال مسنين يلعبون الشطرنج في حمام للسباحة، والمشاهد التشيكية لمنتجعات المياه المعدنية المتهدمة (التي كان من الممكن أن تكون في كرواتيا)، وشوارع مدينة براغ (التي تذكر بمدينة زغرب). ربما كان سخطي ناتجا عن ردة الفعل اللاإرادية (ماذا يعرفون عنا؟) التي كنت قد سمعتها كثيرا، وذلك كان مجرد تكبر من المقيمين في المستعمرة، وبالتالي لا تعد أكثر من تعزية لغطرسة

من أنشــأوا المستعمرة. وبناء على نظام الأشــياء، فإن كاوفمان البريء أصبح مســتعمر المنطقة التي لا يوجد، في تلك اللحظة، من يملك حق العيش فيها غيري.

لكن عندما ظهر المشهد الوثائقي بالأبيض والأسود للاحتلال الروســي لتشيكوسلوفاكيا على الشاشة، أصبت بالذهول عندما رأيت الدبابات الروســية في براغ، ومشــاهد الاحتجاج والعنف في الشــوارع، التي توجت بصورة مقربة لجندي روســي يصوب مسدسه على المشــاهدين، بمن فيهم بينوش. ذلك المسدس كان مصوبا نحوي. ولــم تعد بينوش، التي أُدخلت في ذلك المشــهد بمهــارة، وكانــت تلتقط الصور للدبابات بســعار، لــم تعد تثير أعصابي. لم يصبح الفيلم «موثوقا فيه» فقط، لكنه أيضا أصبح قضية شــخصية «قصتي الشــخصية»، أو هكذا أحسست، على الأقل. وشعرت بالدموع تسيل على خديّ.

تســاءلت: ما الذي كان يجري؟ لقد كنت في السادسة عندما غزا الروس تشيكوسلوفاكيا، لذا كان من غير الممكن أن أتمكن من تمثل القصة بجلاء وســهولة. بدأت القيام بجولة من الحسابات المحمومــة. وإذا كانت، كما تقول مقدمة الفيلــم، رواية كونديرا نشــرت في العام ١٩٨٤، وصور فيلــم كاوفمان في العام ١٩٨٧، فإن الفيلم ظهر قبل عامين من ســقوط جدار برلين، وقبل أربعة أعوام من اندلاع الحرب في يوغســلافيا، وهذا يعني أنه كان من الممكن أن أشــاهده في زغرب (لكن ذلك لم يحدث). بدأ رأسي يلف من تلك الحســابات الفارغة، وقبل أن أدرك ذلك، كنت قد فقدت إحساسي تماما بالزمن. كنت مثل أولئك الجنود اليابانيين

الذين تركوا في الأدغال الفلبينية بعد الحرب، ثم عندما وجدوهم فيما بعد، كانوا يعتقدون أن الحرب لم تزل مستمرة. لقد خلطت كل الأشـياء معا - الأطر الزمنية، والأطر السـينمائية، ولم أعد قادرة على ترتيبها. فما حدث في الماضي البعيد بدا حديثا الآن، والأحداث القريبة جدا انتقلت إلى الماضي البعيد. بدا أن الإطار الزمني الوحيد عندي هو ذلك الشريط القديم. جعلت أتلفت من حولي وكأني بحار تحطمت سـفينته، وقذفته المياه إلى الشاطئ. كنت في شقة ليست شقتي، وفي مدينة ليست مدينتي، وفي بلد ليسـت بلدي، محاطة بجدران متصدعة ورائحة الطحالب. كنت أمسك بجهاز التحكم عن بعد الذي لم يزل يعمل، ولكن بطاريات جهاز تحكمي الداخلي كانت قد نفدت، ولا سبيل إلى تشغيلي من جديد. تساءلت متى وجدت الأشـياء التي حدثت وقتا لتحدث، وما الذي جعلني أنظر إلى فيلم كاوفمان وكأنه الخبر الرئيس في نشرات أخبار الـ «سي.إن.إن» في ذلك اليوم، وإلى اتفاق «ديتون» الهش الذي وقع قبل عامين فقط وكأنه تاريخ سـحيق أسـتطيع تجاهله بكل فخر.

كانـت الضربة التـي تلقيتها للتو أكثر تعقيـدا مما بدت في البداية. فعبارات مثل «متلازمة الطرف المستأصل»، أو «الحنين»، كانت عبارات مجردة تشـير إلى الصفعة العاطفية المعقدة التي تأتـي من الضياع، واسـتحالة العودة. وهي توحـي بأنه لا فرق عمليا بين أن نتصالح مع الضياع، أو أن نشـعر بالراحة لتمكننا من نسـيان الماضي، أو من رغبتنا بالعودة إليه. ذلك لأن الضربة لا تفقـد قوتها بهـذه الطريقة. فالحنين، إن كانـت تلك الكلمة

المناسـبة لذلك، هو مهاجم، متوحش غادر يتبع أسلوب الكمائن، ويهاجم في الوقت الذي لا تتوقعه، وينفذ مباشـرة إلى الضفيرة الشمسـية. يرتدي الحنين دائما قناعا، ومن دواعي السـخرية، أننا نقع ضحية له بمحض المصادفة. يظهر الحنين لنا بأشـكال مختلفة - عادة ما يكون شـكلا سيئا - بعد رحلة معقدة، ليست مختلفـة عن لعبـة الأطفال المسـماة «الهاتف» تسـري العبارة المهموسة في الأذن المجاورة له، فتمر عبر سلسلة من الآذان إلى أن تبرز من فم آخر اللاعبين مثل أرنب يبرز من قبعة ساحر.

تلك الصفعة التي تلقيتها أخيرا في الضفيرة الشمسية كانت قـد مرت برحلة طويلـة ومعقدة، مارة عبر عدد من الوسـطاء والوسـائط، حتى، بعد التوسـط فيها بما لا يحصى من المرات، ظهرت على شـكل جوليـت بينوش. كانت بينـوش آخر من في صف أجهزة التحول، الشـخص الذي ترجم ألمي الشخصي إلى لغتي. في اللحظة المناسبة. لأنه في وقت آخر مختلف قد تصبح ترجمتها كلاما غير مفهوم. في تلك اللحظة فقط وليس غيرها، كانت مشـاهد كاوفمان، التي تشبه كثيرا إعلان كوكاكولا مثاليا، قـادرة على أن تطلق هجومـا مفاجئا علـى اللاوعي خاصتي، وتصدعت تماما.

على الرغم من أنني شـعرت بأن القصة الوحيدة التي ملكت حق تأليفهـا تماما كانت «القصة اليوغسـلافية»، فإنه في تلك اللحظـة كانت كل القصص ملكي. بكيت من أعماق أعماقي وأنا أسـتعرض الشبكة الخيالية المتشابكة التي حملت اعتباطيا اسم أوروبا الشـرقية، والوسـطى، وشرق - وسـط أوروبا وجنوب -

شرق أوروبا – أوروبا الأخرى. لم أستطع التعامل معها صراحة: فهناك ملايين الروس الذين اختفوا في معتقلات ستالين، والملايين الذين قتلوا في الحرب العالمية الثانية، وأيضا أولئك الذين احتلوا التشيك، والتشيك الذين احتلهم الروس، والمجريون – الذين احتلهم الروس أيضا – والبلغار الذين زودوا الروس بالطعام، والبولنديون، والرومانيون، واليوغوسلاف السابقون، الذين احتلوا أنفسهم بشكل أساسي. كنت أضرب رأسي بحائط الخسائر البشرية. ومثل نادب بلقاني رحت أنوح بكربي على الفرد وعلى الجميع، وكربي وحده كان أبكم. حزنت على زغرب، وسراييفو، وبلغراد، وبودابست، وصوفيا، وبوخارست، وواجهات مدينة سكوبي التي تهدمت. كنت متأثرة بالذوق السيئ المحبب لغلاف الشوكولاتة في شبابي (فضلا عن طعم تلك الشوكولا الرديء للغاية)، وتحسرت على مقطع من لحن رن في أذني مصادفة، أو وجه برز عشوائيا من الظلمة، أو صوت، أو نبرة لصوت، أو بيت من الشعر، أو شعار، أو رائحة، أو مشهد ما. جلست هناك، محملقة في مشهد الخسائر البشرية، وقلبي يبكي. بل إنني ذرفت دمعة مع خدع كاوفمان السينمائية، التي استطاعت أن تثير مشاعري، ودمعة أخرى على شريطي السينمائي «لبينوش».

ثم فكرت بطلبتي. فمن المؤكد أن مشهدا كهذا سيؤثر فيهم. كانت المشكلة، أن تحولهم/انسلاخهم أضأل فرصة في النجاح فقط: فقد فاتهم الوقت المحدد بثانية، أو بجزء من الثانية. كلا، سينتهي تحولهم بالفشل. أحسست بذلك في خضوعهم

الذاتي، وفي مسحة الحزن في أعينهم، وفي الصفعة غير المرئية على وجوههم، وفي كتلة الاستياء الغامضة في حناجرهم.

في أي دقيقة الآن، في أي ثانية، ستنهض قبيلة جديدة مختلفة تماما من نبت جراح ما بعد الشيوعية تحمل رسائل دكتوراه بعناوين معبرة مثل: «فهم الماضي كوسيلة للنظر إلى المستقبل». سيكونون أطفال توماش، وتيريزا الذين عادوا إلى تشيكوسلوفاكيا فقط لكي يموتوا هناك، لأن العودة تعني الموت، والبقاء يعني الهزيمة. سيكونون أيتام توماش وتيريزا. سيشرعون في العودة مثل سمك السلمون، لكن العصور الأخرى تعني جداول أخرى، ورفاق مسافرين آخرين من الوطن، الأناس الذين «يتطلعون إلى المستقبل» حقا، والذين لن يتمكنوا من «فهم الماضي»، أو على الأقل، ليس بالطريقة نفسها. ولاعبوا هذه الفرق الجديدة من «المياه الرمادية الراكدة» في منغوليا، ورومانيا وسلوفاكيا، والمجر، وكرواتيا، وصربيا، وألبانيا، وبلغاريا، وبيلاروسيا، ومولدوفيا ولاتافيا، ولتوانيا، جيل الطفرة الانتقالية هذا سيجتاح الجامعات الأوروبية والأمريكية، وسيتعلم أخيرا ما يلزمه تعلمه. سوف يشكلون فريق شاب رنان من المتخصصين والمنظمين، ومضاربي الأسهم، وقبل كل شيء، المديرون، خبراء إدارة الأعمال، والإدارة السياسية، والإدارة البيئية، والإدارة الثقافية، وإدارة الكوارث - إدارة الحياة برمتها. سيكون هؤلاء نوعا يتكاثر بسرعة وحشية، وكأن التكاثر هو هدفهم الوحيد في الحياة. هم من النوع الذي يقف على قدميه دائما، ولا يشعرون بوخز الضمير من العيش على مصائب الناس الذين قدموا لهم المساعدة، فحتى الكوارث تحتاج

إلى إدارة: فعدم القدرة على إدارة الكوارث هو الفشـــل بعينه. هم الناس الذين ســـيقومون برعاية المعاقين في بلغاريا، والبوســـنة، وبيلاروســـيا، ومولدافيا، ورومانيا، ورعاية الأيتام في البوســـنة وجورجيا، وطاجاكســـتان، وكازاخســـتان، والشيشان، وكوسوفو، وأذربيجـــان، وأرمينيا، ورعاية الأقليـــات في أوروبا وروما في أي مـــكان، وهم الخبراء لضحايا الجنس، وتجارة العبيد من البيض، والسود، والصفر ، وهم رعاة اللاجئين من المهاجرين، والمهجرين، ورعاة المتشـــردين. إنهم الطفرة الذين ينتشـــرون بفاعلية تشـــبه فاعلية الفيروســـات في المختبر، ينشرون أشـــراكهم، وشبكاتهم علـــى الإنترنـــت، ومظلاتهـــم، ومظلـــة منظماتهـــم، ومراكزهم، وأدوات الربط. ســـوف يصبحون رؤساء أقسام السمع - مرئيات، والاتصـــالات، وهم أنـــاس الشـــبكة العنكبوتية. ســـوف يكونون مصممين لمهنهم، وحيوات الآخرين واثقين بأنفســـهم. ســـيكونون مفكرين بعمق، وقراء نهمين، ومصممين بارعين. سيملكون هويات متعـــددة: فهـــم مواطنون عالميـــون، متعددو الثقافـــات، قوميون، وعرقيون، وشـــتاتيون، الكل مجتمعا. ســـيرتدون قبعات مختلفة، ويكونون مرنين إلى أقصى حد، دائما مســـتعدون لتعريف وإعادة تعريف أنفســـهم، وأن يعكسوا صورة أنفســـهم أو ينحرفوا عنها، وابتكار وإعادة ابتكار أنفسهم، وتركيب وتفكيك أنفسهم. سيكونون أبطـــال الديموقراطية في هذه الفتـــرات الانتقالية، وبما أن كل شـــيء كان ولا يزال دائما في حالة من التغيير، فإنهم سيمضغون كلمتـــي «الحركة»، و«المرونة» مثل العلكة في أفواههم. ســـيكونون تقدميين، وصغار الســـن بشـــكل صـــارخ، فهم مفوضـــو التكامل

والتوسع الأوروبي أصحاب الرواتب العالية، ورواد النظام العالمي الجديد، ومخترعو «ما بعد الوحدات السياسية»، ما بعد القومية، وتجمعات ما بعد القومية الجديـــدة، ومناصرو «العولمة» كنقيض للمحلية، والعكس بالعكس، ومدافعون: مدافعون متحمسون للدفاع عن أي شـــيء يحتاج إلى الدفاع عنـــه. وبالرغـــم من ولادتهم في مناطـــق أوكـــرانية نائية، إلا أنهم يدرسون تاريخ العصور الوسطى في «كييف»، والمصطلحـــات الإنجليزية التجارية في «برمنغهام»، ويكتبون أطروحاتهم العلمية حول علاقة تاريخ العصور الوسطى بالمصطلح التجاري. سيتنادون من مدينة «فيلينوس» في «ليتوانيا» حتـــى مدينة «وارويك» في إنجلترا، ليدرســـوا الاقتصاد الخاص والعـــام، وليتخصصوا في أســـاليب الحكم الرشـــيد والســـلام القابـــل للديمومة في المجتمعات التي مزقتها الحروب. ســـيأتون من مدن «فورونتش» و«كاوناس» و«تيمشـــوارا» و«بيكس»، ليعملوا لدى المنظمات غير الحكوميـــة، والاتحاد الأوروبي، ووكالة الأمم المتحدة للاجئين. ســـيأتون مـــن «يولان باتـــور» عاصمة منغوليا ومعهم شـــهادات الماجســـتير في الاقتصاد لدراسة تطبيق أدوات السياسة الاقتصادية. سيأتون من يريفان، من ألما أتا، من فيليكو تورنوفو، من طشـــقند وفارنا، ومنســـيك ليصبحوا القادة ونخبة المســـتقبل في أوروبا الموحدة. ســـيأتون من «إياش» في رومانيا، و«روس» في بلغاريا، و«تيتوفو» في مقدونيا، وفي جيوبهم شهادات الدكتـــوراه فـــي اللاهوت التقليـــدي الرعوي، وســـيمكثون بضع ســـنوات في «فرايبورغ» لدراســـة العلاقات الدولية، وينخرطون في الدراســـات الإســـتراتيجية في سالونيكا، وبوســـتون، وبراغ،

ويعقدون سلسلة من الجلسات التعريفية بأجور سخية في معهد روماني، أو بلغاري، أو لتواني، حول موضوع التكامل الأوروبي - الأطلسي وسياسة الدفاع، متباهين بوفرة علمهم الفاسد. سيتمتعون بموهبة لغوية عالية، إذ إنهم يتحدثون لغات متعددة، ويصنعون لكنة أوروبية خاصة بهم، متبلينها بمفردات شخصية. وسيعطون كلمة «التوسع» التوكيد اللازم بكتابتها بالحرف الكبير، لأنها بالنسبة إليهم تنبئ بعهد جديد، وإنسانية جديدة، ونهضة، وتنوير، فكلمة توسع تلفها جميعا في واحد. وستضم عباراتهم الطنانة كلمات الإدارة، والتفاوض، والتقنية، والدخل، والربح، والاستثمار، والتكاليف، والمعنى المستتر، وما إلى ذلك. وإذ هم يسارعون في أخذ مناصبهم وعيونهم أبدا على الفرص المهمة، وإذ هم يمتازون بمرونة عالية كالقطة بسبع أرواح كما يقال، فإنهم سيكونون مجدين في العمل، ومتقنين لمهارة التواصل وأوفياء، وحصيفين، ومتسامحين، وودودين، وماهرين بالتعامل مع المواقف الصعبة. سيكون لديهم اهتمام خاص بالمزايا الديبلوماسية. سيأتون من مدينة «سمارا» الروسية بعد مهماتهم القصيرة في شركة كوكاكولا - سمارا، وشركة سمارا لايت وباور لينضموا إلى أكاديمية «فلتشير» في القانون، والديبلوماسية، وأكاديمية البحر المتوسط في الدراسات الديبلوماسية. وسيبهرون طلبتهم بعبارات مثل «التحدي هو دافعي، والكمال هو هدفي النهائي»، والرطانة بمثل «الأنا المعاصرة»، و«الولادة غير الشرعية لعصرنا»، و«مرحلة ما بعد الاستعمار»، و«السوقنة»، و«تكتيكات الخلق، وحساسية التدريب والاتصالات المباشرة».

لكن سينسون في طريقهم أن المرونة، والحركة، والسيولة، التي قذفت بهم إلى السطح، ستترك وراءها حشدا من العبيد في القاع يعوزه الاسـم. فعبر كل تلك المياه الرمادية الراكدة، سيجهد الناس فـي الحصول على دخول حقيرة من خـلال صناعة البضائع التي تطلبها كبار الشـخصيات في أوروبا الغربية. وسـيقومون بالبحث عن الطعام في سـلال القمامة، ويتعاملون مع الشـواذ، ويخلفون أطفالا مشـردين، يخلفون بدورهم مزيدا من الأطفال المشـردين. وسـيبيعون حيواناتهم المنوية، وكلاهم، وأي عضو يأتيهم بالمال من السـوق السوداء العالمية. وسـيؤجرون الأعضاء التناسلية الفاعلة من أوروبا الشـرقية، للناس الذين يعانـون من الضعف في أوروبا الموسـعة. وربما يسـاعدون إخوانهم من الزبائن المثليين الكروات، على سـبيل المثال، للسـفر إلى بلغاريا حيث يتوافر اللحم البشري بشكل أرخص. وسـيقطع بعضهم كل الطريق ليصلوا إلى شواطئ أوروبا الغربية حيث سيجمع سعيدو الحظ زنابق الهليون في ألمانيا، وزهور التيوليب في هولندا، بينما سينظف الأقل حظا الحمامات.

يبدو أن طلبتي قد فاتهم القارب، كما حدث معي أنا في هذا الشـأن، ولكن بفارق ثانية واحدة فقط. لقد وقفنا هناك بأفواه مفتوحـة متجاوزين الوقـت بثانية، وفقدنـا الفرصة في دخول العهد الجديد. كل ما نسـتطيع فعلـه الآن هو محاولة الحفاظ على الوضع الذي نحن فيه. لقد شقت الحشرة الخاسرة طريقها إلى قلوبنا، وأضعفت العضلات الموجودة فيه.

كنـت أجلس في الغرفة محاطة بالجدران المتقشـرة ورائحة الغبار القديم. كان ذلك يناسـبني تماما: إذ كان يعود لشـخص

آخر ويتماشــى مع تأشــيرة دخول الحياة الوضيعة التي حصلت عليها حديثا، ومع بعض قطع المتاع التي كان من الممكن أن أتركها ضحيــة للعفن في خزانــة عامة لحفظ الأمتعــة. لو كنت فعلت ذلك، وقامت الســلطات بإرجاع المتاع لي، لكان علي أن أخبرهم عن محتوياته، التي لم يكن بالإمكان تفسيرها. إذن، كنت أجلس في المكان محاطة بالجدران المتقشرة، وكنت أملك مهنة، لم يكن بالإمــكان تفســيرها أيضا، وبلدا تحطم، ولغــة قومية أصبحت ثلاث لغات، أشــبه ما تكون بتنين له لســان متشعب. جلست في المكان وقد تولد لدي شعور بالذنب لا أستطع أن أضع يدي على مصدره، وشعور بالألم تعذر تحديد مصدره أيضا.

ضغطت علــى «زر التوقيف» و«زر الإخراج» في جهاز التحكم من بعد، ثم أخرجت الشريط من جهاز الفيديو وأعدته بسلاسة إلى مكانه على الرف. رأيت أن أحسن خيار أمامي هو المضي في تفحص المكان، وتوزيــع ما ينبغي أن أقوم به يوما بيوم، والانتهاء من عملــه. فكرت أن أبدأ غدا بالحصــول على صحيفة لمعرفة التاريــخ (فأنا لم أكن متأكدة من المدة التي كنت قد قضيتها في الزنزانة التي حبســت نفســي فيها)، وتحديــد أقرب مكان عام لغســل الملابس. ثم كان علــي أن أتخلص مما تبقى من الفوضى في المكان، وأشــتري ورق جدران جديدا للأماكن التي كانت قد انتفخت وســقطت. لكن كان علــي أولا أن أزيل البقع القذرة من علــى الجدران. وفي هذه المرة ســأنظــف الجــدران بالصنفرة، وأملأ الشــقوق بالمعجون قبل إلصاق الورق. بل قد أقوم بدهانه - باللون الأبيض، طبعا.

ذهبت إلى النافذة وفتحتها. كانت الساحة الأسمنتية مضاءة بالنور الخافت لمصابيح الشارع والحروف المشعة في اسم متجر «بيسيس» في الجهة الأخرى. كان الهواء ينفث رطوبة حارة وثقيلة شبه استوائية. في أقصى اليمين كنت أرى جزءا من القبة الفيروزية في أعلى المسجد الأسمنتي الصغير. كان لأكاليل أشجار الكستناء لمعان مكبوت خاص بها، وتلألأت أطباق الستلايت المعدنية على الشرفات القريبة بلونها الأبيض عبر الظلمة. كان المكان هادئا بشكل غير عادي. أشعرني المنظر بالراحة. خطر ببالي: ربما كنت قد وصلت إلى الوطن بعد كل هذا.

ثم خارجا من الظلمة، داخلا شبه الظلمة الأسمنتية ظهرت هيئة رجل. شق طريقه ببطء وصعوبة، كأنه كان يخوض خلال المحيط. فجأة نفض شيئا بإصبعه على الأرض بدا كعقب سيجارة، وكان هناك ارتداد سريع حاد. لقد كانت لعبة نارية. وبما أنه لم يدرك أن شخصا ما كان يراقبه، فإن ذلك العابر الغريب ترك علامته على تلك الليلة، باعثا رسالة بلا محتوى، قبل أن يختفي في الظلمة. بينما كان يتوارى، بدا أنه يمشي بزاوية خفيفة، مثل كلب.

٣١

سوى الإعصار المنزل بالأرض، برقة عالية
- غير معهودة في الأعاصير - وسط ريف في
غاية الجمال. كانت المروج الخضراء الجميلة
في كل مكان، مع الأشجار المهيبة التي تحمل
الفاكهة الوافرة، زكية الرائحة. وصفوف من الورد
البهي عند كل جانب، والطيور بألوان ريشها النادر
البراق
كانت تغرد وترفرف داخل الأشجار
وفي الدغل. وفي مكان ليس ببعيد كان
جدول، يتدفق ويتألق بين المروج الخضراء،
ويهمس بصوت ممتن لفتاة صغيرة عاشت
لزمن طويل جدا في البراري الجافة، الكئيبة

من ساحرة أوز الرائعة للكاتب ل. باوم

غادرت الشقة متجهة نحو محطة المترو. كنت قد وصلت تقريبا عندما أحسست بلكمة على ظهري كانت من القوة بحيث أفقدتني القدرة على التنفس. بعد ثانية أو ثانيتين شعرت بأحد يسحب بإصرار حقيبتي التي كانت تتدلى من فوق كتفي. منعت شفرة كتفي حزام الحقيبة من الانزلاق، واستدرت ساحبة الحقيبة نحوي، لأرى ثلاثة صبية صغار يحملون حقائب مدرسية على ظهورهم. كانوا في طريق عودتهم للمنزل من المدرسة.

من المؤكد أنهم لم يتجاوزوا العاشـــرة مـــن العمر. رأيت أحدهم يمسك بمدية جيب لعبة في يده. خفض ناظريه وأسقطها. كانت نظرات الصبية الثلاثة عابسة متجهمة كنظرات الرجال الكبار. لا أســـتطيع قياس المدة التي وقفنا فيهـــا جميعا دون حراك في المكان. هي ثانيتان أو ثلاث على الأكثر. من الواضح أن أحدا منا لـــم يعرف كيف يتعامل مع الموقف. لكن ســـرعان ما تولى أغرب أولئـــك الصبية الأمر، وأطلق صيحة مدوية طويلة يملؤها الكره، فاتحا فمه ومصوبا بؤبؤيه السوداوين إلى وجهي. كان الكره غير متوقـــع وكان قويا كصعقة كهربائية. لقد خـــرج من أعماق غير معروفة، ومن ظلمة غير معروفة، خرج من ســـنين ضوئية بعيدة ليتحطم أمامي، عاريا وحادا كســـكين، وقد انفصل بالكامل عن الموقف والصبي، الذي شكلت رئتيه وحنجرته وفمه مجرد وسيط بمحض المصادفة.

استدار الصبية وهربوا. جروا بشكل أخرق وطفولي متعثرين، وحقائبهم المدرسية ترتد صعودا وهبوطا على ظهورهم. وعندما شـــعروا بأنهم كانوا على مســـافة آمنة، توقفوا واستداروا. أثار منظري وأنا واقفة في المـــكان هكذا، محملقة باتجاههم العديد من إيماءات السخرية من طرفهم، وبعدها انفجروا في ضحكاتهم العالية. ربما منيت محاولتهم الأولى للســـرقة بالفشل، لكن هذا الجـــزء كان ممتعا جدا. وقفت مراقبة إياهـــم حتى تحركوا من مكانهم.

فتحت يدي لأجد نفسي ممســـكة بالسكين. لم أستطع تذكر أننـــي انحنيت كي ألتقطها. وبينما كنـــت أنظر إليها، أدركت أن

ما حدث للتو كان مؤثرا، ومرعبا في الوقت نفسه. كانت صرخة الصبي المملوءة بالكره لم تزل تدوي في أذني.

كان الوقت أصيلا. كان الغسق رائعا، والشمس تصب أشعتها السمراء الضاربة للحمرة البراقة على كل شيء. لقد خف الألم، وغادرت المكان، وأنا لم أزل أمسك بالسكين، لكنني لم أعد أعرف إلى أين كنت متجهة. لجأت إلى التنفس العميق لكبت الحادث، الذي كان من الممكن أن يحدث لأي شخص، وفي أي جزء من المدينة، وفي أي مكان. شعرت وكأني أعيش في أكبر بيت للدمي في العالم، حيث كل شيء يكون تقليدا، ولا شيء حقيقيا. وإذا كان كل شيء غير حقيقي، إذن فلا داعي للخوف من أي شيء، هكذا فكرت، وشعرت بثقة تنبعث في خطواتي. كنت تقريبا أمشي وكأنني أمشي في الهواء.

انحلت صور مدينة «مادرودام» المصغرة أمامي مثلما تنحل شلة خيط من الصوف. لم أستطع التخلص من حقيقة أن كل شيء بدا جديدا: تلك الأشجار المقزمة التي تحاكي أشجار البلوط الضخمة، وبقع الحشيش التي تحاكي المروج الخضراء المترفة. كان كل شيء فجأة واضحا جدا، واضحا وضوح الشمس. كانت ساحة «مادرودام» في رقة ورق الأرز. الأفق المزرق يتورد عن بعد. كان النظر إليها بهذه الطريقة، وكان قلب المدينة له شكل بيت عنكبوت مشطور جزئيا. ظهر أولا جسر «ماجير برج»، الذي كانت زركشته بالغة الدقة ذكرتني باليعسوب، ثم المتجر الصيني للسمك في «سوق نايوو» بسمكه الذي يتلوى، ثم السوق الشعبي في ساحة «واترلو». لمعت المشاهد مارة من أمامي، هشة، شبيهة

بالشـــريط الزيني، الشفاف الموجود على قلنسوات رؤوس البنات فـــي لوحة الرســـام نيكولس فان دير فاي. رأيـــت قنوات متدلية تظللها الأشـــجار، ورأيت واجهات المنازل علـــى طول القنوات - «الهيرينغراتش»، و«الكايزيرســـجراتش»، و«البرينســـينجراتش» و«الســـنجال» - تقف في صفوف رائعة كاللؤلؤ، ورأيت منتورين، وهو سوق الورد والفنون، وأخذت بمنظر المتحف النباتي الدافئ المسكر. كانت المدينة كلها ممتدة أمامي، مدينة من سماء، وزجاج، وماء. وقد كانت وطني.

رأيـــت أمام متحـــف «آن فرانك» الصغير طابورا يشـــبه دودة الأرض. في الداخل، وجدت نفســـي أمام شاشـــة عرض تطرح أســـئلة عـــن صاحبة المتحـــف: (١) من أول من شـــاركت آن في غرفتها؟ (٢) من كان عليها أن تشاركه الغرفة فيما بعد؟ (٣) ماذا كانـــت آن تفعل لتحيي غرفتها؟ (٤) من صنع خزانة الكتب؟ (٥) من أي بلدة هربت عائلة فرانك؟ (٦) هل كانت جميع صديقاتها من اللاجئين؟

فجـــأة أدركت أن المنزل في «برينســـينجراتش» رقم ٢٦٣ كان يشـــبه بوضوح المنازل التي لازمتني في كوابيســـي، وأحسســـت بالراحـــة عندما صعدت الســـلالم المفترضـــة، وفتحت وأغلقت الأبـــواب المفترضـــة، وغادرت المنـــزل بضغطي علـــى زر مفتاح النجاة. لم يعد عندي شيء أخاف منه: فالنجاة كانت دائما أحد الخيارات.

تصورت محكمة لاهاي بحجم علبة الثقاب، وبقضاة صغيري الحجم يرتدون أروابا صغيرة، في وجود متهمين، وشهود صغيري

الحجم، ومستشـــارين بأحجام صغيرة للدفـــاع، والادعاء العام، وبدلاء صغيري الحجم يحاكون حياة يوجد فيها حق وباطل. في الحقيقـــة، لا يوجد أناس على حق وآخرون على باطل، ولا أناس طيبـــون وآخرون أشـــرار. هناك فقط التقنيـــات المتصلة بالأمر كله، الدوران. الشـــيء الوحيد الذي لـــه تأثير هو الفعل، فالفعل هـــو الأمر برمته. الفعـــل، هو ما يدير طواحـــين الهواء، صغيرة ونشـــطة، كعصافير المدينة، وهو ما يجعل الجسور ترتفع وتنزل، والقـــوارب تطن عبر القنوات كذباب يتم التحكم به من بعد، وما يجعل بائعات الهوى بأحجامهن الصغيرة يفتحن ويغلقن ســـتائر عروضهن في المنطقة الحمراء، بأناقة ودقة تشبه بيوت التنبؤات الجويـــة التقليديـــة، وهو ما يجعـــل رجال الشـــرطة بأحجامهم الصغيـــرة يقومـــون بجولاتهم على صهوة خيولهـــم التي لا تزيد على حجم الفئـــران الصغيرة البيضاء. مادامت الســـتائر تنفتح وتنغلق، ومادامت طواحين الهواء تدور، ومادامت أشـــجار الزينة تنمـــو، ومادام الدم يتدفق في عروقنا وإلى داخل قلوبنا، فإن كل شيء ســـيكون على ما يرام. ولا يوجد في لغة مدينة «مادرودام» كلمات الأمر المحتوم، والقضاء والقدر. الآن، اســـتقررت هنا في «مادرودام»، ســـواء كان ذلك بإرادتي أم لا، فهذا شـــيء علي أن أفهمه.

١ – ما اســـم البلد الذي يقع في جنوب أوروبا وانهارت ســـنة ١٩٩١؟ (أ) يوغوسلوفاكيا، (ب) يوغوســـلافيا، (ج) سلوفيناكيا. ٢ – ما كان اســـم ســـكان تلك البلـــد؟ (أ) اليوغوســـلاف، (ب) المنغوسلاف، (ج) السلافويوجو. ٣ – أين يعيش الآن هؤلاء الناس

الذين اختفت بلدهم؟ (أ) هلكوا جميعا، (ب) هم بالكاد على قيد الحياة، ج) انتقلوا إلى بلد آخر. ٤ - ماذا ينبغي على الناس الذين انتقلوا إلى بلد آخر أن يفعلوا؟ (أ) ينبغي أن ينخرطوا في تلك البلد، (ب) ينبغي أن يحافظوا على هويتهم، (ج) ينبغي أن ينتقلوا إلى بلد آخر.

يجب علي أن أفهم أن المحاكاة هي كل شيء، وإذا كانت المحاكاة هي كل شيء، إذن فأنا لست مذنبة، إذ أنني هنا تحت سماء «مادرودام» المتألقة «لست مذنبة بأي شيء»، والأمر برمته وجهة نظر. فالأشياء كبيرة بقدر ما نشعر أنها كبيرة، وصغيرة بقدر ما نشعر أنها صغيرة، وأنه، بالنسبة إلينا، نحن سكان «مادرودام»، فإن الغربان التي تصطف على الأسطح، أشد خطرا بكثير من صيحة الصبي المفاجئة وغير المبررة التي فاضت كرها، والتي سببت لي ألما لا يتناسب مع دلالتها.

كان الوقت أصيلا. كان الغسق رائعا، والشمس تصب أشعتها السمراء الضاربة للحمرة البراقة على كل شيء. كنت متجهة نحو الغابات، وقدماي بالكاد تلامسا الأرض. ساد هدوء غير عادي: فكل ما كنت أسمعه بين حين وآخر إزيز مرور راكب دراجة هوائية. رأيت النسوة المرتديات مناديل الرأس جالسات على العشب مثل أمهات الدجاج، والصغار من حولهن. انتفخت خياشيمي من رائحة العشب المجزوز حديثا. دخلت الغابة. لم تكن الأشجار كثيفة، فتمكنت من رؤية زرقة البحيرة من بين الأشجار. وعلى الرغم من أنه شهر أغسطس، شعرت بالخريف في الهواء. امتصصت ذلك الهواء إلى داخل رئتي أثناء مسيري.

لا أستطيع أن أحدد بدقة المدة التي سرتها أو المدة التي احتجتها للوصول إلى الأرض مقطوعة الأشجار.

... في الغابة التي كانت مغطاة بمساحات من الأزهار البرية اليانعة، وجدول شفاف غير عادي يتدفق وسطها، وأشعة الشمس الذهبية تخترق الأغصان الكثيفة المتشابكة لأشجار البلوط المحيطة. كانت تجلس على جذل شجرة قرب البحيرة فتاة معافية، قوية البنية، بعينين سوداوين. تجمع شعرها الغزير عند عنقها، وقد انسدل على جسمها المتناسق قميص صيفي من القطن الوردي، وتدلى من عنقها صليب صغير معلق بشريط أسود، وأمامها على العشب استقرت قبعة وكتاب للأغاني. كان يجلس امامها مجموعة من أطفال القرية الحلوين، وجميعهم، الصبية، والبنات، بدوا بوجوه مفعمة، فرحة، وعيون متألقة، في ملابس نظيفة ناصعة البياض، فكان النظر إليهم بهجة للنفس. كان العديد من الفتيات يضعن أكاليل من الأزهار البرية على رؤوسهن. ترفع الفتاة يدها وتصدر لحن أغنية لأفراد المجموعة الذين انتبهوا فرحين بحركة سبابتها، وما إن فتحت ثغرها الصغير حتى خرجت منه أجمل الألحان. لقد كان مشهدا رائعا: الوجوه اليافعة الفرحة، والصبية يهزون رؤوسهم بحيوية تزامنا مع اللحن، والفتيات، وهن الأكثر استغراقا، يرفعن ظهورهن باستقامة كالشمع، وفي وسطهن ذلك الوجه الذكي الذي يتألق بابتسامة الرضا، والعينان السوداوان الحادتان اللتان تراقبان جميع البراعم التي في عهدتها. وليس ببعيد عن المعلمة جلست فتاتان تصنعان إكليلا كبيرا من الأوراق الخضراء. وحالما انتهتا

منه، نهضتا وســارتا بخفة إليها، ووضعتا الإكليل على رأســها. وعندما انتهــت الأغنية، التف الأطفال حــول معلمتهم كالنحل، وهم يتصايحــون بفرح بأعلى أصواتهم. نهضت المعلمة، وارتدت قبعتها، وشــقت طريقها خارج الغابة عبر الحشــد المشــجع من الأطفال، أشــبه ما تكــون بجنية في إحدى حكايــات الجنيات الخرافية.

خاتمة

آلام الحنين للوطن تلك!
ذلك الجيشان المكتشف منذ زمن طويل!
أنا لا أبالي به تماما
مثلما لا أبالي أين سأكون

وحدي أو كيف أجر حقيبتي
من السوق إلى منزل أو وطن
وطن لم يعد لي أكثر من
مشفى أو حامية؛

لا أبالي بأي نوع من الناس
سينظرون إليِّ، فالأسد المحبوس، انتصب شعره
ولا أبالي - كما يجب أن أكون - بأي نوع من العالم
سأنفي إليه

نفسي ومشاعري الخاصة
مثل دب كامتشاتكا دون جليد طاف،
لا أهتم بإعداد مكان
(ولا أحاول) ولا أين سآكل الغراب.

ولم أفتن بأمي
وبلغة نداء أمي، المتملقة الدسمة:
فأنا لا أعطي شأنا كبيرا للغة قد
يستعملها الآخرون لإساءة فهمي

(القراء وحدهم المنكبون علي
حلب كلام الصحافة الأحمق)،
لأنهم نتاج القرن العشرين هذا،
وأنا آتية قبل القرون.

أنا مشدوهة مثل زند خشبي ترك ليشتعل
على درب من الأشجار. جميع الناس
سيان عندي، الكل سواء عندي،
وأكثر الأشياء سواء
وأكثرها قربا، قد يكون، الماضي.
كل ملامحي، كل الآثار، كل التواريخ
قد اختفت داخل مستنقعها:
فأنا مجرد روح قد وُلدت - في مكان ما.

لقد خذلني الوطن خذلانا تاما
لا بد أن عيون الشرطي السري الحادة
تفتش الروح رأسا على عقب
وستفشل في اكتشاف جذور الوطن.

كل منزل غريب، كل معبد خال،
الكل سواء، الكل واحد، الكل مجرد قمامة.
وإن كان ثمة شجرة بجانب الطريق
فإنها احتمال لتكون جبل رماد ...

مارينا تسفيتافا

تكون الحياة في بعض الأحيان مربكة لدرجة أنك لا تستطيع أن تتأكد ماذا حدث أولا، وماذا حدث فيما بعد. للسبب نفسه، لا أعرف إن كنت أسرد هذه القصة للوصول إلى نهاية للموضوعات أو بدايتها. منذ أن عشت خارج الوطن، جرّبت لغتي القومية - مثلما ترد عند الشاعر الكرواتي في شعر الوجد، هي «لغة» ذات حفيف، ترن، ترجع الصدى، وتقعقع، وترعد، وتزأر، وتدوي، كتلعثم، أو.. أو لعنة، أو تشويه سمعة، أو ثرثرة، عبارة متاجرة رتيبة خالية من المعنى. ذلك هو السبب الذي يجعلني أشعر أحيانا - وأنا محاطة بالهولنديين وأتواصل معهم بالإنجليزية - بأنني أتعلم لغتي القومية من البداية. والأمر ليس سهلا. فأنا أبتلع الكلمات، أقذف بأحرف العلة والحروف الساكنة. إنها معركة خاسرة: إذ أفشل في إيصال ما أريد أن أقول، وما أقوله يبدو فارغا. قد أقول كلمة، ثم لا أحس بجوهرها، أو أنني أحس بجوهرها، ولكنني لا أجد له كلمة. لا أزال أتساءل إن كانت لغة قد شوهت بهذا الشكل، لغة لم تستطع أن تكشف الواقع قط، واقع مركب مثل التجربة الداخلية الحقيقية، ستكون قادرة على فعل أي شيء بالمرة، شيء كسرد القصص، مثلا.

لقد عاملتني الحياة بشكل جيد. لقد تعلمت كيف أبقي ستائري مفتوحة. حتى أنني أحاول اعتبار ذلك فضيلة. لقد سجلت نفسي في دورة لتعلم اللغة الهولندية. ومثل بقية زملائي، أفرط في استخدام ضمير المتكلم «أنا». فالعالم يبدأ بـ «أنا» أنا تانيا لوسيتش، أنا من يوغسلافيا السابقة، أنا أمشي، أنا أُحلق، أنا أعيش، أنا أتكلم، أنا أتنفس، أنا أسمع، أنا أبكي... في الوقت

الحالي لا يلزمني ضمير المتكلم بأي شيء، فهو مثل لعبة من لعب الأطفال، مثل لعبة «الاستغمّاية». يقول الناس إن أسهل طريقة هي الاختفاء في العراء. في الجبال الهولندية. وراء ذلك الضمير الصلب - أنا.

صحيح، أن كوابيسي عادت من جديد. أنا الآن أحلم بالكلمات، وليس بالمنازل. في الحلم أتحدث لغة غير مدققة، وغير مسيطر عليها، لغة بشقلبة جانبية، كلماتها تقفز مثل لعبة «عفريت العلبة» الذي يخرج متحديا إياي. كوابيسي عادة مشاهد مناجاة تعكس مزاجي المتقلب. أتفحصها وأمر عليها بمشط ذي سن رفيع. إنها قائمة طويلة مؤلمة لا تنتهي من الشكايا. غالبا ما أصحو بسبب أنين مؤلم يصدر مني، أشبه ما يكون بأنين الكلب. في الحلم أملأ المكان حولي بالكلمات. تتبرعم هذه الكلمات، وتلفني مثل النباتات المتسلقة، ثم تنبثق كالسرخس، وتتسلق كالنبات المتسلق، وتتفتح بسعة كالزنابق، وتجتاحني كأزهار السحلبية البرية. ثم تتركني جُمل الغابة الخصبة لاهثة. في الصباح، أكون مُخرّبة، ولا أستطيع أن أفسر وفرتها المعجمية ما إذا كانت تعني عقابا، أم مغفرة.

لكن الحياة عاملتني بشكل جيد. الزوجان الأمريكيان، بول وكيم، اللذان كنت أعتني بأطفالهما أربعة أيام في الأسبوع، دفعا لي بسخاء. وقد أصبحت خبيرة في أغاني الأطفال: «أغانينا»، والأغاني الإنجليزية، وحتى بعض الأغاني الهولندية. لم يبخل بول وكيم بتعريفي إلى أصدقائهما، وأقاربهما، قائلين: «هذه تانيا، مربية أطفالنا. إنها رائعة مع الأطفال. فهي تعرف كيف تعاملهم حقا...».

وأمي بخيـــر أيضا، إن كانت «بخير» الكلمة المناســبة لذلك. فهي تنتعش كلمـــا اتصلت بها. تتحدث عن الحياة مثلما يتحدث الأطفال بعضهم عن بعض: فتخرج قائمة شكاواها، وتستمر في الحديث عن مرض الســكر الذي تسميه «لعنة السكر»، والتهاب المفاصل، وارتفاع تكاليف المعيشة... وهي لا تسأل عني إطلاقا: فأنا موجودة فقط لأســجل شــكاواها. لقد تصالحت مع دوري هــذا، ونما عندي التعود على أن حوارنا يجري من طرف واحد. لقد تعلمت ألا أدع ذلك يؤلمني كثيرا.

لم يعد والد جوران معنا. قالت أولجا وهي تنتحب على الهاتف: «كان من الممكن أن يضعوه في كيــس للقمامة» «كيس للقمامة!» كان قد دخل في غيبوبة، فاتصلوا لإرســال سيارة إسعاف، لكن لم يتمكن الممرضون من إدخال الحمّالة إلى المصعد، مما جعلهم يلفونه ببطانية وينزلون به خمسة طوابق. مات في المستشفى بعد بضعة أيام. أخبرتني بكل التفاصيــل عندما اتصلت بها معزّية. ثم أضافت بنبرة غريبة، واضعة بذلك نهاية حزينة لهذا الحدث، غير أنها فاترة: «على كل حال، كان لا بد من النهاية المحتومة».

نجت «آنا» بعد عودتها إلى بلجراد لمدة أقل من ســنتين، فقد كانت تعمل مع فريق تلفزيون بلجراد الذي مات في الهجوم الذي شنّه حلف شمال الأطلنطي على المدينة. مازلت أحتفظ بالرسالة التي بعثتها لي بعد بضعة شــهور مـــن مغادرتها إلى هناك. لقد أرســلت ملاحظة مقتضبة تقول إنها قد وجــدت وظيفة، وإنها تبلي بلاء حســنا، وإنها غلفت موضوع إنشــاء قصيــرا بعنوان «المحطة»، وهو إسهامها الحديث في متحفنا الخيالي عن الحياة

اليومية في يوغسلافيا. كان وصفا كئيبا للمكان الذي تتجمع فيه خطوط ترام بلجراد للاستراحة - وصفا للأصوات، ولغروب الشمس الصيفي القائظ، ولرائحة الهواء المثقل بالغبار. كتبت: «ضعيه في حقيبتنا البلاستيكية ذات الخطوط الحمر، والبيض والزرق». لقد تأثرت بالحماقة الحلوة لتلك اللفتة. أما جيرت، فقرر البقاء في بلجراد. ليس لدي فكرة عما يعمل، أو كيف يتدبر أمر معيشته. يتصل بي من وقت لآخر، وأستطيع أن أحكم من صوته أنني، أنا الأجنبية، كنت حلقة وصله الوحيدة بـ «الوطن». فأنا مازلت أسكن في عنوانه.

أما البقية، فيبدو أنهم متماسكون. لايزال آنتي يعزف الأكورديون في جميع أنحاء المدينة. يقوم بذلك في «نوردرماركت» كل يوم سبت. يرمي إليه المارة قطع النقود في القبعة التي أعطاها إياه ذلك الرجل من مدينة «فيروفيتيكا» الذي لديه كشك للقبعات هناك. كل «أهلنا» يعرفونه. وقد تزوجت نيفينا من أحد «شبابنا» وعندها طفلة منه الآن. وهي تعمل في أحد فروع بنك «رابو». ميليها في سراييفو. وقد تمكنت من استعادة شقة العائلة وإخراج الناس الذين كانوا يقطنونها بشكل غير قانوني. أما والداها فلم يعد لهما أي علاقة بتلك المدينة: فهما لم يعودا إليها ولو مرة واحدة منذ أن انتقلا إلى هنا. تعيش ميليها الآن مع رجل هولندي أنشأ منظمة غير حكومية لمساعدة «المستضعفين». أكمل ماريو دراسته الجامعية، ووجد وظيفة في التصميم الإلكتروني. لديه طفل أيضا. انضم بوبان إلى طائفة بوذية، وحلق لحيته، وتحول إلى نباتي، وحصل على الرعاية

الاجتماعيـــة. كانت جوهانكـــي الوحيدة التي تركــت الجامعة، فقد هربت أختها الكبرى. والآن تعيش مع والدها في البوســـنة. لقد تحطمت حياتها. أصبح ســـليم متعصبـــا يقضي أياما عدة مع المتســـكعين في متنزه «فونديل». يدمـــدم قائلا: «علينا نحن البوسنيين أن نضرب أولئك الصرب الأوغاد بقوة، ثم من بعدهم الكروات، وجميع الأوروبيين، والأمريكيين أيضا». أما زول، الذي جاء إلـــى الصف مرة واحدة أو مرتـــين، فيفترض أنه ذهب إلى كندا مدعيا أنـــه «ضحية مزدوجة» لميلوســـيفيتش وقنابل حلف شـــمال الأطلنطي معا. ولكن من المرجح أنه كان يعمل مع المافيا الصربية المحلية، ثم انشق عنها وهرب للنجاة بجلده.

حصلت على كل هـــذه المعلومات من داركو عندما التقيته في أحـــد الأيام بمحض المصادفة على شـــاطئ مهجور بالقرب من «واســـينار». كان المشهد ســـرياليا. فقد عرفته بصعوبة: صار ذا بشرة برونزية، وشعر أشـــقر فاتح، وارتدى نظارة شمسية أنيقة وحمل جهاز موســـيقى. كان على صهوة حصان. بدا كأنه عارض أزياء لدى «كالفين كلين»، أو، بالأحرى، محاكاة هشة له. أخبرني بأنه يأخذ دروسا في ركوب الخيل في نادي «واسينار» للفروسية. كان أحد أصدقائه رجلا أعمال أمريكيا ناجحا، وكانت له علاقات بمجتمع المثليين. ولكنه الآن ترك تلك الحياة الفاسقة، التي طالما تحدث عنها صراحة، واســـتقر في منزل في «ربجيويرسلاتش». والشـــكر هنا لصديقه الذي طيَّـــر مليونا كاملا على ذلك المنزل، نعم، مليون دولار ...

قال: «اكتشفت أنني أحب ركوب الخيل». ثم أضاف، وهو ينظر إليّ بحنان: «سجلي في أي دورة هنا، أي دورة - يوجا، أو رقص السالسا، أو أي شيء آخر. هذا ما أقوله للجميع. ومادام الأمر يتضمن تمرينا بدنيا، فإنه سيعود بفائدة جمة عليك».

قلت: «أنا أتعلم اللغة الهولندية الآن».

قال، كأنه يخاطب شخصا في مكان آخر: «هذا جيد!».

عندئذ لمحت انعكاس صورتي على نظارته الشمسية، وسرت قشعريرة في عمودي الفقري: لقد كان في النظارة وجهان يلمعان في العدستين، ولم يكن وجهي من بينهما.

ولكن أغرب تلك القصص كانت قصة إيجور. يقول الناس إنه ذهب إلى آخر مدى. بداية حصل على وظيفة مترجم في محكمة لاهاي، حيث، لم يكن الوحيد - بالمناسبة - من جماعتنا في تلك الوظيفة. لكنه طرد من ذلك العمل لأنه توقف عن الحضور. ثم في أحد الأيام وُجد - أو الأقرب للحقيقة، أنه وجد نفسه - في مطار ما أو آخر، في «كلكتا»، أو «كوالالمبور»، أو «سنغافورة». قيل إنه كان يعاني أعراضا تظهر بعد صدمة عاطفية عنيفة تحمل اسم عظيم، اسم موسيقى الفوجا، «الفوجا الفصامية». نوبات أعراض الفوجا تظهر عادة بعد رحلة مفاجئة. وتستمر مدة تتراوح بين بضعة أيام وبضعة شهور، وتسبب فقدانا كاملا للوعي، ويكون على المصاب بها أن يخترع هوية له، فهو لا يدرك من هو، ولا من أين. وعندما يعودون إلى حالتهم الطبيعية، لا يتذكرون أي شيء حدث لهم أثناء «الفوجا الفصامية». إنها حالة مرضية جنونية من الضياع ثم العودة، لم يسمع بها أحد من قبل. ويدعي بعض الأطباء

النفسـيين أن «الفوجا الفصامية» لا تحدث هكذا، وأن سببها هو الإفـراط في تناول الخمر. قد يكـون الأمر كذلك، ولكن داركو لا يتذكر أن إيجور كان مفرطا في الشرب. لم يعرف أحد أين كان أو كيف كان يدبر أمره. ربما عاد إلى الوطن. أما الآخرون، فقد ذهب كل في طريقه. لقد فقدوا التواصل فيما بينهم.

قال داركو، بصوت فيه مسـحة مرحة مفرطة بعض الشـيء: «بالمناسبة، لقد توصلت إلى اكتشاف آخر».

«وهو؟».

رد مشيرا إلى جهاز الموسيقى: «الأوبرا. أنا مولع بفيردي».

توقف واسـترخى بخفة ملحوظة، وقد غشـا وجهه الطفولي الناعم الوسيم طيف رقيق.

قـال مترددا، كأنه يبصـق الرمل من فمه: «إنهـا تلك الليلة مع يوروش... بعد ذلك العشـاء عندما احتفلنـا بعيد ميلادك، أتتذكرين ذلك؟».

قلت: «أذكر ذلك».

«حسنا، أوصلته إلى البيت، (...)، لقد كنا ثملين...».

«لماذا تخبرني بهذا؟»

هز كتفيه.

«لا أعرف... إن ذلك يسبب لي إزعاجا مستمرا...».

فيمـا يتعلق بمحكمة لاهاي، تتراكم الأضابير، وكومات الورق تتزايد؛ وأشرطة فيديو المرافعات يمكنها أن تغطي طول وعرض الأرض التـي اختفت. في حقيقة الأمر، يبدو أن كل خسـارة تم العناية بها، سواء كان ذلك بعبارات واقعية، أو ساخرة، أو غريبة.

لقد شـفيت جراح البعـض إلى حد بعيد، عنـد آخرين مازالت هزيلة، لكنها على كل حال تشـفى. حتى الندوب بدأت تتلاشى. الكل موجود في مكان مـا، والبعض يقومون بما يجيدون عمله، بينما يبذل آخـرون أقصى جهودهم. كانت الحياة أكثر كرما مع البعـض من غيرهم، ولكن كل فـرد وجـد موضـعا مناسـبا له. لـم يحص عدد القتلى والمختفين حتى الآن، والعديد من مرتكبي الجرائم مازالوا طلقاء، والكثير من الحطام لم يزل موجودا بعد، ولم يتم إبطـال مفعول العديد من الألغام، لكن العاصفة هدأت. تسـتمر الحيـاة وهي في الوقـت الحاضر، علـى الأقل، جيدة للجميع.

يوما ما سـوف يمثل أمام محكمة لاهاي أكبر المجرمين على الإطلاق، وسـوف أذهب لألقي نظرة عليه. سـوف يكون مرتديا بدلة رمادية، وقميصا أبيض، وربطة عنق حمراء ساطعة. سيكون لون ربطة العنق مماثلا للون روب القاضي. سـيجلس المتهم في القفص الزجاجي، وفكه مشدود، وفمه على شكل حدوة مقلوبة. سـوف تُبيِّن سـاعة الحائط الوقت، ولكنه لن يكون الوقت نفسه في العالم خارج المحكمة. سوف أصدم عندما أكتشف أنني خلال السـنوات القليلة التي مضت نسيت كل شيء، وأنني أستطيع - بصعوبة - أن أتذكر أسـماء الناس الذيـن عبثوا بحياتنا كثيرا. سوف يتولد لدي الشعور بأن مائة سنة مرت منذ اندلاع الحرب، وليست تسع أو عشر سـنوات. سوف أجابه نسياني وجها لوجه بإحسـاس عميق بالرعب. سوف يتحدث الرجل ذو رابطة العنق الحمراء بلغة لم أعد أفهمها. وسوف أتذكر التفاصيل الآتية: كان

المتهم يتصفح الاورق التي أمامه، وهو يلحس أصابعه مثل صاحب دكان في القرية؛ وسوف يرفع رأسه كأنه يريد شم الهواء الموجود حولــه، ثم ينحرف بنظره إلى قاعــة المحكمة؛ وفي تلك اللحظة ســوف تلتقي العينان اللتان خلف الزجاج بعينيّ، وســوف تكون هاتان العينان معتمتين، وبليدتين وخاليتين من أي تعبير. ســوف يذكّرني فكه المشدود بإحكام، ونظرته الباهتة، بدب قطبي؛ بعد ذلك سوف يرفع كفه ويطرد الذباب غير المرئي عن أنفه، قبل أن يعود إلى النظر أمامه مشدوها.

في بعــض الأحيان أفكر في يوروش، وأرجح أنه اتخذ القرار المناسب. يأخذ معه أقلامه، ووسائده، وقبعات اليرملك المخملية، واحدة لكل يوم في الأسبوع. ينظف أسنانه، وإن سمحت الظروف، يســتدير ليتجه نحــو حائط المبكى المقدس. متعرقا كمحاســب منهمك في حساباته، يكتب مظالمه، وصلواته على قصّاصات من الورق. يلفها في أنابيب صغيرة، ثم يحشــرها داخل الشقوق بين حجارة الحائط.

قــال إيجور: «نحن نخرج من كل ما مررنا به من خلال واحدة من ثلاث طرق». «إما نخرج أحسن، وإما أسوأ، وإما مثل يوروش – برصاصة في الجمجمــة». وأنا لا أعرف أين أقف الآن، فيما عدا أنني طرحت الرصاصة جانبا.

وبمناسبة الحديث عن إيجور، لم أخبر داركو أنني أعرف عن ظروفه أكثــر مما أخبرني في ذلك اليوم على الشــاطئ. وأحد الأســباب هو أن البلاغ الذي أعطيته إلى الشرطي لم يصل إلى إيجور قط. فمن المؤكد أن الشــرطي الذي جاء إلى شقتي شعر

بأنــه فعل كل ما يجــب عليه فعله بفك القيود عن يديّ. لقد كان محقا، إذ إنني استخففت بفطنته.

يعمــل إيجــور حاليا مع بعــض البنائــين الأيرلنديين. يجيد الأيرلنديون الأعمــال اليدوية، فهم نجارون مهرة. إنهم يجددون البيوت والشقق، ويهدمون الجدران ويبنونها من جديد، ويسحبون كل الخردة التي تجمعت عبر الســنين، ويقومون بجميع ما يلزم. والأمر ليس أن أمســتردام ينقصها «أهلنا»، ولكن إيجور يريد أن يبتعــد عنهم. تعود إيجور على القيام بهذا العمل اليدوي الصعب حديثــا إلــى حد ما. إنــه يضع كل ما يملك مــن جهده في هذا العمل، كأنه يستخدمه ككفّارة لشيء ما. ربما هو مدفوع بالفكرة المجنونة، وهي أنه بعرق جبينه يستطيع أن يعيد نوعا من التوازن، وأنه بكل جدار يبنيه هنا، سينهض واحد هناك من تحت الحطام، في قرى البوسنة، أو كرواتيا، أو أي مكان يحتاج إليه.

الحياة عاملتنا بشــكل جيد. يغادر إيجــور البيت ويعود إليه مبكرا. يتوجه مباشــرة إلى الحمام، وينظف ما علق به في أثناء العمــل، ويرتدي ملابس نظيفة، ويطوي أكمام قميصه، ثم يأخذ مكانه على طاولة الطعام. أقدم وجبة طازجة. نأكل ببطء وبغرابة متناهيــة، ونتكلم قليلا. كلماتنا جافة كالرمــل، وأنا أحب كونها كذلك. ربما أصبحنــا كالهولنديين. يقال إن الهولنديين يتكلمون فقط عندما يكون لديهم شيء ليقولوه.

أحيانــا يكون لقلقــي اليد الطولــى. وعندما يحــدث ذلك، آخذ حقيبتــي، وأرمي بمعطف على كتفيّ، وأغادر الشــقة على

عجل. توقف إيجور عن عرضه للذهاب معي، إذ إنه يمنحني حرية القرار، وهو يعرف إلى أين سأذهب. عادة ما أذهب إلى الشاطئ، واحد من تلك الشواطئ الرملية الطويلة. فأنا أحب الشواطئ الهولندية المهجورة في أواخر الخريف، وفي الشتاء. أقف هناك محملقة في البحر الرمادي والسماء الرمادية، أقف هناك مُسمّرة في مواجهة جدار خيالي. ثم أفتح فمي وأنطق بالكلمات، ببطء في البداية، ثم بتسارع أكثر وصوت أعلى. أُرجرج لساني مثل تنين في قصة خرافية، فتتشعب منه ألسنة كرواتية، وصربية، وبوسنية، وسلوفينية، ومقدونية... وبينما أنا أمام الجدار غير المرئي، أدفع رأسي في الريح بطريقة إيقاعية وأتكلم. وبينما الريح تلفني، وقد طُبعت في المنظر الطبيعي مثل مشاهد عرض في آلة الشرائح، أنا، المعلمة فخر جيلي، أقول ما ينبغي عليّ أن أقوله، أردد دعائي البلقاني. أفرز الكلمات من فمي مثل حبر الحبار. أرسل الأصوات إلى المجهول مثل رسالة في قنينة. وبعد أن أرميها في مهب الريح، أشاهدها تتطاير في الهواء. أراقبها وهي تلتف في أنابيب صغيرة، وترسم حلقات، وتنقض غاطسة في جدار الماء، حيث تذوب في الحال. مثل الملح. وعندما تستسلم أوتاري الصوتية، وعندما تفقد جبهتي الإحساس بسبب الريح، أترك الشاطئ، وقد لملمت نفسي، من دون أن أخلِّف أي أثر البتة.

الأفق الهولندي نافع، فهو أشبه ما يكون بورق النشّاف الذي كنا نستعمله عبر السنين في المدرسة، إنه يمتص كل شيء ...

ليتك تُلعن في هذا العالم والعالم الآخر.

ليتك لا تعيش لترى شروق الشمس.

ليت النسور تلتهمك.

ليتك تختفي من على وجه الأرض.

ليتك تمشي في حقل أشواك وأنت حافي القدمين.

ليت الله يجعلك أنحف من خيط وأكثر سوادا من قدر.

ليتك تحصد المُر أينما زرعت الريحان.

ليت الشيطان يعذبك.

ليت الشيطان يلعق حساءك.

ليت الشيطان يُملح حساءك.

ليت الغربان تنعب عليك.

ليت دمك يسبب لك الألم.

ليتك تتلوى من الألم.

ليت البرق والرعد يصعقك.

ليت البرق يصعقك ويفصلك إلى نصفين.

ليتك تتيه في الأرض أعمى.

ليت أفعى تلدغك في القلب.

ليتك تعاني كدودة تحت اللحاء.

ليتك تغرق في ماء راكد.

ليت قلبك يتمزق وينفجر.

ليت سهما ينفذ من قلبك.

ليتك لا ترى ضوء النهار ثانية.

ليت الجميع يتخلون عنك.

ليتك تفقد كل شيء عدا اسمك.

ليتك تمحى من الجذور.

ليتك تصبح أصم، أبكم.

ليت حياتك تصبح جرداء قاحلة.

ليت أفعى تلف نفسها حول خصرك.

ليت أفعى تلتهمك مرة واحدة.

ليت الشمس تحرقك وأنت على قيد الحياة.

ليت سكّرك يصبح مرا.

ليت فمك وعنقك يتبادلان الأمكنة.

ليتك تختنق بالخبز والملح.

ليت الشيطان يصيبك بالطاعون.

ليت الله يفعل بك ما فعلته بي.

ليت البحر يرمي بعظامك على الشاطئ.

ليت العشب ينمو بين عظامك.

ليتك لا ترى إلا سوادا، وليت عينيك تبيضان.

ليتك تتحول إلى غبار ورماد.

ليت الله يحرق عينيك ويبقي محجريهما.

ليت فمك لا ينطق كلمة.

ليت اللعنة تحط عليك.

ليتك تبول دما وقطرانا.

ليت جرحا حيا يلتهمك.

ليت النار تلتهمك.

ليت المياه تفيض من فوقك.

ليتك تحترق حتى الموت.
ليتك ترقد في قبر بلا حراك لمائة عام.
ليتك لا تتزوج ولا تعرف المتعة.
ليتك يكون مصير اسمك النسيان.
ليتك لا ترى الشمس.
ليتك تموت من الصدأ.
ليتك تصعق بالرعد والبرق.
ليتك تقتل كل يوم في السنة.
ليت وجهك يتحول إلى قار.
ليت جذورك تجف.
ليتك تنفجر.
ليتك تلعق الرماد.
ليتك تتحول إلى صخر.
ليت قلبك يتحول إلى صخر.
ليتك تموت في الظلمة.
ليت روحك تسقط منك.
ليتك تختفي في كسوف.
ليتك تأكل ولا تشبع.
ليتك تقع ميتا على قارعة الطريق.
ليت أفراحك تتحول لنواح.
ليتك تنجرف دون مستقر.
ليتك تفقد السمع والنطق.
ليتك لا تملك شيئا.

ليتك تذبل من الجذور.

ليتك تبكي لحليب أمك.

ليت الأرض تلفظ عظامك.

ليت الديدان تلتهمك.

ليتك تفقد روحك وأظافرك.

ليتك لا يكون لك ضيف طول الحياة.

ليتك لا ترى منزلك مرة أخرى.

ليتك لا تجد الخبز عندما يكون لديك الملح.

ليتك تتحول إلى خشب وصخر.

ليت صخرة تسقط على قلبك.

ليت تمنياتي الحارة تقتلك.

ليتك لا تسمع مرة أخرى.

ليت ضفدعا يبول عليك.

ليتك لا تنهض من نومك في المرة القادمة.

ليت دموعي تقتلك.

ليت شمعتك تنطفئ.

ليت أيامك تسود.

ليت لسانك يتوقف عن النطق.

ليت البؤس يبتسم لك.

ليتك تترك عظامك خلفك.

المؤلفة في سطور

دوبرافكا أوجاريسك

- كاتبة روائية كرواتية.
- ولدت في ٣ مارس ١٩٤٩ في مدينة «كونتينا» في كرواتيا.
- ألّفت العديد من الروايات الأدبية، وعددها ١١ رواية.
- حازت العديد من الجوائز الأدبية المحلية والعالمية، أشهرها جائزة الدولة النمساوية في الأدب الأوروبي سنة ١٩٩٩.

المترجم في سطور

أ.د. محمد فرغل

- من مواليد بلدة سوف (الأردن) العام ١٩٥٦.
- حاصل على شهادة الدكتوراه في اللغويات من جامعة إنديانا الأمريكية - بلومنجتون العام ١٩٨٦.
- عمل أستاذا للغويات والترجمة في جامعة اليرموك لمدة خمسة عشر عاما قبل أن يلتحق بجامعة الكويت منذ العام ٢٠٠١ حتى الآن.
- نشر عشرات الأبحاث اللغوية في المجلات العلمية الإقليمية والعالمية.
- ألف العديد من الكتب آخرها كتاب بالإنجليزية يدور حول قضايا الترجمة بين العربية والإنجليزية.
- ترجم العديد من الأعمال الأدبية والمقالات العلمية آخرها رواية الطريق للكاتب الأمريكي كورماك مكارثي (إبداعات عالمية أكتوبر ٢٠٠٩).
- حصل على جائزة عبدالحميد شومان للعلماء العرب الشباب (الأردن) في العلوم الإنسانية العام ١٩٩٣. كما حصل على جائزة الباحث المتميز في العلوم الإنسانية من جامعة الكويت العام ٢٠٠٦.

المراجعة في سطور

د. سامية دياب

- من مواليد جمهورية مصر العربية ١٩٥١.
- حاصلة على دكتوراه علم الفولكلور والأدب الشعبي - جامعة أودفش لوراند - بودابست - المجر العام ١٩٩٠.
- لها عدة كتب مترجمة وهي: عندما جاء السردين (القصة القصيرة في منطقة جنوب أفريقيا) - مسرحيتا: اللص الفاضل، واحد عريان وواحد في بدلة السهرة - كيف ظهرت النجوم (قصة للأطفال) - الفولكلور في الأرشيف - الدمية (رواية) - مونولوجات نسائية.
- كما لها عدة مقالات منشورة في المجلات.

إصدارات قادمة

مجموعة قصص أفغانية

تأليف: محمد آصف زاده

ترجمة: د. زبيدة أشكناني

مراجعة: أ. عبدالقادر عقيل

ترجمت عن الفارسية

ما صدر من هذه السلسلة

318	نون و القلم	تأليف : جلال آل أحمد
319	سيري سامبيجي	تأليف : تشاندرا سيخار كامبار
320	أيام بورمية	تأليف : جورج أورويل
321	ست وصايا للألفية القادمة	تأليف : ايتالو كالفينو
322	السكرتير الخصوصي	تأليف : ت. س. إليوت
323	قصص برازيلية	تأليف : مجموعة من القاصين البرازيليين
324	شذرات من خطاب في العشق	تأليف : رولان بارت
325	لون الماء	تأليف : جيمز ماكبرايد
326	وجهان لحواء	تأليف : أمريتا بريتام
327	المنزل ذو الشرفات السبع	تأليف : اليخاندرو كاسونا
328	من الأدب الباكستاني الحديث	تأليف مجموعة من القاصين الباكستانيين
329	مختارات من القصة التركية المعاصرة	تأليف : مجموعة من القاصين الأتراك
330	مسرحية محكمة العدل في بلخ	تأليف : بهرام بيضائي
331	مطبخ - خيالات ضوء القمر	تأليف : بنانا يوشيموتو
332	الطباخون الأشرار	تأليف : جونتر جراس
	الجرة المكسورة	تأليف : هاينرش فون كلايست
333	شمل تشابه ضائع	تأليف : أندريه شديد
334	حكايات الهنود الأمريكيين و أساطيرهم	تأليف : فلاديمير هلباتش
335	زهرة الصيف	تأليف : مجموعة من القاصين اليابانيين
336	طام - طام زنجي	تأليف : ليوبولد سيدار سنغور
337	اليبروح	تأليف : نيكولو ماكيافللي
338	منزل النور	تأليف : جوهر مراد
339	كثبان النمل في السافانا	تأليف : تشنوا أشيبي
340	أناتول وجنون العظمة	تأليف: أرتور شنيتسلر
341	غرام ميتيا	تأليف: إيفان بونين
342	آرنجندن والحارس الليلي	تأليف: فيمي أوسوفيسان
343	ورقة في الرياح القارسة	تأليف: تنغ - هسنغ يي
344	مدرسة الدكتاتور	تأليف: إيريش كستنر
345	رسائل عيد الميلاد	تيد هيوز
346	حكايات وخرافات أفريقية (1)	تأليف: سليمان جيغو ديوب
	الطفل الملك	
347	مسرحية عذراء أورليان	تأليف: فريدريش شيللر
348	حكايات وخرافات أفريقية (2)	تأليف: سليمان جيغو ديوب

ما صدر من هذه السلسلة

العدد	العنوان	المؤلف
	الأدغال والسهول العشبية تحكي	
349	القصة القصيرة الإسبانو أمريكية في القرن العشرين	تأليف: مجموعة من القاصين المتحدثين بالأسبانية
350	مسرحيتا: -1 محنة الأخ جيرو -2 تحوُّل الأخ جيرو	تأليف: وول سوينكا
351	روض الأدب (مختارات قصصية)	تأليف: أو. هنري
352	مسرحية «آنتيجون»	تأليف: ب. بريشت
353	أجمل حكايات الزن	تأليف: هنري برونل
354	يتبعها فن الهايكو	
	مسرحية «المقهى»	تأليف: لاوشه
355	مسرحيتا: -1 صناعة تاريخ -2 ترجمات	تأليف: برايان فرييل
356	رواية «الشباب»	تأليف: ج. م. كويتتزي
357	مختارات من الشعر المجري المعاصر (شعراء السبعينيات)	تأليف: مجموعة من الشعراء المجريين
358	مسرحيتا: -1 تلاميذ الخوف -2 الغزاة	تأليف: إيجون وولف
359	اسمي آرام (مجموعة قصصية)	تأليف: وليام ساروريان
360	حامل الإكليل (قصص مختارة)	تأليف: مجموعة من القاصين المتحدثين بالألمانية
361	الصُّــورة (مسرحية)	تأليف: سيلافومير مروجيك
362	الأيـام الخمسة الأخيـرة لرسول (رواية)	تأليف: تحسين يوجل
363	سبع مسرحيات ذات فصل واحد (من بولند)	تأليف: إيرينيوش إيريدينسكي أندجي ماليشكا ستانيسلاف ليم (ستانيسواف) سوافومير مروچيك
364	سبع نساء... سبع قصص	تأليف: مجموعة من القاصات الفارسيات
365	زمن الضحك (ملهاة خفيفة من ثلاثة فصول)	تأليف: نويل كاورد
366	بالأبيض على الأسود (رواية)	تـألـيـف: رُوبـــين دايـڤـيـد غونساليس غاليغو
367	مسرحيتا: -1 سهرة في المقهى -2 موت ممثل مشهور	تأليف: تيان هان
368	إمرأة وحيدة «فروغ فرخزاد وأشعارها» سيرة حياة	تأليف: مايكل هلمان

ما صدر من هذه السلسلة

369	«الملاح» (مسرحية من الأدب البولندي)	تأليف: ييجى شانيافسكي
370	ليلة التنبؤ (رواية)	تأليف: بول أوستر
371	هذا الجيل المحظوظ (مسرحية)	تأليف: نويل كاورد
372	لا وجود لخصومات صغيرة	تأليف: أمادو همباطي با
373	الليلة التي أمضاها ثورو في السجن (مسرحية)	تأليف: جيروم لورنس وروبرت إي. لي
374	مختارات من الشعر الإيراني الحديث	تأليف: مجموعة من الشعراء الإيرانيين
375	العقرب وقصص أخرى (الجزء الأول)	تأليف: بول بولز
376	العقرب وقصص أخرى (الجزء الثاني)	تأليف: بول بولز
377	«الأسيرة» (مختارات من ديوان شعر)	تأليف: فُروغ فرخزاد
378	شارع بريك لين (الجزء الأول)	تأليف: مونيكا علي
379	شارع بريك لين (الجزء الثاني)	تأليف: مونيكا علي
380	الطريق (رواية)	تأليف: كورماك مكارثي
381	مختارات من القصص القصيرة الأوزبكية	تأليف: مجموعة من الأدباء الأوزبك
382	عشيق الصين الشمالية (رواية)	تأليف: مارغريت دوراس
383	المجموعة القصصية الكاملة لإرنست همنغواي (الجزء الأول)	تأليف: إرنست همنغواي
384	المجموعة القصصية الكاملة لإرنست همنغواي (الجزء الثاني)	تأليف: إرنست همنغواي
385	المجموعة القصصية الكاملة لإرنست همنغواي (الجزء الثالث)	تأليف: إرنست همنغواي
386	النمر الأبيض (رواية)	تأليف: آرافيند آديغا

قسيمة الاشتراك

البيان	إبداعات عالمية		مجلة الثقافة العالمية		مجلة عالم الفكر		سلسلة عالم المعرفة	
	د.ك	دولار	د.ك	دولار	د.ك	دولار	د.ك	دولار
المؤسسات داخل الكويت	٢٠	–	١٢	–	١٢	–	٢٥	–
الأفراد داخل الكويت	١٠	–	٦	–	٦	–	١٥	–
لمؤسسات في دول الخليج العربي	٢٤	–	١٦	–	١٦	–	٣٠	–
الأفراد في دول الخليج العربي	١٢	–	٨	–	٨	–	١٧	–
ؤسسات في الدول العربية الأخرى	–	٥٠	–	٣٠	–	٢٠	–	٥٠
لأفراد في الدول العربية الأخرى	–	٢٥	–	١٥	–	١٠	–	٢٥
المؤسسات خارج الوطن العربي	–	١٠٠	–	٥٠	–	٤٠	–	١٠٠
الأفراد خارج الوطن العربي	–	٥٠	–	٢٥	–	٢٠	–	٥٠

جاء ملء البيانات في حالة رغبتكم في: تسجيل اشتراك ☐ تجديد اشتراك ☐

الاسم:	
العنوان:	
اسم المطبوعة:	**مدة الاشتراك:**
المبلغ المرسل:	**نقداً/ شيك رقم:**
التوقيع:	**التاريخ:** / / ٢٠٠م

تسدد الاشتراكات مقدما بحوالة مصرفية باسم المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب مع مراعاة سداد ولة البنك المحول عليه المبلغ في الكويت.

وترسل على العنوان التالي:

السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

ص.ب: 28623 - الصفاة - الرمز البريدي 13147

دولة الكويت

ولة	وكيل التوزيع الحالي	العنوان	تليفون	فاكس
ويت	المجموعة الإعلامية العالمية	الشويخ – الحرة – قسيمة 34 – الكويت – الشويخ – ص.ب 64185 – الرمز البريدي 70452	24826820/1/2 24613872 /3	4826823
ارات	شركة الإمارات للطباعة والنشر والتوزيع	Emirates Printing, Publishing & Distribution Company Dubi Media City/ Dubai UAE P.O Box: 60499	00971 242629273	00971 2660337
عودية	الشركة السعودية للتوزيع	المملكة العربية السعودية – الرياض – حي المؤتمرات – طريق مكة المكرمة – ص.ب 62116، الرمز البريدي 11585	00966 (01) 2128000	0966 (01) 2121766
رية	المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات	سورية – دمشق – البرانكة	00963 112127797	00963 12128664
صر	مؤسسة دار أخبار اليوم	جمهورية مصر العربية – القاهرة – 6 شارع الصحافة – ص.ب 372	00202 25782700-25782632	00202 5782632
رب	الشركة العربية الأفريقية للتوزيع والنشر	المغرب – الرباط – ص.ب 13683 – زنقه سجلماسه – بلفدير – ص.ب 13008	00212 522249200	00212 22249214
س	الشركة التونسية للصحافة	تونس – ص.ب 719 – 3 نهج المغرب – تونس 1000	00216 71322499	00216 71323004
ان	مؤسسة نعنوع الصحفية للتوزيع	لبنان – بيروت – خندق الغميق – شارع سعد – بناية فواز	00961 1666314/5 01 653259	61 1653260
من	القائد للنشر والتوزيع	الجمهورية اليمنية – صنعاء	00967 2/3201901	67 1240883
ردن	وكالة التوزيع الأردنية	عمان – تلال العلي – بجانب مؤسسة الضمان الاجتماعي	00962 65300170 - 65358855	00962 5337733
حرين	مؤسسة الهلال لتوزيع الصحف	البحرين – المنامة – ص.ب 10324	00973 17 480801	00973 17 480819
طنة مان	مؤسسة العطاء للتوزيع	ص.ب 473 – مسقط – الرمز البريدي 130 – العذيبة – سلطنة عُمان	00968 24492936	4493200 00968
طر	دار الشرق للطباعة والنشر والتوزيع	قطر – الدوحة – ص.ب 3488	00974 4557809/10/11	00974 4557819
طين	شركة رام الله للنشر والتوزيع	رام الله – عين مصباح – ص.ب 1314	00970 22980800	00970 2964133
ودان	دار الريان للثقافة والنشر والتوزيع	السودان – الخرطوم – الرياض – ش المشتل – العقار رقم 52 – مربع 11	002491 83242702	002491 3242703
زائر	شركة بوقادوم للنقل وتوزيع الصحافة	Cite des preres FARAD.lot N09. Constantine. Algeria	00213 (0) 31909590	0213 (0) 1909328
راق	شركة الازدهار للتوزيع	Al Izdihar (alizdihar__co@yahoo.com)	-	-
ورك	Media Marketing	Long Island City، NY 11101 – 3258	00718 4725488	18 4725493
دن	Universal Press	Universal Press & Marketing Limitd	(0) 0044 2087499828 0044208 7423344	08 7493904

سلسلة إبداعات عالمية

«إبداعات عالمية» سلسلة دورية تصدر كل شهرين عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، وكانت في السابق تصدر - شهريا - عن وزارة الإعلام تحت اسم سلسلة «من المسرح العالمي» حتى بعد انضمامها إلى المجلس الوطني العام ١٩٩٤، وكانت تعنى بنشر المسرحيات العالمية فقط.

وقد صدر العدد الأول من سلسلة «من المسرح العالمي» في أكتوبر ١٩٦٩، تحت عنوان مسرحية «سمك عسير الهضم»، تأليف: مانويل جاليتش، وبعد تغيير مسماها إلى سلسلة «إبداعات عالمية» العام ١٩٩٨، أصبحت تعنى بنشر الترجمات الإبداعية الراقية من لغات مختلفة، وتنطلق أهداف السلسلة (إبداعات عالمية) من فلسفتها في نشر الوعي الثقافي القائم على التراث الإنساني، من خلال نشر وتقديم ترجمات رصينة من الآداب العالمية، من روايات وقصص قصيرة ودواوين شعر ومسرحيات... وغيرها، من لغاتها الأصلية، بهدف تزويد المكتبة العربية بآثار هذه الثقافات المختلفة.

وترحب السلسلة باقتراحات النشر والترجمة المقدمة من المتخصصين، على أن تكون وفق الشروط التالية:

١ - أن تكون المادة المقترح ترجمتها مميزة في المستوى الفكري والأدبي الرفيع، ولم يسبق نشرها في أي مكان آخر.

٢ - يجب ألا يزيد حجم المادة على ٣٥٠ صفحة من القطع المتوسط، وأن تكون مصحوبة بنبذة وافية عن الكتاب وموضوعاته وأهميته ومدى جدواه.

٣ - يجب تقديم النص الأدبي المقترح نشره، أو ترجمته مع الكتاب في لغته الأصلية، ويرسل مطبوعا على الآلة الكاتبة مع وضع نسخة من النص المترجم في ديسك أو CD، مع تدوين أرقام صفحات الكتاب الأصلي المقابلة للنص المترجم على جانب الصفحة المترجمة.

٤ - السلسلة غير مسؤولة عن إعادة الكتب الأجنبية والنصوص الأصلية أو المترجمة التي لا يتم قبولها.

٥ - المواد المقدمة للنشر أو الترجمة تخضع للتحكيم العلمي على نحو سري من قبل هيئة تحرير السلسلة، ويجري إرجاع النصوص إلى أصحابها لإجراء التعديلات أو الإضافات اللازمة عليها قبل نشرها، كما يجب ألا تحتوي النصوص على عبارات منافية للدين أو الأخلاق.

وفي حال الموافقة والتعاقد على الموضوع المترجم للنشر تصرف مكافأة للمترجم بمعدل ٢٠ فلسا عن الكلمة الواحدة في النص الأجنبي.

وفي جميع الحالات ينبغي إرسال سيرة ذاتية وافية للمترجم، (C.V) تتضمن البيانات الرئيسية عن نشاطه الأدبي السابق، وعنوان المراسلة التقليدي والإلكتروني، واسمه الثلاثي باللغة الإنجليزية حسب جواز سفره، بالإضافة إلى كتابة اسم البنك الذي يتعامل معه ورقم حسابه الذي ستحول المكافأة عليه.



المجلس
الوطني
للثقافة
والفنون
والآداب



موطن الألم

نتعرف في هذا العدد على كاتبة روائية كرواتية معاصرة، تعيش الآن في هولندا، وقد أبدعت هذه الكاتبة بروايتها «موطن الألم»، أو كما يحلو للبعض تسميتها بـ «وزارة الألم»، حيث إنها تناقش قضية النزوح الكبير من يوغسلافيا السابقة إلى الخارج بعد اندلاع الحروب العرقية بين مختلف طوائف البلد من صرب وكروات وبوسنيين، وغيرهم سنة ١٩٩١.

تدور جل الأحداث المادية في هذه الرواية بمدينة أمستردام الهولندية؛ حيث لجأ إليها كثير من اليوغسلاف لأسباب مختلفة. ويشكل اللاجئون اليوغسلاف في أمستردام معظم الشخوص في هذه الرواية، منها الدكتورة تانيكا (تانيا)، والطلبة «إيجور» و«ميليها» و«آنا» و«جوهانكي».

وسيلاحظ قارئ الرواية أنها تحكي قصة ضياع وفقدان هوية، وتناقش مواضيع إنسانية غاية في الأهمية، تتعلق بتداعيات العيش في المنفى من خلال النموذج اليوغسلافي، بالإضافة إلى هاجس العودة إلى الوطن.

وهنا أيضا تقدم الرواية صورة سياسية متعمقة عن حقبة النظام الشيوعي في يوغسلافيا، وما رافقها من فساد وظلم واستبداد، أدى في نهاية المطاف إلى بزوغ النزعات العرقية المقيتة وتفسخ الدولة اليوغسلافية.

وتنتمي هذه الرواية من حيث التصنيف الأدبي إلى ما يسمى بـ «أدب المنفى».

وأخيرا وليس آخرا نشرت هذه الرواية باللغة الكرواتية في العام ٢٠٠٤، وترجمها «مايكل هنري هايم» إلى اللغة الإنجليزية في العام ٢٠٠٨، كما أن هناك ترجمة إنجليزية أخرى نشرت في ٢٠٠٥.

رقم الإيداع: ٢٠١١/٥٩٢
ردمك: ٤-٣٤٨-٠-٩٩٩٠٦-٩٧٨